اعلام الأدب الروسي

الكسندر بوشكين

مختارات نثرية



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان
وابو بكر يوسف

А. С. Пушкин
ИЗБРАННАЯ ПРОЗА
на арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

П $\frac{4702010100—110}{031(01)—84}$ 251—84

مقدمة

كلمة عن بوشكين

ان بوشكين الذى قـُتِل فى ذروة تطور قواه الحياتية والابداعية ظل الى الابد العميد ورأس الحكمة لكل تلامذته والمواصلين دربه ، الناهضين المبرزين بما عُهِد اليهم من الادب الرفيع ، ولا استثنى من ذلك ليف تولستوى نفسه – ولكل الذين فاقوه فى العمر ، مهما تكن السنين التى فاقوه بها . ويظل على هذا الشكل ، بالطبع فى يومنا هذا ، لكلنا جميعا ، بل واكثر ، لان بوشكين فى ايامنا اكبر مما عرفه اسلافنا . لقد كتب ف . غ . بيلينسكى ان «بوشكين ينتمى الى تلك الظواهر الحيّة والمتحركة ابدا ، والتى لا تبقى فى النقطة التى فارقت منها الحياة ، بل تستمر على التطور فى وعى المجتمع» .

ان مؤسس الادب الرفيع ، وينبوعه الاول الذى ترسخت اهميته العالمية ولم تعد موضع اى شك الفنان الذى لا يحاول حتى الخصوم التقليل من عبقريته الابداعية هو الآن احب الشعراء فى بلادنا المتعددة القوميات واكثرهم اجلالا وشعبية .

وتتمثل ظاهرية بوشكين ايضا فى انه ما كان فى مقدوره حتى ان يكتب بشكل سيئ ، اذ حتى اشعاره المبكرة المقلّدة مكتوبة على مستوى هو ، وفى الاغلب ، اعلى من مستوى تلك الادوات التى كانت الثقافة الشعرية الروسية تمتلكها فى تلك الاوقات .

ليس من السهل كثيرا تعداد ذخر بوشكين الذهبى ، اذ ليس هو فقط «يفغينى اونيغين» و«بوريس

غودونوف» و«الفارس النحاسى» ، ونفائس الشعر الغنائى فى الحب والفلسفة ، والتراجيديات الصغيرة ، والحكايات ، و«ابنة الآمر» وغير ذلك من نثره ، بل والمقالات النقدية والنبذ عن الرحلات ، والشذرات التاريخية ، واشياء لا عدّ لها دون ان تستثنى النماذج الرائعة فى فن كتابة الرسائل .

عند التحدث عن بوشكين نشعر حتى بالحراجة من استخدام كلمة «استاذية» ، والأليق بذلك «الساحرية» والكمال الذى يذهلنا فى ابداعاته . رغم اننا نعرف جيدا كم كلّف ذلك «عاشق الموزيات» هذا من جهد متفانٍ لا يكل . وحين نقرأ باستيعاب اكمل مبدعاته يصعب علينا عن حق ان نتصور انها مكتوبة ، اى انها مؤلفة من سطور وكلمات موجودة على حِدة ، وارادة الفنان وحدها جعلتها متجاذبة ومنظومة فى سلك واحد . بل تبدو لنا هذه الاعمال وكأنها وُجِدت بهذا الشكل فى الحياة نفسها ، فى الطبيعة ، وأُخِذت من هناك كياناتٍ كاملة .

ان روح بوشكين ، مثلما هى ملك للحاضر ، ملك للمستقبل ايضا ، مندفعة نحوه . لقد عاش فى زمانه ، مع معاصريه ، ومحيطه ، ولكن كأنما مع اجيال اخرى ، وهو يعيش مع جيلنا ، وسيعيش مع الاجيال التى ستخلفنا . ومن الصعب تصوّر تراث بوشكين . انه ذروة جبلية غير منعزلة ، وان كانت مهيبة ، بل هى تؤلف سلسلة جبارة مع ذرى عديدة وفروع لا حصر لها .

الكسندر تفاردوفسكي

قصص المرحوم ايفان بيتروفيتش بيلكين

السيدة بروستاكوفا : انــه ، يا عزيزى ، صياد حكايات منذ نعومة اظفاره .

سكوتينين : يعجبنى ميتروفان .

(من كوميديا فونفيزين «**شاب نصف متعلم**» .)

من الناشر

حين شرعنا فى السعى لنشر قصص ا . ب . بيلكين التى نقدمها للجمهور اليوم اردنا ان نضم اليها ، على الاقل ، نبذة قصيرة عن حياة المؤلف المرحوم ، فنُرضى بذلك جزءا من الفضول المشروع لمحبى الادب القومى . ولهذا الغرض اتصلنا بماريا الكسييفنا ترافيلينا قريبة ايفان بتروفيتش بيلكين قرابة دانية ، ووريثته ، الا انها ، مع الاسف ، لم تستطع ان تمدنا باية اخبار عنه ، لانها لم تكن متعرفة على المرحوم قط . ونصحتنا بان نرفع هذا الامر الى رجل معتبر كان صديقــــا لايفان بتروفيتش . واخذنا بهذه النصيحة ، وتلقينا جوابا على رسالتنا هذا الرد المطلوب . ونحن ننشره دون اى تعديل او تعليق كاثر نفيس لنموذج نبيل للرأى والصداقة المؤثرة ، وفى الوقت ذاته ، كترجمة لحياته كافية كليا .

سيدى المحترم ن . . . !

فى ٢٣ من هذا الشهر كان لى الشرف فى ان اتلقى

رسالتكم المحترمة المؤرخة فى ١٥ من الشهر ذاته ، وفيها تعربون عن رغبتكم فى الحصول على معلومات مفصلة عن تاريخ ميلاد صديقى الوفى وجارى فى الضيعة المرحوم ايفان بتروفيتش بيلكين وعن وفاتــه ، وخدمته ، وظروفه العائلية ، وحتى عن اشغاله وخلقه . وها انا البى رغبتكم بسرور عظيم ، وابعث لكم ، يا سيدى المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره من احاديثه ، وحتى من ملاحظاتى الخاصة .

ولد ايفان بتروفيتش بيلكين عام ١٧٩٨ فى قرية غوريوخينو من ابوين نزيهين نبيلين . كان ابوه النقيب المرحوم بيتر افانوفيتش قد تزوج الآنسة بيلاغيــا غفريلوفنا من عائلة ترافيلين . ولم يكن غنيا ، بــل متوسط الحال ، وصاحب فطنة كبيرة فى ادارة شؤونه . وقد تلقى ابنهما تعليمه الابتدائى على مقرئ ريفى . وانا اعتقد انه مدين الى هذا الرجل المحترم بولعه فى القراءة والاطلاع فى حقل الادب الروسى . فى عام ١٨١٥ دخل الخدمة فى فوج خاص للمشاة (لا اتذكر رقمه) . وبقى فيه حتى عام ١٨٢٣ ، حتى اضطرته وفاة والديه التى وقعت فى زمن واحد تقريبا الى الاستقالة ، والسفر الى قرية غوريوخينو ، الضيعة التى ورثها .

شرع ايفان بتروفيتش يدير الضيعة ، ثم ما لبث حتى اهملها بسبب من انعدام خبرته ، ورقة قلبه ، وارخى النظام الصارم الذى اقامه المرحوم والده ، وعزل العمدة المجتهد والحازم الكفؤ الذى كان الفلاحون (على عادتهم) غير راضين عنه ، وعهد بادارة القرية الى مديرة منزله العجوز التى كسبت ثقته بفن رواية الاقاصيص .

وكانت هذه العجوز البلهاء لا تميز ابدا بين ورقة من فئة خمسةوعشرين روبلا ، وبين ورقة من فئة خمسين روبلا . وكان الفلاحون لا يهابونها البتة ، فهى بالنسبة لهــم ليست الا عرّابة ؛ اخذ العمدة المنتخب من قبلهــم يتساهل امامهم ويكيد معهم المكائد حتى اضطر ايفان بتروفيتش الى الغاء السخرة ، ووضع ضريبة عينيــة معتدلة جدا ؛ ولكن الفلاحين فى هذا الحال ايضا استغلوا ضعفه ، واستدروا لانفسهم فى السنة الاولى تسهيلا مقصودا ، وفى السنوات التالية دفعوا ثلثى الضريبة العينية جوزا ، واعنابا برية ، وما شاكل ذلك ، وحتى هذه لم تكن بالكمية المطلوبة .

ولما كنت صديقا للمرحوم والد ايفان بتروفيتش فقد رأيت من واجبى ان اسدى له النصح ، واقترحت عليه غير مرة ان يعيد النظام القديم الذى اخل به . ولهذه الغاية ذهبت اليه ذات مرة ، وطلبت دفاتر الحسابات ، ودعوت العمدة المحتال ، وشرعت انظر فى هذه الدفاتر بحضور ايفان بتروفيتش . اخذ المالك الشاب فى بادئ الامر يتابعنى باهتمام بالغ وداب ، ولكن حين تبيَّن من الحسابات ان عدد الفلاحين فى السنتين الاخيرتين قد ازداد ، بينما نقص عدد ما فى المزرعة من دواجن ومواش عن عمد ، اكتفى ايفان بتروفيتش بالدليــل الاول هذا ، وبعده لم يعد يسمعنى ، وفى اللحظة التى اسلمت فيها العمدة المحتال الى حالة قصوى من الارتباك باستقصاءاتى واستفساراتى الدقيقــة الصارمة ، واجبرته على السكوت المطبق ، سمعت ايفان بتروفيتش ، ويا لعظيم حزنى ، يشخر عــلى مقعده

بشدة . ومنذ ذلك الحين كففت عن التدخل فى ادارة شؤونه الاقتصادية وسلمت امره (واياه ايضا) لحكم العليّ القدير .

الا ان هذا الامر لم يفسد صلاتنا الودية قط . فانا فى الوقت الذى كنت اشفق فيه على وهنه واهماله المدمر الذى هو صفة مشتركة لاعياننا الشبان ، كنت احب ايفان بتروفيتش حبا صادقا ، وكيف لا يحب المرء فتى دمث الاخلاق نقى السريرة . كما كان ايفان بتروفيتش ، من جانبه ، يحترم تقدمى فى السن ويميل اليّ بقلبه . كان يلتقى بى كل يوم تقريبا حتى آخر ايامه ، مقدرا حديثى البسيط ، رغم ان احدنا فى الغالب الاعم لم يكن يشابه الآخر لا فى العادات ولا فى طريقة التفكير ، ولا فى الخلق .

عاش ايفان بتروفيتش عيشة مقتصدة للغاية ، واعرض عن اى نوع من الاسراف ؛ ولم يصادف قط ان رايته ثملا (وهو ما يمكن ان يعتبر اعجوبة فريدة فى ناحيتنا) ؛ وكان له شغف عظيم بالنساء ، الا ان الحياء الذى فيه حياء فتاة حقا * .

ترك ايفان بتروفيتش ، الى جانب القصص التى تفضلتم بذكرها فى رسالتكم ، عددا من المخطوطات احتفظ انا ببعض منها ، واستخدمت مديرة منزله بعضها الآخر فى شتى الاغراض المنزلية . وعلى هذه الصورة الصقت جميع نوافذ دارها فى الشتاء الماضى بالجزء الاول من روايته التى تركها غير كاملة . ويبدو ان قصصه

* تلت ذلك نادرة اغفلناها معتبرين اياها زائدة ، ونحن نطمئن القارئ على انها خالية من اى شىء يسىء الى ذكرى ايفان بتروفيتش بيلكين . (**ملاحظة بوشكين** .)

المذكورة اعلاه كانت تجربته الاولى . وهى ، حسب ما روى ايفان بتروفيتش حقيقية فى جزئها الاكبر ، وقد سمعها من اشخاص مختلفين * . الا ان الاسماء الواردة فيها قد اختلقها بنفسه فى كليتها تقريبا ، اما اسماء القرى والدساكر فمأخوذة من منطقتنا ، ولهذا السبب جاء ذكر قريتى فى موضع فيها . وليس ذلك تعمدا للاساءة ، بل لقلة فى الخيال لا غير .

مرض ايفان بتروفيتش فى خريف ١٨٢٨ بالبُرداء التى تحولت الى حمى ، ووافته المنية رغم الجهود الجهيدة التى بذلها طبيب قضائنا ، وهو رجل بارع جدا لا سيما فى علاج الامراض المزمنة كتصلب البشرة ، وما اليها . وقد قضى نحبه بين يديّ فى الثلاثين من عمره ، ودفن فى كنيسة قرية غوريوخينو بالقرب من مثوى ابويه .

كان ايفان بتروفيتش ربع القامة رمادى العينين ، اشقر الشعر ، مستقيم الانف ، ابيض الوجه نحيفه .

ذلك ، يا سيدى المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره عن طراز حياة المرحوم جارى وصديقى واشغاله ، وخلقه وهيئته . ولكن اذا رغبتم فى الاقتباس من رسالتى ارجو ضارعا الا تشيروا الى اسمى ،

* فى الواقع ان المؤلف كتب بخط يده على كل قصة فى المخطوطة : سمعتها عن **فلان** (الرتبة او اللقب والحروف الاولى من الاسم والعائلة) . ونحن نوردها للمحققين المستطلعين : «ناظر المحطة» رواها له الموظف من الدرجة التاسعة ا . غ . ن . و«الطلقة» المقدم ى . ل . ب . و«صانع التوابيت» الوكيل ب . ف . و«عاصفة ثلجية» و«ابنة السيد الفلاحة» روتهما الآنسة ك . ى . ت . (**ملاحظة بوشكين** .)

ذلك لانه رغم احترامى الشديد وحبى للمؤلفين اجد الانضواء الى هذه الرتبة امرا زائدا ، وفى سنى هذه غير لائق . وتقبلوا احترامى الصادق .

١٦ تشرين الثانى ١٨٣٠
قرية نينارادفو

ونحن نعبر عن اعمـــق الشكر لصديق المؤلف الفاضل على المعلومات التى وافانا بها معتبرين من الواجب احترام رغبته ، ونأمل ان يقدر الجمهور ما فيها من نزاهة ونقاء سريرة .

أ . ب .

الطلقة

تبادلنا الطلقات .
(من قصيدة «حفلة الرقص» **لباراتينسكى** .)

اقسمت ان ارميه وفق اصول المبارزة
(ما زال مستحقا لى بطلقة) .
(من قصة «امسية فى معسكر موقت»
لبستوجيف ــ مارلينسكى .)

١

كنا نعسكر فى بلدة ن . . . وحيـــاة الضابط معروفة . فى الصباح دراسة وركوب الخيل ، وغداء على مائدة آمر الفوج او فى حانة يهودى ، وفى المساء شراب وقمار . ولم تكن فى بلدة ن . . . دار واحدة مفتوحة للضيوف ، ولا اية آنسة فى سن الزواج ، فكنا نجتمع بعضنا عند بعض ، حيث كنا لا نرى شيئا غير حللنا العسكرية .

ولم يكن فى رفقتنا غير رجل واحد غير عسكرى . وكان فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، فكنا ، لاجل ذلك ، نعتبره شيخا . وقد اعطته خبرته مزايا كثيرة علينا ؛ كما كان لجهامتـــه المألوفة ، وخلقه الحاد ،

ولسانه الوعق تأثير قوى على عقولنا الفتية . كان شيء من الغموض يكتنف حياته . فقد كان روسيا ، بيد انه كان يحمل اسما اجنبيا . وكان فى احد الاوقات يخدم فى سلك الفرسان ، بل وموفور الحظ ، ولا احد يعرف السبب الذى جعله يستقيل من الخدمة ، ويستقر فى بلدة بائسة ، حيث كان يعيش حياة شظف وتبذير فى نفس الوقت : كان يسير ماشيا دائما فى حلة سوداء رثة ، بينما كان يهيئ مائدة لكل ضباط فوجنا . حقا ان طعامه لم يكن يتألف الا من صنفين او ثلاثة من اصناف الطعام يطهيها جندى متقاعد ، الا ان الشمبانيا كانت تصب دهاقا . ولم يكن احد يعرف ثروته ولا موارده ، ولم يجرؤ احد على ان يسأله عن ذلك . وكانت لديه كتب معظمها عسكرية وروايات . وكان يعيرها للقراءة راضيا ، ولم يطلب قط ان تعاد له وبالمقابل لم يكن يرد الكتاب الذى يستعيره هو الى صاحبه . وكانت ممارسته الرئيسة الرمى بالمسدس . فكانت جدران حجرته مثقبة كلها بالرصاص ، ومخرمة مثل قرص عسل . والترف الوحيد الموجود فى الكوخ البائس الذى كان يعيش فيه هو مجموعة غنية من المسدسات . وكانت براعته فى التسديد لا تصدق ، فلو اقترح ان يطرح برصاصة خوخة على قبعة احد لما تردد واحد من فوجنا فى ان يضع له رأسه . كان الحديث بيننا يتعرض الى المبارزات غالبا ؛ ولم يكن سيلفيو (وهذا ما سادعوه به) يتدخل فيه قط . وذات مرة سئل عما اذا حدث له ان اشتبك فى مبارزة اجاب بجفاف ان ذلك قد حدث ، ولكنه لم يدخل فى تفاصيل ، وكان يبدو ان

مثل هذه الاسئلة لا تروق له . وظننا ان ضميره مثقل بضحية تعيسة لبراعته الرهيبة . وعلى اية حال لم يخامر عقولنا شك فى ان فيه ما يشبه الحياء . هناك اناس مظهرهم وحده ينفى مثل هذه الشكوك . ووقع حادث طارئ اذهلنا جميعا .

ذات مرة كنا نحوا من عشرة ضباط نتناول الغداء على مائدة سيلفيو . وشربنا على مألوف العادة ، اى بكثرة ؛ وبعد الغداء رحنا نقنع مضيفنا بان يدير اللعب لنا . ظل يرفض وقتا طويلا ، لانه لم يقامر الا فى حالات نادرة جدا ؛ ثم طلب اخيرا ان يحضر الورق ، ووضع على المنضدة خمسين قطعة نقد ذهبية ، وجلس يوزع الورق . احطنا به ، وانعقد اللعب . وكانت لسيلفيو عادة الالتزام بالصمت المطبق اثناء اللعب ، فلم يكن يجادل قط ، ولا يقدم تفسيرا . فاذا وقع خطأ فى النقود المطروحة من قبل مقامر كان يسرع فى سد الناقص او تسجيل الزائد . وكنا نعرف ذلك ، ولا نعيقه فى ان يتولى الامر على طريقته ؛ الا ان ضابطا حديث العهد فى الخدمة عندنا كان يلعب معنا . وبينما هو يلعب سها وزاد الرهان خطأ . وتناول سيلفيو الطبشورة ، وسوّى الحساب على عادته . وظن الضابط انه قد اخطأ ، فأخذ يشرح الامر . تابع سيلفيو توزيع الورق صامتا . ففقد الضابط صبره ، وتناول المساحة ومسح مابدا له غير ضروري . امسك سيلفيو الطبشورة ، واعاد الكتابة من جديد . واعتبر الضابط ذلك اهانة قاسية ، ملتهبا بالخمرة واللعب وضحك رفاقه ، وبضراوة الغيظ اختطف شمعدانا معدنيا من على الطاولة ، وقذف به على

سيلفيو . تنحى هذا عن الضربة بالكاد . واضطربنا . نهض سيلفيو ، وقد امتقع من الغيظ ، وقال وعيناه تبرقان : «ايها السيـــد المحترم ، تفضلوا بالخروج واشكروا الله على ان ذلك وقع فى بيتى» .

ولم نشك نحن فى العواقب ، واعتبرنا رفيقنا الجديد مقتولا لا محالة . خرج الضابط بعد ان قال انه مستعد لان يتحمل مسؤولية الاهانة على النحو الذى يبتغيــه السيد مدير اللعب . استمر اللعب عدة دقائق أخر ؛ ولكن كنا نشعر بان المضيّف لا مزاج له فى اللعب فانسحبنا واحدا اثر الآخر ، وتفرقنا الى بيوتنا متحدثين عن احتمال حدوث شاغر فى الوظيفة عما قريب .

فى حلبة الخيل فى اليوم التالى رحنا نتساءل عما اذا كان الضابط المسكين ما يزال حيا . وما ان طلع علينا بنفسه حتى القينا عليه السؤال نفسه . اجاب انه لم يتلق حتى الآن اى تبليغ من سيلفيو . وادهشنا ذلك . ذهبنا الى سيلفيو فرأيناه فى الفناء يطلق رصاصة اثر اخرى على ورقة «آس» ملصقة على الباب . استقبلنا على مالوف عادته ، ولم يشر بكلمـــة واحدة الى حادث البارحة . وانقضت ثلاثة ايام ، والضابط ما يزال حيا . وتساءلنا بدهشة هل يُعقل الا يتبارز سيلفيو ؟ ولم يتبارز سيلفيو . واكتفى بايضاح بسيط جدا وتصالح .

فى البداية اضر ذلـك به فى عين الشبان ضررا بالغا . فان قلة الجراة اقل ما تكون غفرانا لدى الشبان الذين يرون الشجاعة فى العادة ارفع الكرامات الانسانية وغفرانا لكل العيوب الممكنة . ومع ذلك فقد اتى النسيان

على كل شىء بمرور الزمن وعاد سيلفيو يزاول تاثيره القديم .

وبقيت انا وحدى غير قادر على ان اقربه ابدا . كنت قبل ذلك الحين ، وبحكم ما طبعت عليه من خيال رومانطيقى اكثر الناس تعلقا برجل كانت حياته لغزا ، وكان يبدو لى بطل قصة غامضة . وقد احبنى ؛ او على الاقل لم يستعمل معى وحدى الخشونة الحادة المالوفة فى كلامه ، فكان يتحدث عن مواضيع مختلفة ببساطة نفس ولطف غير مالوف . الا ان الفكرة التى كونتها بعد تلك الامسية التعيســة ، وهى ان شرفه قد لُطّخ ، ولم يُغسل ، واللوم فى ذلك عليه ، ان هذه الفكرة ظلت تلح علىّ ، وتمنعنى من ان اعيد سيرتى الاولى معه ، فكنت اخجل من النظر اليه . كان سيلفيو ذكيا جدا ومحنكا فلم يفته ذلك ، ولم يغب عنه حدس السبب فيه . وكان يبدو ان هذا الامر يغمه ؛ وعلى اقل تقدير لمحت منه مرتين رغبة فى مبادلتى الحديث ؛ الا اننى كنت اتحاشى ذلك واعرض سيلفيو عنى . ومنذ ذلك الحين كنت لا التقى معه الا بحضور الرفاق ، وانقطعت احاديثنا الصريحة السابقة .

ليس لاهل العاصمة المبهورين تصور لانطباعات كثيرة معروفة جدا لاهل القرى او المدن الصغيرة ، من بين ذلك انتظار يوم مجىء البريد . حيث كان قلم اوراق فوجنا يغص بالضباط فى ايام الثلاثاء والجُمَع . فهذا ينتظر نقودا ، وذاك رسالة ، وآخر صحفا . وكانت الطرود تفك هناك عادة ، وتذاع الانباء ، فكان قلم الاوراق صورة دافقة بالحياة . كان سيلفيو يتسلم

الرسائل المعنونة الى فوجنا ، فكان فى العادة موجودا هناك . وذات مرة سلّم مظروفا فضّ ختمه فى لهفة عظمى . ولمعت عيناه ، وهما تمران على الرسالة . كان كل ضابط مشغولا برسائله ، فلم يلحظه احد . قال لهم سيلفيو : «يا سادة ، الظروف تقتضى ان ارحل ، ساغادر اليوم ليلا : وآمل ان لا ترفضوا تناول الغداء على مائدتى لآخرة مرة . وانا انتظرك ايضا — تابع قوله يخاطبنى — انتظرك من كل بد» . ومع هذه الكلمة خرج مسرعا ، واتفقنا نحن على ان نجتمع عنده ، وتفرقنا كل الى طيته .

وصلت الى بيت سيلفيو فى الوقت المحدد ، ورأيت عنده الفوج كله تقريبا . وكان متاعه كله قد حُزِم ، ولم تبق الا الجدران العارية المثقبة بالطلقات . جلسنا الى المائدة ؛ وكان رب البيت فى مرح غامر ، وسرعان ما عمّ مرحه الجميع . كانت الزجاجات تُفضّ فى كل دقيقة بفرقعة ، والاقداح ترسل الحبب وتنش نشيشا لا انقطاع له . وتمنينا للمسافر بكل ما لدينا من حماس سفرا ميمونا وكل توفيق . وكان المساء قد مضى اكثره حين نهضنا من وراء المائدة . وعند انفضاض الحفل ودّع سيلفيو الجميع ، وامسكنى من يدى ، واوقفنى فى اللحظة التى هممت فيها بالانصراف . وقال لى خافت الصوت : «اريد ان اتحدث معك» . فبقيت .

انصرف الضيوف ، وبقينا وحدنا . جلسنا يقابل احدنا الآخر ، ورحنا ندخن غليونينا صامتين . كان سيلفيو ساهما ؛ ولم يبق اى اثر لمرحه العصبى . وقد اضفى عليه الشحوب الكئيب ، والعينان البراقتان ،

والدخان الكثيف الخارج من فمه هيئة شيطان حقيقى . مضت بضع دقائق ، واذا بسيلفيو يحطم الصمت بقوله لى :

— لعلنا لا نلتقى بعد الآن . واراني بحاجة الى مصارحتك قبيل الفراق . ربما استطعت ان تلاحظ اننى قليل الاحترام لراى الآخرين ، ولكننى اودك ، وسأشعر بالضيق اذا تركت فى نفسك انطباعا غير مبرر .

وتوقف وشرع يحشو غليونه الخالى ، وصمتُّ مطرقا بعينيّ . ثم مضى يقول :

— لعلك استغربت من اننى لم ادع ذلك الاحمق السكران ر . . . للمبارزة . انت توافقنى فى ان حياته كانت رهن يدى ، وكان لى الحق فى اختيار السلاح ، بينما كانت حياتى فى امان تقريبا : بامكانى ان اصف سماحتى بالتهاود ، ولكن لا اريد ان اكذب . لو كان بوسعى ان اعاقب ر . . . دون ان اعرض حياتى البتة لما سامحته ابدا .

نظرت الى سيلفيو مندهشا . فان هذا الاعتراف حيّرنى تماما . وتابع سيلفيو كلامه :

— هذا بالضبط : ليس لى الحق فى ان اعرض نفسى للموت . قبل ستة اعوام تلقيت صفعة ، وعدوى ما يزال حيا .

وثار فضولى بشدة . سألته :

— لم تبارزه ؟ من المؤكد ان الظروف حالت دون ذلك ؟

اجاب سيلفيو :

— تبارزت معه . وهذا اثر مبارزتنا .

ونهض سيلفيو ، واخرج من علبة كارتون قبعة حمراء لها خصلة ذهبية وشريط مقصب (من تلك التي يسميها الفرنسيون Bonnet de police *) ولبسها ؛ كانت مثقوبة برصاصة على ارتفاع انملتين فوق الجبين .

وتابع سيلفيو كلامه :

— انت تعلم انني كنت اخدم في فوج الفرسان ك . . . وانت تعرف طبعي : لقد تعودت التفوق . ولكن ذلك كان في صباي هوى . وكانت العربدة في زماننا موضة : وكنت اول عربيد في الجيش . وتنافسنا في السكر ، وتفوقت به على بورتسوف الشهير الذي تغنى به دينس دافيدوف . وكانت المبارزات تجري في فوجنا تترى . وكنت احضرها كلها اما كشاهد او كمشترك . وكان رفاقي يهيمون بي ، وامراء الفوج الذين يتغيرون باطراد ينظرون اليّ كما ينظرون الى شر لا بد منه

كنت استمتع في هدوء (او في غير هدوء) بسمعتي حين جاء الينا شاب غني من عائلة نبيلة (لا اريد ان اذكر اسمه) . انا لم التق في حياتي بمحظوظ لامع مثله ! تصور شبابا ، وعقلا ، وجمالا ، ومرحا غاية في التأجج ، وشجاعة آية في اللامبالاة ، واسما مدويا ، ومالا لم يعرف له عدا ، ولا شح عنده يوما ، ثم تصور اي اثر كان ، لا بد ، تاركه فينا . وتضعضع تفوقي . راح الشاب يسعى الى صداقتي مفتونا بسمعتي . الا انني استقبلته ببرود ، فابتعد عني دون اي اسف . واضمرت له ضغنا . ودفعتني نجاحاته في الفوج وبين النساء الى يأس تام . واخذت اتحين الفرص لمخاصمته . وكان يرد على غمزاتي

* قبعة الشرطي . (**بالفرنسية** .)

بغمزات كانت دائما تبدو لي اكثر خفة ورهافة من غمزاتي ، واكثر مرحا منها ، طبعا ، الى حد بعيد : كان هو يمزح ، وكنت انا اكيد . وذات مرة اخيرا في بيت صاحب اطيان بولوني رأيته موضع اهتمام جميع السيدات ولا سيما ربة الدار التي كانت لي علاقة معها ، فقلت في اذنه بذاءة صريحة . احتدم غيظه وصفعني على خدي . وهرعنا الى السيوف ، واغمي على السيدات . وحُجز بيننا ، وفي تلك الليلة ذهبنا لنتبارز .

كان ذلك عند الفجر . وقفت في المكان المحدد ومعي شهودي الثلاثة . وانتظرت خصمي بنفاد صبر لا يوصف . وطلعت شمس الربيع ، وبدا الحر . وابصرته من بعيد . كان يسير ماشيا ، وسترته على سيفه ، مصحوبا بشاهد واحد . وسرنا للقياه . اقترب ممسكا بقبعة ملئت بالكرز . وقاس الشهود لنا اثنتي عشرة خطوة . وكان يجب ان اكون اول من يطلق النار ، الا ان احتدام الغيظ في نفسي كان شديدا جدا ، حتى لم اعوّل على تصويب يدي ، ولكي اوفر لنفسي وقتا يبرد غيظها فيه تنازلت لتكون الطلقة الاولى له . ولم يوافق خصمي . وقررنا ان نجري قرعة . فكان الرقم الاول له ، لمحبوب الحظ الدائم . وسدد واصاب قبعتي . وجاء دوري . كانت حياته اخيرا في يدي . حدقت فيه بنهم محاولا ان المح فيه ادنى ظل للاضطراب . . . كان يقف تحت المسدس وهو ينتقي من قبعته حبات الكرز الناضجة ، لافظا النوى التي كانت تتطاير فتبلغني . واثارت لامبالاته جنوني . وفكرت مع نفسي : ماذا سأجني من فائدة في سلبه حياته اذا كان هو يستهين

بها كليا ؟ ولمعت فى ذهنى فكرة ناقمة . انزلت المسدس ، وقلت له : «يبدو ان الموت لا يشغل بالك الآن ، فانت تتناول فطورك ، وانا لا اريد ان اعيقك» . فاعترض قائلا : «انت لا تعيقنى مطلقا . تفضل اطلق النار ، وعلى اية حال تصرف كما تريد ، فانا مدين لك بطلقة . انا دائما مستعد لخدمتك» . توجهت الى الشهود معلنا اننى لا انوى اطلاق النار اليوم . وبذلك انتهت المبارزة .

قدمت استقالتى ، ورحلت الى هذه البلدة . ومنذ ذلك الحين لم يمض يوم واحد لم افكر فيه بالانتقام . واليوم حانت ساعة الانتقام . . .

واخرج سيلفيو من جيبه الرسالة التى تسلمها فى الصباح ، واعطانيها لاقراها . لقد كتب له شخص من موسكو (يبدو انه وكيل شؤونه) ان **الشخص المعلوم** مقبل قريبا على عقد قرانه على فتاة شابة رائعة الجمال . قال سيلفيو :

— وانت تخمن مَنْ هو هذا **الشخص المعلوم** . انا مسافر الى موسكو . وسنرى هل سيستقبل الموت قبيل زواجه بلا اكتراث ، مثلما انتظره فى تلك المرة ، وهو يأكل الكرز !

وبهذه الكلمات نهض سيلفيو ، ورمى قبعته على الارض ، واخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا ، وكأنه نمر فى قفص . اصغيت اليه بلا حركة ؛ وقد اعتملت فى نفسى مشاعر غريبة متضاربة .

دخل الخادم ، واعلن ان الخيول جاهزة . شدّ

سيلفيو على يدى بقوة ، وتبادلنا القبل . ركب العربة حيث وضعت فيها حقيبتان ، فى احداهما المسدسات ، وفى الثانية امتعته . تواعدنا مرة اخرى . وانطلقت الخيول .

٢

مضت بضع سنوات . واضطرتنى الظروف العائلية الى الانتقال الى قرية صغيرة بائسة فى قضاء ن . . . واذ كنت ازاول اعمالى لم تفارقنى الحسرة على حياتى الماضية الصاخبة الرخية البال . وكان اصعب الامور علىّ التعود على قضاء اماسى الخريف والشتاء فى وحدة تامة . كنت ازجى الوقت على نحو ما حتى موعد الغداء ، مجاذبا الحديث مع العمدة ، متفقدا الاعمال والمشاريع الجديدة ، ولكن ما ان يدنو المساء حتى لا اعرف الى اين اذهب . وقد حفظت العدد القليل من الكتب التى عثرت عليها تحت الدواليب وفى حجرة المؤن . واعادت مديرة البيت كيريلوفنا على مسمعى كل الحكايات التى قدرت ان تتذكرها . وكانت اغانى النسوة تشيع فىّ الحنين . وعكفت على خمرة قوية المفعول ، الا انها كانت تصيبنى بالصداع ؛ ثم اعترف اننى كنت اخشى ان انقلب **سكيرا من الكمد** ، اى **مدمنا** لا يرجى شفاؤه ، وقد رأيت كثيرين منهم فى قضائنا . ولم يكن بقربى من الجيران القريبين غير اثنين او ثلاثة من **الذين لا يرجى**

شفاؤهم كان معظم حديثهم فواقا وتافقا . فكانت العزلة اكثر احتمالا من ذلك * .

على بعد اربعة فراسخ منى كانت تقع ضيعة غنية تملكها ب . . . . ، الا ان احدا لم يكن يسكنها غير القيّم ، اما الكونتيسة فلم تزر ضيعتها الا مرة واحدة فى العام الاول من زواجها ، وحتى فى تلك المرة لم يطل مكوثها اكثر من شهر . الا ان اشاعة سرت فى الربيع الثانى من اقامتى فى عزلتى تقول ان الكونتيسة وزوجها سيمضيان الصيف فى قريتها . وبالفعل وصلا فى بداية شهر حزيران .

وقدوم جار ثرى حدث مهم لاهل القرية . واصحاب الاطيان والاقنان يتحدثون عنه قبل شهرين من وقوعه ، ويظلون يتحدثون عنه بعد ثلاثة اعوام من انتهائه . اما انا فاعترف بان خبر قدوم جارة شابة رائعة الجمال قد اثر فى نفسى اثرا شديدا ، فاشتعلت بنار اللهفة الى رؤيتها ولذلك توجهت بعد الغداء الى قرية س . . . فى اول يوم احد بعد مجيئهما لاقدم نفسى الى سيادتهما كاقرب جار لهما ، وكخادم مطيع .

قادنى الخادم الى مكتب الكونت ، وذهب هو ليبلغه بقدومى . كانت غرفة المكتب الفسيحة مفروشة بكل ابهة وترف . كانت دواليب الكتب تصطف قرب الجدران ، وفوق كل واحد منها تمثال نصفى من البرنز ؛ وفى اعلى

* **تلت ذلك فى الطبعة الاولى هذه العبارات** : وقررت اخيرا ان اضطجع فى المساء الباكر واتناول الغداء فى وقت متاخر ؛ وبذلك قصرت المساء واطلت النهار ؛ فكانت النتيجة المرجوة . (**ملاحظة بوشكين** .)

الموقد المرمرى مرآة واسعة ؛ والارض مغطاة بالجوخ الاخضر ، ومفروشة بالابسطة . وكنت قد نسيت الترف فى ركنى البائس ، وقد مضى علىّ زمن طويل وانا لم ار ثراء الآخرين ، فتوجست رهبة ، وانتظرت الكونت بارتجاف كمسترحم من الريف ينظر وزيرا . وفتح الباب ، ودخل رجل فى نحو الثانية والثلاثين من العمر جميل الطلعة . دنا الكونت منى طلق الاسارير ، بادى الود . حاولت ان اتشجع ، واخذت اقدم نفسى ، الا انه كان يعرفنى مسبقا . جلسنا . وسرعان ما بدد حديثه السلس السمح خجلى المستوحش ؛ فاخذت اعود الى وضعى الاعتيادى . واذا بالكونتيسة تدخل فجاة ، فيستولى الاضطراب علىّ اشد من ذى قبل . لقد كانت رائعة الجمال حقا . قدمنى الكونت اليها . كنت اريد ان ابدو طبيعيا ، ولكن كلما حاولت ان اظهر بمظهر البشاشة ازداد شعورى بالتحرج . ولكى يتيحا لى برهة اتمالك فيها نفسى ، واعتاد العشْرة الجديدة شرعا يتحدثان فيما بينهما متصرفين معى كجار طيب ، وبغير ما كلفة . وخلال ذلك اخذت اسير جيئة وذهابا متطلعا الى الكتب واللوحات . انا لست خبيرا باللوحات . بيد ان احداها جذبت انتباهى . وهى تصور منظرا طبيعيا فى سويسرا ، الا ان الفن ليس هو الذى بهرنى فيها بل رصاصتان خرقتاها فى موضع واحد . قلت مخاطبا الكونت :

— رميتان سديدتان .

اجاب :

— نعم ، انهما لرائعتان . — ثم اردف قائلا : — اتجيد الرمى ؟

اجبت وقد سرنى ان الحديث مس ، فى آخر الامر ، موضوعا قريبا الى نفسى :

— بشكل ممتاز ، لن اخطئ التسديد على ورقة اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ، بمسدسات اعرفها بالطبع .

ردت الكونتيسة بمظهر الاهتمام الشديد :

— احقا ؟ وانت ، يا صاحبى ، هل ستصيب ورقة اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ؟

اجاب الكونت :

— سنجرب فى وقت ما . فى زمانى لم يكن رمىّ رديئا ؛ ولكن منذ اربعة اعوام وانا لم امسك مسدسا بيدى .

فقلت ملاحظا :

— اوه ، فى هذه الحال اراهن على ان سيادتك لن تصيب ورقة اللعب حتى من على بعد عشرين خطوة . فان المسدس يتطلب تمرينا يوميا . وانا اعرف ذلك من تجربتى . كنت اُعتبر فى فوجى من بين احسن الرماة . وصادف ذات مرة ان قضيت شهرا كاملا دون ان امسك مسدسا : فقد كانت مسدساتى فى التصليح . فما راى سيادتك ؟ فى اول مرة اعود فيها للرمى اخطأت اصابة زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة اربع مرات متتاليات . وكان عندنا ضابط من الفرسان برتبة نقيب ثاقب الذكاء ، فكه شهد الحادث ؛ فقال لى : اظن يدك ، يا اخ ، لا تستطيع ان تصوب على زجاجة . لا ، يا صاحب

السيادة ، لا يجوز ان تستهين بهذه التمارين ، والا فستنسى الرماية كليا . ان احسن رام صادف ان التقيت به كان يمارس الرماية كل يوم ثلاث مرات قبل الغداء على اقل تقدير . لقد كان ذلك عادة له مثل كأس الفودكا قبل الطعام .

كان الكونت والكونتيسة مسرورين لانطلاق لسانى . سالنى الكونت :

— كيف كان يرمى ؟

— على هذا النحو ، يا صاحب السيادة : كان يحدث ان تحط ذبابة على حائط . اراك تضحكين يا كونتيسة ؟ انه لحق قسما بالله . كان يرى ذبابة فيصرخ : يا كوزكا ، الىّ بالمسدس ! فيأتى له كوزكا بمسدس محشو . ويرمى ، ويسحق الذبابة فى الحائط .

قال الكونت :

— هذا شىء مذهل ! ما اسم هذا الرجل ؟

— سيلفيو ، يا صاحب السيادة .

وثب الكونت من مكانه وهتف :

— سيلفيو ؟ هل كنت تعرف سيلفيو ؟

— وكيف لا اعرفه ، يا صاحب السيادة ، وقد كنا صديقين . قبلناه فى فوجنا اخا ورفيقا . وها هى خمسة اعوام تمضى دون ان اسمع خبرا عنه . اذن ، فقد كنت تعرفه ، يا صاحب السيادة ؟

— اعرفه ، اعرفه جيدا . الم يخبرك . . . ولكن لا ، لا اظن ؛ الم يخبرك عن حادث رهيب جدا ؟

— عن الصفعة التى وجهها اليه شاب طائش فى حفلة رقص ، اليس عن ذلك ، يا صاحب السيادة ؟

– ولم يقل لك اسم هذا الشاب الطائش ؟

– لا ، يا صاحب السيادة ، لم يقل . . . آه ! يا صاحب السيادة – استدركت انا ، وقد حدست الحقيقة وتابعت قولى – اعذرنى . . . لم اكن اعرف . . . الست انت ؟ . .

ردّ الكونت بهيئة انسحاق بالغ :

– انا هو . اما هذه اللوحة المصابة فانها ذكرى آخر لقاء لنا . . .

قالت الكونتيسة :

– آه ، يا عزيزى . بحق الرب لا تتحدث ، فان سماعها سيرهبنى .

اعترض الكونت قائلا :

– لا ، سأروى كل شىء ؛ فهو يعرف كيف اهنت صديقه ، فليعرف ايضا كيف ثار سيلفيو منى .

قدم الكونت لى مقعدا ، فأصغيت الى هذه القصة بفضول متيقظ .

«تزوجت قبل خمسة اعوام ، وقضيت الشهر الاول the honey-moon * هنا فى هذه القرية . وانا مدين لهذه الدار باحسن لحظات حياتى ، وبواحدة من اقسى ذكرياتى .

ذات مساء خرجنا سوية ممتطيين فرسين . ولسبب ما حرن فرس زوجتى ؛ فذعرت ، وسلمتنى المقود ، وسارت الى البيت ماشية . سبقتها وانا راكب . رأيت فى الفناء عربة سفر . أخبرت بأن شخصا يجلس فى المكتب فى انتظارى لم يرد ان يعلن عن اسمه ، بل قال

---

* شهر العسل (بالانجليزية .)

ان له شأنا معى . دخلت هذه الغرفة ، ورأيت فى الظلام رجلا مغبرا وقد اطلق لحيته . كان يقف هنا الى جانب الموقد . تقدمت منه مجاهدا لاتذكر ملامحه . قال لى بصوت مرتجف : «الم تعرفنى ، يا كونت ؟» هتفت : «سيلفيو !» واعترف بأننى احسست بأن شعر راسى يقف . مضى الرجل يقول : «تماما . ما زلت مدينا لى بطلقة . وقد جئت ومسدسى محشو . فهل انت مستعد ؟» كان مسدسه يبرز من جيبه الجانبى . ذرعت اثنتى عشرة خطوة ، ووقفت فى الزاوية هناك ، سائلا اياه ان يطلق قبل ان تعود زوجتى . تباطأ . طلب ان يشعل الضوء . فأوقدت الشموع . اوصدت الباب ، وامرت بأن لا يدخل احد وطلبت اليه مرة اخرى ان يطلق . اخرج المسدس من جيبه ، وصوبه . . . عددت الثوانى . . . كنت افكر فيها . . . وفاتت اللحظة رهيبة ! انزل سيلفيو يده . وقال : «يؤسفنى ان المسدس غير محشو بنوى الكرز . . . الرصاصة ثقيلة . ويبدو لى انّ ما بيننا ليس مبارزة ، بل قتلا : انا غير متعود على ان اصوب على اعزل . فلنبدأ من جديد ، ولنلق قرعة لنرى من سيطلق اولا» . ودار راسى . . . يبدو اننى لم اوافق . . . واخيرا حشونا مسدسا آخر ؛ لفّ قصاصتين ، ووضعهما فى القبعة ، نفس القبعة التى اصبتها فى تلك المرة . وسحبت الرقم الاول مرة اخرى . وقال بتلك البسمة الساخرة التى لن انساها ابدا : «انت ، يا كونت ، سعيد بشكل شيطانى» . انا لا افهم ماذا حصل لى ، وباية طريقة استطاع ان يجبرنى على ذلك . . . ولكننى اطلقت ، واصبت هذه اللوحة (واشار

الكونت باصبعه الى اللوحة المثقوبة ، وكان وجهه ملتهبا كالنار ؛ وكانت الكونتيسة اكثر شحوبا من منديلها . اما انا فلم استطع ان اكتم صيحة استغرابى) .

ومضى الكونت يقول :

– اطلقت ، وحمدا لله لم اصب الهدف ؛ عندئذ اخذ سيلفيو . . . (كان تلك اللحظة رهيبة حقا) يصوب نحوى . وفجأة فتح الباب . ودخلت ماشا الغرفة راكضة ، وتعلقت برقبتى زاعقة . واعاد حضورها الىّ كل شجاعتى . قلت لها : «يا عزيزتى ، أحقا لا ترين اننا نمزح ؟ فكيف ذعرتِ ! اذهبى ، واشربى قدحا من الماء ، وعودى الينا . وسأقدم لك صديقا قديما ورفيقا» . ظلت ماشا غير مصدقة وقالت مخاطبة سيلفيو المرعب : «خبرنى هل زوجى صادق فى قوله انكما تمزحان ؟» اجابها سيلفيو : «انه يمزح دائما ، يا كونتيسة . ذات مرة وجّه لى صفعة مزاحا ، ومزاحا اصاب قبعتى هذه ، ومزاحا اخطأ اصابتى هذه اللحظة . والآن واتتنى رغبة فى ان امزح . . .» وبهذه الكلمة اراد ان يصوّب علىّ . . . بحضورها ! ارتمت ماشا على قدميه . صرخت انا بجنون : «انهضى ، ماشا ، عيب ! اما انت ، ايها السيد ، أفلا تكف عن الهزء بامرأة مسكينة ؟ هل ستطلق النار ام لا ؟» اجاب : «لا ، لا اطلق . هذا يكفينى . لقد رأيت اضطرابك ، ووجلك . وجعلتك تطلق علىّ النار . هذا يكفينى . ستتذكرنى . واتركك وضميرك» . وعندئذ خرج ، ولكنه توقف عند الباب ، ونظر الى اللوحة التى اصبتها ، واطلق عليها النار دون ان يصوب تقريبا ، واختفى . أُغمى على زوجتى ،

ولم يجرأ الناس على ايقافه ، بل راحوا يحدقون فيه مذعورين . خرج الى مقدمة البيت ، ونادى على الحوذى ، وغادر قبل ان اعود الى وعى» .

صمت الكونت . وعلى هذا النحو عرفت نهاية القصة التى اذهلتنى بدايتها فى تلك المرة . ولم التق ببطلها . ويقال ان سيلفيو كان يقود فصيلة من الاتيريين * فى حركة الكسندر ابسيلانتى ، وقُتل فى معركة قرب سكوليانى .

---

* نسبة الى اتيريا وهى جمعية سرية برئاسة الكسندر ابسيلانتى هدفها تحرير اليونان . (**الناشر** .)

عاصفة ثلجية

الخيول تخب على الاكوام الثلجية ،
وتدوس الثلج العميق . . .
وهناك ، فى ناحية ، كنيسة
تبدو وحيدة .
. . . .

وفجاة تهب عاصفة ثلجية !
وينثال الثلج ندفا كبيرة !
ويصفق غراب اسود بجناحيه ،
فوق الزلاجة !
والانين النبوئي ينذر بالاسى !
والخيول عجلى
تنظر فى المدى الداجي بحدة ،
رافعة اعرافها . . .
(**جوكوفسكى** .)

فى نهاية عام ١٨١١ ، فى عهدنا المشهود ، كان يعيش فى ضيعة نينارادوفو الطيب الذكر غفريلا غفريلوفيتش ر . . . وكان مشهورا فى منطقته بحسن الضيافة ، وطيب العشرة ؛ وكان الجيران يترددون عليه ليأكلوا ، ويشربوا ، ويلعبوا مع زوجته البوستون* بخمسة كوبيكات . وكان البعض يأتى ليمتع نظره بابنته ماريا

* نوع من انواع لعب الورق . (**المترجم** .)

غفريلوفنا ، الفتاة ، الهيفاء ، الشاحبة ، ابنة السبعة عشر ربيعا . وكانت تعتبر عروسا غنية ، وكثيرون ارادوها لهم او لابنائهم .

وكانت ماريا غفريلوفنا قد تربّت على الروايات الفرنسية ، فكانت ، بالنتيجة ، عاشقة . وكان الذى اختارته لنفسها ضابطا بائسا برتبة ملازم ثان جاء يقضى اجازته فى قريته . وطبيعى ان الشاب كان يلتهب بنفس العاطفة . ولما احس والدا محبوبته بهواهما المتبادل حرما على ابنتهما حتى التفكير به ، اما هو فقد استقبل اسوأ مما يُستقبل به مُحلّف متقاعد .

كان عاشقانا يتبادلان الرسائل ، ويلتقيان كل يوم خلسة فى دغل اشجار الصنوبر ، او قرب الكنيسة الصغيرة القديمة . وهناك كانا يتعاهدان على الوفاء لحبهما الى الابد ، ويندبان القدر ، ويستعرضان مختلف الفروض . وبتراسلهما واحاديثهما على هذه الصورة توصلا (وهذا شيء طبيعى) الى هذه الفكرة : اذا كان احدنا لا يستطيع العيش بدون الآخر ، وارادة الوالدين القاسيين تقف دون رفاهنا ، افلا يجوز لنا تجاوز هذه الارادة ؟ وطبيعى ان هذه الفكرة الموفقة خطرت فى ذهن الفتى اول ما خطرت ، وراقت كثيرا لخيال ماريا غفريلوفنا الرومانسى .

حلّ الشتاء ، وانقطعت لقاءاتهما . الا ان رسائلهما صارت انشط . وكان فلاديمير نيقولايفيتش يتوسل فى كل رسالة ان تستجيب له ، وتتزوجه سرا ، وان يعيشا فى الخفاء فترة من الزمن ، وبعد ذلك يرتميان على اقدام والديها ، اللذين سيتأثران اخيرا ، طبعا ، بحبهما

البطولى الطويل وتعاسة العاشقين ، وسيقولان لهمـــا بالتأكيد : يا ولدينا ! تعالا الى حضنينا .

ترددت ماريا غفريلوفنا كثيرا ، ورفضت العديد من خطط الهرب . ووافقت آخر الامر . كان عليها فى اليوم المحدد الا تحضر العشاء ، وان تختلى فى غرفتها متعذرة بالصداع . وكانت وصيفتها على علم بما دُبّر ، فكان عليهما ، كلتيهما ، ان تخرجا الى الحديقة خلال مدخل البيت الخلفى ، وتجدا وراء الحديقة زلاجة مهياة لنقلهما الى قرية جادرينو ، على بعد خمســـة فراسخ مـــن نينارادوفو ، وهناك تتوجهان توا الى الكنيسة ، وسيكون فلاديمير فى انتظارهما فيها .

فى عشية اليوم الحاسم لم تنم ماريا غفريلوفنا طوال الليل ؛ فقد جمعت حاجاتها ، وصرت ثيابها وفساتينها ، وكتبت رسالة طويلـــة الى فتاة رقيقة القلب هى صديقتها ، واخرى الى والديها . ودعتهما بارق العبارات ، واعتذرت لفعلتها بقوة الحب العارمة ، وانهتها بانها تعتبر اسعد لحظة فى حياتها هى تلك التى سيتاح لها فيها ان ترتمى على اقدام والديها العزيزين . وختمت كلتـــا الرسالتين بختم تولا الذى رسم عليه قلبان متحابان مع عبارة معتبرة . والقت نفسها على الفراش قبيل الفجر ، وغلبها النعاس : الا ان الاحلام الرهيبة كانت توقظها بلا انقطاع . مرة تراءى لها ان اباها اوقفها ما ان جلست فى الزلاجة لتذهب لعقد قرانها ، وانه جرها على الثلج بسرعة مؤلمة ، والقاها فى غيهب مظلم لا قرار له . . . وانها طارت بسرعة وقلبها متجمد جمدا لا يوصف . ومرة اخرى رات فلاديمير مطروحا على العشب ممتقعا مدمى .

كان ، وهو يحتضر ، يتضرع اليها بصوت نافذ ان تسرع الى الكنيسة وتتزوجه . . . واحلام آخرى شوهاء لا معنى لها مرقت امامها متتابعة . وفى آخر الامر نهضت اكثر شحوبا من المعتاد ، وبصداع حقيقى . لاحظ ابوها وامها اضطرابها ، فتمزق قلبها بحنانهما الرقيق وباسئلة لا تنتهى : ماذا بك ، يا ماشا ؟ هل انت عليلة ، يا ماشا ؟ حاولت ان تهدئهما ، وان تبدو مرحة ، ولم تستطع . وجاء المساء . وعصرت قلبها فكرة انها ستقضى آخر يوم بين عائلتها . فكانت الحياة لا تكاد تدب فيها : ودّعت بسرها جميع الاشخاص ، جميع الاشياء المحيطة بها .

قُدّم العشاء ؛ وبدأ قلبها يخفق بشدة . اعلنت بصوت مرتجف انها لا تريد ان تتعشى ، واخذت تودع اباها وامها . قبّلاها ، وباركاها بالدعاء كالعادة : وكادت تنفجر باكية . وحين عادت الى حجرتها ارتمت على مقعد ، وانهمرت دموعها . توسلت اليها وصيفتها ان تهدأ ، وتتشجع . كان كل شىء مهيأ . بعد نصف ساعة كان على ماشا ان تغادر الى الابد بيت الابوة ، وغرفتها ، وحياتها الهادئة ، حياة آنسة . . . فى الخارج كانت عاصفة ثلجية . كانت الريح تعول . وصفاقات النوافذ تهتز وتصفق . وبدا كل شىء لها وعيـــدا ، ونذيرا منحوسا . وسرعان ما هدأ كل شىء فى البيت ، ونام . لفت ماشا جسمها بشال ، وارتدت معطفا سميكا ، ووضعت بيدها علبة مجوهراتها ، وخرجت الى مدخل البيت الخلفى . حملت الوصيفة وراءها صرتين . خرجت الفتاتان الى الحديقة ، والعاصفة الثلجية لم تهدأ ؛ وهبّت الريح

في وجهيهما وكأنها تجاهد لتوقف الآثمة الصغيرة . وصلتا الى نهاية الحديقة بعد لأى . وكانت الزلاجة فى الطريق بانتظارهما . كانت الخيول من شدة البرد لا تستقر فى مكان واحد . وكان حوذى فلاديمير يروح ويجىء امام عريش العربة ممسكا بالخيول الجامحة . ساعد الآنسة ووصيفتها على الجلوس فى الزلاجة ، ووضع الصرتين والعلبة ، وامسك بالرسن . فانطلقت الخيول . امـــا نحن فلنعد الى عاشقنا الشاب بعد ان سلمنا الآنسة لعناية القدر وفن تيريشكا الحوذى .

قضى فلاديمير اليوم كله فى رواح ومجىء . فى الصباح كان عند قس جادرينو ، واقنعه بعد جهد جهيد . ثم ذهب ليبحث عن شهود من بين اصحاب الاطيان المجاورين . وكان اولَ من توجه اليه ضابطُ فرسان متقاعد فى الاربعين من العمر يدعى درافين ، وقد قبل عن طواعية قائلا ان تلك المخاطرة تذكره بالزمن القديم ، وملاعب الفرسان . واقنع فلاديمير على ان يبقى عنده للغداء مؤكدا ان ايجاد شاهدين آخرين امر سهل . وبالفعل ظهر بعد الغداء بوقت قصير مساح الارض شميت بشاربيه ومهمازيه ، وابن رئيس شرطة القضاء ، وهو فتى فى السادسة عشرة كان قد دخل فوج الخيالة الخفيفة قبل فترة وجيزة . وافق هذان على اقتراح فلاديمير ، بــل واقسما له على انهما مستعدان للتضحية فى سبيـــل حياته . عانقهما فلاديمير شديد الغبطة ، وذهب الى بيته ليأخذ أهبته .

كان الغسق قد هبط منذ وقت طويل . ارســـل

فلاديمير حوذيه الامين تيريشكا مع زلاجته «ترويكا» * وتعليمات مسهبة مفصلة ، وطلب ان تجهز له زلاجة صغيرة يجرها حصان واحد ، واتجه لوحده ، وبدون حوذى ، الى جادرينو ، حيث كان يجب ان تصل اليها ماريا غفريلوفنا ايضا فى غضون ساعتين . كانت الطريق مألوفة له ، وهى لا تستغرق اكثر من عشرين دقيقة .

ولكن ما كاد فلاديمير يترك طرف القرية الى الخلاء ، حتى هاجت الريح ، وهبت عاصفة ثلجية عاتية لم تدعه يرى اى شىء . وفى لحظة واحدة اختفت الطريق ؛ وتوارت معالم الاشياء ، فى ظلمة كدرة مصفرة تطايرت خلالها ندف الثلج البيضاء ، وانطبقت السماء على الارض . ووجد فلاديمير نفسه فى ارض فضاء ، وحاول عبثا ان يعود الى الطريق ؛ كان الحصان يسير خبطَ عشواء ، فيغوص تارة فى كومة ثلج ، ويقع اخرى فى حفرة . وكانت الزلاجة تنقلب كثيرا . جاهد فلاديمير ان يلتزم الاتجاه الصحيح . ولكن بدا له ان اكثر من نصف ساعة قد انقضى ، ولم يصل بعد الى حرش جادرينو . ومضى نحو عشر دقائق أخر ؛ والحرش لم يلح بعد لعينيه . كان فلاديمير يسير فى حقل تتخلله وهدات عميقة . ولم تهدأ العاصفة الثلجية ، ولم تتكشف السماء . واخـــذ الحصان يتعب ، وتصبب العرق من جسمه مدرارا رغم انه كان يغوص الى النصف فى الثلج من لحظة الى اخرى .

وفى آخر الامر عرف فلاديمير انه لا يسير الجهة المقصودة ، فتوقف . وشرع يفكر ، ويتذكر ، ويتروى ،

* ترويكا بالروسيـــة عربة تجرها ثلاثـــة خيول . (المترجم .)

وتيقن انه كان عليه ان يتجه يمينا . سار الى اليمين . وكان حصانه لا يكاد يسير . وكان قد امضى اكثر من ساعة ، وهو فى الطريق . وكان ينبغى ان تكون جادرينو على مسافة غير بعيدة . ولكنه ظل يسير ، ويواصل السير ، وما للحقل من اخر . توالت اكوام الثلج والوهدات ؛ والزلاجة تنقلب من لحظة الى اخرى ، فكان يرفعها باستمرار . ومضى الوقت ، واخذ فلاديمير يقلق قلقا شديدا .

وفى آخر الامر لاحت معالم شىء فى جانب . انعطف فلاديمير نحوه . ولما اقترب راى حرشا . وفكر فى نفسه : حمدا لله ، قَرُبَ المكان الآن . سار بمحاذاة الحرش آملا ان يعثر فى اللحظة التالية على الطريق المألوف ، او يدور حول الحرش . وكانت جادرينو تقع وراء الحرش مباشرة . وبعد قليل اهتدى الى الطريق ، ودخل فى عتمة اشجار عرّاها الشتاء . الريح هنا لم تكن قادرة على ان تستبد ، وكان الطريق ممهدا ، وردت بعض الحيوية الى الحصان ، وهدأ فلاديمير .

الا انه ظل يسير ، ويسير ، وجادرينو لم تكن على مرأى البصر ، والحرش بلا آخر . وادرك فلاديمير بذعر انه دخل غابة غير معروفة له . وتملكه اليأس . وراح يسوط الحصان . انطلق الحيوان المسكين فى عَدْو سريع ، ولكنه سرعان ما تباطأ ، وبعد ربع ساعة تحول الى المشى ، رغم كل ما بذله فلاديمير البائس من جهد .

واخذت الاشجار تقل شيئا فشيئا ، وخرج فلاديمير من الغابة ، وجادرينو لم تكن على مرأى البصر . لا بد ان الليل قد قارب الانتصاف . وطفرت الدموع من عينيه .

سار خبط عشواء . وقد هدأ الجو ، وتبددت السحب ، وانداح امامه سهل منبسط مفروش ببساط ابيض متموج . كان الليل قد صفا كثيرا . ورأى غيرَ بعيد عزبة صغيرة تتألف من اربعة او خمسة بيوت . سار فلاديمير اليها ، ونزل من الزلاجة عند اول بيت فيها ، وهرع الى نافذة ، واخذ يطرقها . وبعد بضع دقائق ارتفعت الصفاقة الخشبية ، واخرج شيخ لحيته الشيباء :

— ما حاجتك ؟

— هل جادرينو بعيد ؟

— المسافة حتى جادرينو ؟

— نعم ، نعم ، هل هى بعيدة ؟

— ليست كثيرا ، زهاء عشرة فراسخ .

امسك فلاديمير بشعره لدى سماعه هذا الجواب ، وجمد مثل رجل حكم عليه بالموت .

تابع الشيخ قوله :

— من اين انت ؟

لم تكن فى نفس فلاديمير رغبة فى ان يرد على اسئلة . قال :

— هل فى وسعك ، ايها الشيخ ، ان تحصل لى على خيول تأخذنى الى جادرينو ؟

اجاب الشيخ :

— لا خيول عندنا .

— وهل لى ان اجد دليلا على الاقل ؟ سادفع له ما يشاء .

قال الشيخ واطلق الصفاقة :

— انتظر . سأبعث ولدى معك ، وسيدلك .

اخذ فلاديمير ينتظر . وقبل ان تنقضى دقيقة شرع يطرق من جديد . ارتفعت الصفاقة . وظهرت اللحية :

– ما حاجتك ؟

– اين ولدك ؟

– سيخرج الآن . انه يلبس حذاءه . هل انت تشعر ببرد ؟ ادخل وتدفأ .

– شكرا ، اسرع فى ارسال ولدك .

صرّ الباب ، وخرج فتى يحمل عصا ، وسار فى المقدمة مشيرا تارة ، واجدا تارة اخرى الطريق الذى غطته اكوام الثلج . سأله فلاديمير :

– كم الساعة ؟

اجاب الفلاح الفتى :

– سيطلع الفجر عن قريب .

ولم ينبس فلاديمير بعد ذلك بكلمة واحدة .

صاحت الديكة ، وتنورت الدنيا حين وصلا الى جادرينو . كانت الكنيسة مقفلة . دفع فلاديمير للدليل ، وذهب الى القس . فى فناء بيته لم تكن زلاجته «ترويكا» هناك . وما من خبر كان فى انتظاره !

ولكن لنعد الى العائلة الطيبة فى نينارادوفو ، ولنر ماذا حدث هناك .

لا شيء .

استيقظ العجوزان ، وخرجا الى غرفة الجلوس . غفريلا غفريلوفيتش فى طرطور المنام وسترة من الفانيلة . وبراسكوفيا بيتروفنا فى جلباب منزلى مبطن بالقطن . وجلِب السماور ، وارسل غفريلا غفريلوفيتش الوصيفة لتسأل ماريا غفريلوفنا عن صحتها ، وكيف

قضت ليلتها . وعادت الوصيفة معلنة ان الآنسة نامت نوما سيئا ، ولكن حالها احسن الآن ، وانها ستأتى بعد قليل الى غرفة الجلوس . وهذا ما كان ، فقد فتح الباب ، واقبلت ماريا غفريلوفنا تحى اباها وامها .

سأل غفريلا غفريلوفيتش :

– كيف رأسك ، يا ماشا ؟

اجابت :

– احسن ، يا ابى .

قالت براسكوفيا بيتروفنا :

– ربما سممك السخام بالامس ، يا ماشا .

اجابت ماشا :

– ربما ، يا امى .

وانقضى النهار بخير . الا ان حالة ماشا قد ساءت فى الليل . فأرسلوا الى المدينة لاستدعاء الطبيب . ووصل الطبيب عند المساء ، ووجد المريضة فى هذيان . وتبين انها مصابة بحمى حادة ، وبقيت المريضة المسكينة على شفا القبر اسبوعين .

لم يكن احد فى البيت يعلم بمشروع الهروب . أُحرقت الرسالتان اللتان كانت قد كتبتهما فى عشية الهرب ، ولم تخبر وصيفتها احدا بشيء خوفا من غضب السيد والسيدة . والتزم القس ، وضابط الفرسان المتقاعد ، ومساح الارض المشوورب ، والفارس الشاب من الخيالة الخفيفة جانب الرزانة . وليس دون مقابل . اما الحوذى تيريشكا فلم يحدث ان افضى بشيء زائد عن اللزوم ، حتى وهو سكران . وهكذا كتم السر اكثر من نصف دزينة من المتواطئين . الا ان ماريا غفريلوفنا

نفسها افشت السر فى هذيان مستديم . ولكن كلماتها كانت متنافرة جدا ، حتى ان امها التى لم تغادر فراشها لم تستطع ان تفهم منها الا ان ابنتها كانت متيمة بفلاديمير نيقولايفيتش ، وان الحب ، ربما ، كان السبب فى مرضها . وتشاورت مع زوجها ، ومع بعض الجيران ، وفى آخر الامر انتهى الجميع الى قرار بالاجماع هو ان هذا كان حظ ماريا غفريلوفنا ، على ما يبدو ، وان الانسان يتزوج من كتب له ان يتزوجه وان الفقر ليس نقيصة وان الانسان يعيش مع انسان وليس مع ثروة ، وما شابه ذلك . واحكام الاخلاق قد تكون مفيدة فائدة مذهلة فى الاحوال التى نكون فيها غير قادرين على ان نبتكر تبريرا لانفسنا .

وخلال ذلك اخذت الآنسة تتماثل الى الشفاء . وظل فلاديمير منقطعا عن بيت غفريلا غفريلوفيتش فترة طويلة ، لانه لم يعرف اى استقبال ينتظره . قرروا ان يستدعوه ويبلغوه بالخبر السار المفاجىء : الموافقة على الزواج . ولكن كم كانت دهشة اصحاب ضيعة نينارادوفو عظيمة حين تلقوا منه فى الرد على دعوتهم رسالة شبه جنونية ! فقد ابلغهم ان قدمه لن تطأ عتبة دارهم ابدا ، وطلب ان ينسوا البائس الذى يبقى الموت الامل الوحيد له . وبعد عدة ايام عرفوا ان فلاديمير قد رحل الى الجيش . وكان ذلك فى عام ١٨١٢ .

ظلوا زمنا طويلا يكتمون هذا الخبر عن ماشا الناقهة . ولم تكن ماشا تذكر فلاديمير قط . وبعد بضعة اشهر وجدت اسمه فى عداد مَنْ ابلوا بلاء حسنا قرب بورودينو وجرحوا جراحا بليغة . فاغمي عليها :

وخشى اهلها ان تعود الحمى اليها . الا ان الاغماء ، والحمد لله ، لم يخلف عواقب .

ونزلت بها فاجعة اخرى . فقد قضى غفريلا غفريلوفيتش نحبه ، وخلفها وريثة وحيدة للضيعة كلها . الا ان الميراث لم يُسرِّ عنها ، فشاطرت براسكوفيا بيتروفنا التعيسة مصابها عن اخلاص ، مُقسِمة اليمين على الا تفارقها ابدا . وتركت كلتاهما نينارادوفو ، موطنَ الذكريات الاليمة ، وسافرتا لتعيشا فى ضيعة ن . . .

وفى هذه الضيعة ايضا حام الخطاب حول الآنسة الحلوة الثرية ، الا انها لم تعط احدا منهم اى امل . كانت امها تقنعها احيانا بان تختار لها صاحبا ؛ الا ان ماريا غفريلوفنا كانت تهز رأسها ، وتغرق فى تفكير . وكان فلاديمير قد فارق الدنيا ، فقد توفى فى موسكو عشية دخول الفرنسيين . وصارت ذكراه مقدسة عند ماشا ؛ وعلى اقل تقدير حرزت على كل شيء يذكرها به : الكتب التى قرأها ، ورسومه ، والنوطات والاشعار التى استنسخها لها . وعندما عرف الجيران بكل ذلك ، اعجبوا ببقائها على العهد ، وانتظروا بفضول البطل الذى لا بد ان ينتصر ، اخيرا على الوفاء المفجع لارتميزا * العذراء .

وفى غضون ذلك انتهت الحرب مكللة بالمجد ، وعادت افواجنا من خارج الوطن . وخرج الناس لاستقبالها . وعزفت الموسيقى اناشيد البلدان المغلوبة

* ارتميزا هى ارملة القيصر موزول فى هليقرناس (اليونان القديمة ، القرن الرابع قبل الميلاد) كانت تعتبر رمزا للزوجة الوفية . (**الناشر** .)

عليهـــا Vive Henri — Quatre * والحـــان الفالس التيرولية ، ومعزوفات من اوبرا جوكوندا . والضباط الذين خرجوا فى الحملة ، وهم صبيان تقريبا ، عادوا وقد نضجت رجولتهم فى جو الحرب ، وهم **يعلقون النياشين** فى صدورهم . وكان الجنود يتحدثون فيما بينهم مرحين ، تتخلل كلامهم كلمات المانية وفرنسية من حين لآخر . فيا له من زمن لا ينسى ! زمن المجد والفرح الفاخر ! ما اشد خفقات القلب الروسى حين كان يسمع كلمة **وطن** ! وما اعذب دموع اللقاء ! وبأى اجماع كنا نربط بين مشاعر الفخر الشعبى والحب نحو القيصر ! ثم اية لحظة عظيمة كانت للقيصر !

كانت النساء ، النساء الروسيـــات ، آنذاك لا يضارعن . اختفت برودتهن المالوفة . وكانت نشوتهن فتانـــة حقا ، حين كن يهتفن **مرحى** ! لدى استقبالهن الظافرين .

والقين القلنسوات فى الهواء .

ومَنْ من الضباط آنذاك لا يقر بانه كان مدينا للمرأة الروسية بافضل واثمن جائزة ؟ . .

فى ذلك الزمن الزاهى كانت ماريا غفريلوفنا وامها تعيشان فى ولايـــة ك . . . ، فلم تريا كيف احتفلت العاصمتان بعودة القوات . الا ان الفرحة العامة فى الاقضية والقرى ربما كانت اشد . فان ظهور ضابط فى تلك المناطق كان مهرجانا حقيقيا له ، والمعشوق فى ثياب مدنية سيىء الحظ الى جواره .

* عاش هنرى الرابع . (بالفرنسية .)

كنا قد ذكرنا ان ماريا غفريلوفنا ، رغم برودتها ، كانت محاطة بالخُطّاب كالعادة . ولكن الجميع اضطروا الى التراجع حين ظهر فى حصنها العقيد الجريح بورمين من سلك الفرسان ، وقد علـــق فى عروته وسام غيورغى ، وران على وجهه **شحوب لطيف** ، كما قالت الاوانس هناك . كان فى نحو السادسة والعشرين من العمر . وحضر فى الاجازة الى ضيعته المجاورة لقرية ماريا غفريلوفنا . وقد فضلته ماريا غفريلوفنا كثيرا على الآخرين . كان استغراقهـــا المعتاد يزايلهـــا فى حضرته . لا يصح ان يقال انها كانت تغازله ؛ ولكن لو لاحظ الشاعر سلوكها لقال :

* Se amor non è, che dunque...

كان بورمين ، فى واقع الحال ، شابا لطيفا جدا . . وكان له ذلك العقل الذى يعجب النساء : عقل يتسم بالرزانة والملاحظة ، دون اى ادعاء ، مع مسحة من الدعابة غير المكترثة . وكان سلوكه مع ماريا غفريلوفنا بسيطا وعلى السجية . الا انه كلما قالت قولا او فعلت شيئا كانت روحه وبصره يتابعانها . كان ذا مزاج هادىء متواضع ، الا ان اشاعة سرت تؤكد انه كان فى احد الاوقات ماجنا مسرفا ، ولم يضر ذلك به فى نظر ماريا غفريلوفنا التى كانت (مع جميع الشابات عامة) تغفر الشقاوات التى تنم عن جراة الرجل وتوقده .

ولكن اكثر . . . اكثر ما شحذ فضولها وخيالها (اكثر من رقته ، واكثر من عذوبة حديثه ، واكثر من شحوبه اللطيف ، واكثر من ذراعه المضمدة) هو صمت

* ان لم يكن حبا فما هو اذن ؟ (بالايطالية .)

هذا الفارس الشاب . انها ما كانت لتستطيع ان تفكر انه قد اعجب بها كثيرا ؛ ومن المحتمل انه هو ايضا ، بما وهب من عقل وخبرة ، ما كان يستطيع ان يغفل انها كانت تخصه بعنايتها ، فكيف لم تره حتى الآن راكعا على قدميها ، ولم تسمع منه بوحا لها بالحب ؟ ماذا كان يمنعه ؟ الوجل الذى لا ينفصل عن الحب الحقيقى ، ام هى الانفة او دلال زير نساء ؟ كان ذلك لغزا لها . بعد ان تروت فى الامر قررت ان الوجل هو السبب الوحيد لذلك . وعزمت على تشجيعه باهتمام شديد ، وحتى بالرقة ، اذا اقتضت الظروف . واعدت له تدبيرا غير متوقع تماما ، وانتظرت بنفاد صبر لحظة المكاشفة الرومانسية . والسر ، مهما يكن نوعه ، يثقل على قلب المرأة دائما . واتت عملياتها العسكرية بالنجاح المطلوب : على الاقل ، سقط بورمين فى استغراق ، وكانت عيناه السوداوان تصوبان على ماريا غفريلوفنا نارا حامية حتى بدا ان اللحظة الحاسمة وشيكة الوقوع . واخذ الجيران يتحدثون عن الزفاف ، وكأنه امر مفروغ منه ، وفرحت براسكوفيا بيتروفنا الطيبة بأن ابنتها عثرت اخيرا على عريس لائق .

وذات مرة كانت العجوز جالسة وحدها فى غرفة الجلوس تستخير ورق اللعب ، حين دخل بورمين الغرفة ، وسأل فى الحال عن ماريا غفريلوفنا . اجابت العجوز : «انها فى الحديقة . اذهب اليها ، وسأنتظركما انا هنا» . خرج بورمين ورسمت العجوز علامة الصليب ، وفكرت مع نفسها : يبدو ان الامر سينتهى اليوم !

وجد بورمين ماريا غفريلوفنا تحت شجرة صفصاف

عند البركة ، وفى يديها كتاب ، وقد ارتدت فستانا ابيض ، مثل بطلة روائية حقيقية . وبعد الاسئلة الاولى كفت ماريا غفريلوفنا عن مجاذبة الحديث عامدة ، لتزيد بذلك الارتباك المتبادل الذى لا يمكن التخلص منه الا بمصارحة مفاجئة حاسمة . وهذا ما حصل : فان بورمين ، وقد شعر بحراجة موقفه ، اعلن انه كان يتحين منذ وقت طويل فرصة ان يفتح قلبه لها ، وطلب ان تصغى اليه لحظة . اغلقت ماريا غفريلوفنا الكتاب ، واطرقت امارة على الموافقة .

قال بورمين : «انا احبك ، متيّم بك . . .» (توردت ماريا غفريلوفنا ، وزادت من اطراقة راسها .) «تصرفت بلا حذر ، وانا استسلم لعادة حلوة ، عادة ان اراك واسمع صوتك كل يوم . . .» (تذكرت ماريا غفريلوفنا رسالة **St.-Preux** * الاولى .) «والآن فات الاوان لمقاومة نصيبى ؛ ذكراك ، صورتك الفريدة الحبيبة ستكون منذ اليوم عذابا وفرحا لحياتى . ولكن بقى عليّ ان اقوم بواجب صعب ، ان اكشف لك عن سر رهيب ، وان اضع بيننا عقبة منيعة . . .» افلتت من ماريا غفريلوفنا بحيوية : «انها كانت موجودة دائما . وما كان فى وسعى ان اكون زوجتك قط . . .» اجابها بخفوت صوت : «اعرف ، اعرف انك كنت تحبينه ولكن موته وثلاثة اعوام من الحزن . . . يا ماريا غفريلوفنا الطيبة الحبيبة ! لا تحاولى ان تحرمينى من عزائى الاخير : التفكير بانك من الممكن ان توافقى على اسعادى لو لا . . . اسكتى ، بحق الرب ، اسكتى . انك تعذبيننى .

* سانت-بريه . (**بالفرنسية** .)

نعم ، انا اعرف ، اشعر بان من الممكن ان تكونى لى ، ولكننى اتعس مخلوق . . . انا متزوج !»

حدقت ماريا غفريلوفنا فيه منذهلة .

وتابع بورمين كلامه :

— انا متزوج ، متزوج منذ اربعة اعوام ، وانا لا اعرف مَنْ زوجتى ، ولا اين هى ، وهل سألتقى بها يوما ما !

هتفت ماريا غفريلوفنا :

— ماذا انت قائل ؟ ما اغرب ذلك ! تابع كلامك ؛ وسأخبرك فيما بعد . . . تابع ، ارجوك .

قال بورمين :

— فى بداية عام ١٨١٢ هرعت الى فيلنو ، حيث كان فوجى . وذات مساء وصلت الى المحطة فى ساعة متأخرة ، فطلبت ان تعد الخيول سريعا ، واذا بعاصفة ثلجية مريعة تهب فجأة . فنصحنى المراقب والحوذية بان اتريث . فأستجبت لكلامهم ، الا ان قلقا غامضا استبد بى ، كان شخصا كان يدفعنى دفعا . وفى غضون ذلك لم تهدأ العاصفة الثلجية ؛ ولم اصطبر ، وطلبت ثانية ان تعد الخيول ، وخرجت فى قلب العاصفة . عنّ للحوذى ان يسير بمحاذاة النهر الذى كان يجب ان يختصر طريقنا مسافة ثلاثة فراسخ . كانت شواطئه مخفية ، وفات الحوذى بالموضع الذى كان يجب ان نخرج منه الى الطريق ، وبذلك وجدنا انفسنا فى ناحية غريبة . كانت العاصفة لم تهدأ بعد ، ولمحت ضوءا ، فطلبت منه ان يتجه اليه . ودخلنا قرية ، ورأينا الضوء مشتعلا فى كنيسة خشبية . وكانت الكنيسة مفتوحة ، ووراء السياج

بعض الزلاجـــات . وكان الناس يسيرون فى رواق الكنيسة . وصاحت عدة اصوات : «الى هنـــا ! الى هنا !» . طلبت من الحوذى ان يقترب . قال لى احد الناس : «عجبا اين ضعت ؟ العروســة فى غيبوبة ، والراهب لا يعرف ماذا يفعـــل . وكنا نهم بان نعود ادراجنا . اسرع .» . قفزت من الزلاجة صامتا ، ودخلت الكنيسة المضاءة بشمعتين او ثلاث ضوءا باهتا . كانت فتاة تجلس على مصطبة فى ركن من الكنيسة مظلم ؛ وكانت فتاة اخرى تفرك لها صدغيها . قالت هذه : «حمدا لله انك جئت اخيرا . كادت الآنسة تموت» . واقترب القس العجوز منى سائلا :«قل لى هل نبدأ ؟» اجبت انا فى ذهول : «ابدأ ، ابدأ ، يا ابانا» . وانهضوا الفتاة . فرأيتها جميلة . . . نزق مبهم لا يغتفر . . . وقفت الى جنبها امام مقرأ الكتاب المقدس ؛ وكان القس على عجالة من امره ؛ وكان ثلاثة رجال ووصيفة يسندون العروسة ، وينشغلون بها وحدها . وعُقِد قراننا . وقالوا لنا : «تبادلا القبل» . حولت زوجتى الىّ وجهها الشاحب . وهممت بتقبيلها . . . واذا بها تصرخ «ياه ، ليس هو ! ليس هو !» ، واغمى عليها . سدد الشهود علىّ عيونهم المذعورة . استدرت ، وخرجت من الكنيسة ، دون ان يعترضنى احد ، والقيت نفسى فى العربة ، وصحت «انطلق !»

صاحت ماريا غفريلوفنا :

— يا الهى ! وانت الا تعرف ماذا حصل لزوجتك المسكينة ؟

اجاب بورمين :

— لا اعرف ، لا اعرف اسم القرية التى تزوجت فيها ، ولا اتذكر المحطة التى جئت منها . فى ذلك الوقت لم أول اعتبارا كبيرا لشقاوتى الآثمة حتى اننى غفوت بعد مغادرتى الكنيسة ، واستيقظت فى صباح اليوم التالى ، وانا فى المحطة الثالثة . والخادم الذى كان معى آنذاك مات اثناء الحملة ، ولهذا فليس لى حتى امل العثور على تلك التى عبثت معها هذا العبث القاسى ، فانتقمت الآن هذا الانتقام القاسى .

قالت ماريا غفريلوفنا ، وهى تمسك يده :

— يا الهى ، يا الهى ! اذن ، كنت انت ! وانت لا تعرفنى !

شحب بورمين . . . وارتمى على قدميها . . .

صانع التوابيت

السنا نرى فى كل يوم توابيت
والعوالم الهرمة المتهافتة ؟
(من قصيدة **درجافين** «الشلال» .)

القيت الامتعة الاخيرة العائدة لصانع التوابيت ادريان بروخوروف فى عربة النعش ، وجرجر الفرسان الهزيلان نفسيهما للمرة الرابعة من شارع بسماتايا الى شارع نيكيتسكيا ، حيث انتقل صانع التوابيت بكل اهله . بعد ان اغلق دكانه ، وعلق على البوابة اعلانا يعلن فيه ان البيت معروض للبيع وللايجار ، سار ماشيا الى سكنه الجديد . واذ كان صانع التوابيت المسن يقترب من البيت الصغير الاصفر الذى ظل طويلا يداعب خياله ، حتى اشتراه اخيرا بمبلغ لا يستهان به ، شعر بدهشة ان قلبه لم يفرح . عبر العتبة الجديدة عليه ، ورأى مسكنه الجديد فى فوضى ، فتحسر على كوخه المتداعى ، حيث كان كل شىء خاضعا لادق نظام خلال ثمانية عشر عاما ؛ واخذ يشتم ابنتيه ، والخادمة على بطئهن ، وراح يساعدهن بنفسه . وبعد قليل استقر النظام واحتل صوان الايقونات ، ودولاب للاوانى ، ومنضــــدة ، واريكة ، وسرير اركانها المعينة فى الحجرة الخلفية ؛ ووضعت فى المطبخ وغرفة الجلوس مصنوعات رب البيت : توابيت من مختلف الالوان وشتى الحجوم ،

ودواليب تضم قبعات حداد ، وعباءات ، ومشاعل . وعلقت فوق البوابة لافتة تصور إله الحب الضخم والمشعل منقلب فى يده ، وقد كتب عليها : «هنا تباع وتبطن توابيت من مختلف الانواع ، بسيطة وملونة ، كما تؤجر التوابيت وتصلح التوابيت القديمة» . خرجت الفتيات الى حجرتهن ، وطاف صانع التوابيت فى بيته ، وجلس عند النافذة وامر ان يعد السماور .

يعرف القارئ المطلع ان شكسبير ووالتر سكوت كليهما صورا فى مؤلفاتهما حفارى القبور اناسا مرحين اصحاب نكتة ، لكى يثير هذا التناقض خيالنا على نحو اشد . واحتراما للحقيقة لا نستطيع نحن ان نجاريهما ، ونحن مضطرون الى الاعتراف بان خلق صانع توابيتنا كان يتفق تمام الاتفاق مع مهنته الكئيبة . كان ادريان بروخوروف فى العادة جهم الاسارير ، غارقا فى افكاره . فكان لا يخرج عن الصمت الا حين يوبخ ابنتيه ، عندما كان يجدهما تنظران فى النافذة الى المارة دون عمل ، او حين يطلب ثمنا فاحشا على مصنوعاته من اولئك الذين حلت بهم مصيبة (واحيانا لذة) الاحتياج اليها . وهكذا كان ادريان ، على عادته ، غارقا فى تأملاته الكئيبة ، وهو جالس عند النافذة يرشف القدح السابع من الشاى . كان يفكر فى المطر المدرار الذى اصاب ، قبل اسبوع ، موكب تشييع عميد متقاعد ، عند بوابة المدينة تماما . ومن جراء ذلك انكمشت عباءات كثيرة ، وتجعدت قبعات عديدة . وكان يتوقع مصاريف لا محيص عنها ، لان مخزونه القديم من الحلل الجنائزية كان فى حالة يرثى لها . وكان يأمل ان يقتطع الضرر من التاجرة العجوز

تريوخينا ، التى كانت على حافة الموت من عام تقريبا . الا ان تريوخينا توفيت فى شارع رازغولاى ، وكان بروخوروف يخشى ان يتكاسل ورثتها ، رغم وعدهم ، فلا يرسلون فى طلبه من هذه المسافة الطويلة ، وان يتعاملوا مع اقرب مقاول اليهم .

وقطعت هذه الافكار ثلاث ضربات **فرانماسونية** * مباغتة على الباب . سأل صانع التوابيت : «من هناك ؟» فتح الباب ودخل الى الحجرة رجل يمكن ان يعرف ، من النظرة الاولى ، انه حرفى المانى ، واقترب من صانع التوابيت بمظهر مرح ، وقال بلغة روسية لا نستطيع حتى الآن ان نسمعها دون ان نضحك : «العذر ، يا جارى الطيب ، العذر على ازعاجك . . . رغبت ان اتعارف معك فى وقت اسرع . انا اسكاف ، واسمى غوتليب شولتس ، واسكن قبالتك من الشارع ، فى ذلك البيت الصغير المقابل لنوافذك . وغدا سأحتفل بعيد زواجى الخامس والعشرين ، وانا ادعوك وابنتيك الى تناول طعام الغداء عندى كاصدقاء» . وقبلت الدعوة قبولا حسنا . دعا صانع التوابيت الاسكاف الى احتساء قدح من الشاى . وسرعان ما اخذ الرجلان يتجاذبان الحديث الودى بفضل مزاج غوتليب شولتس المنبسط . سأل ادريان : «كيف شغل حضرتك ؟» اجاب شولتس : «بين بين . لا يمكننى ان اشكو . رغم ان بضاعتى ليست مثل بضاعتك ،

* نسبة الى الكلمة الفرنسية لجمعية عالمية سرية بهذا الاسم . والضربات الثلاث على الباب احدى شعائر هذه الجمعية . (**المترجم** .)

طبعا . فالحى يستطيع ان يستغنى عن الحذاء ، بينما الميت لا غنى له عن تابوت» . فلاحظ ادريان قائلا :

«نعِمَ الحق . ولكن اذا كان الحى لا يستطيع ان يشترى حذاء ، ويستطيع ، وارجو المعذرة ، ان يمشى حافيا ، فان الميت الفقير سيحصل لنفسه على تابوت بالمجان» .

واستمر الحديث بينهما بهذه الصورة بعض الوقت حتى نهض الاسكاف اخيرا ، وودّع صانع التوابيت معيدا عليه دعوته .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى خرج صانع التوابيت وابنتاه من باب سياج البيت المشترى حديثا ، واتجهوا الى جارهم . وانا لا اريد ان اصف لا القفطان الروسى الذى ارتداه ادريان بروخوروف ، ولا الزى الاوروبى الذى ارتدته اكولينا وداريا ، متخليا فى هذه الحال عن العادة المتبعة لدى الروائيين اليوم . وافترض ، على كل حال ، انّ ليس من فضول القول ان يذكر ان كلتا الآنستين كانت ترتدى قبعة صفراء ، وحذاء احمر ، وكانت هذه زينتهما فى الاحتفالات وحدها .

كانت شقة الاسكاف الصغيرة غاصة بالضيوف ، ومعظمهم حرفيون المان مع زوجاتهم ومعاونيهم . ولم يكن حاضرا من الموظفين الروس غير شرطى كشك خفارة ، وهو الفنلندى يوركو ، كانت له قدرة على كسب ود رب البيت بشكل خاص ، رغم ضآلة رتبته . وقد خدم خمسة وعشرين عاما فى نفس الرتبة باخلاص وانصاف مثل شخصية ساعى بريد لبوغوريلسكى . وكان حريق عام ١٨١٢ قد اتى على كشكه الاصفر ايضا بعد

ان قضى على العاصمة * . ولكن ما ان طُرد العدو حتى ظهر فى مكانه كشك جديد رمادى له اعمدة صغيرة بيضاء على الطراز الدورى . وعاد يوركو ثانية يروح ويجىء بالقرب منه **مسلحا ببلطة حربية ، ومزوَّدا بسترة جوخ** . وكان يعرف طائفة كبيرة من الالمان الذين كانوا يعيشون بالقرب من بوابة نيكيتسكيه ، بل وكان بعضهم يصادف ان يقضى عنده ليلة الاحد على الاثنين . تعرف ادريان عليه فى الحال ، كشخص قد يحتاج اليه عاجلا او آجلا . وحينما دُعِىَ الضيوف على المائدة ، جلسا سوية . وكان السيد والسيدة شولتس وابنتهما لوتخن ، وهى فى السابعة عشرة يتغدون مع الضيوف ، ويقدمون اليهم اطباق الطعام ، وفى الوقت ذاته يساعدون الطباخة فى الخدمة . صبت الجعة بغزارة . واكل يوركو ما يشبع اربعة اشخاص ؛ ولم يكن ادريان باقل منه اكلا ؛ وخجلت ابنتاه ؛ وصار الكلام بالالمانية يزداد صخبا من ساعة الى اخرى . وفجاة طلب رب البيت انتباه الحضور ، وهتف بالروسية وهو يفتح سداد زجاجة مختومة : «فى صحة زوجتى الطيبة لويزا !» وارسل نبيذ كالشمبانيا زبده . وقبّل المضيف برقة وجه زوجته الغض ، وهى فى الاربعين من عمرها ، وشرب الضيوف فى صخب نخب صحة لويزا الطيبة . وهتف المضيف ، وهو يفتح سداد الزجاجة الثانية : «فى صحة ضيوفى الطيبين !» وشكره الضيوف ، وهم يفرغون كؤوسهم من جديد . وبعد ذلك اخذت الانخاب تتوالى واحدا بعد

* يقصد موسكو فى حريق ١٨١٢ اثناء حملة نابليون . (المترجم) .

الآخر . شربوا نخب صحة كل ضيف على حدة ، وشربوا نخب موسكو ، ومجموعة من المدن الالمانية ، وشربوا نخب اتحادات الحرفيين مجموعة ، وعلى حدة ، وشربوا نخب الصنـــــاع ، واعوان الصناع . وشرب ادريان بحماس ، وغلبه المرح حتى اقترح بنفسه نخبا من الانخاب المارحة . وفجأة رفع احد الضيوف ، وهو خباز سمين ، قدحه ، وهتف : «فى صحة الذين نعمل لهم ! unserer Kundleute *» وحظى الاقتراح بفرح واجماع ، مثل جميع الانخاب . واخذ الضيوف يتبادلون التحيات — الخياط للاسكاف ، والاسكاف للخياط ، والخبـــاز لكليهما ، والجميع للخباز ، وعلى هذا المنوال . وهتف يوركو وسط هذه التحيات مخاطبا الجالس الى جنبه : «اذن ؟ اشرب ، يا صاحبى ، فى صحة موتاك» . وقهقه الجميع . ولكن صانع التوابيت اعتبر نفسه قد اُهين ، وتجهّم . ولم يلاحظ احد ذلك ، واستمر الضيوف فى شربهم ، ولم ينهضوا من المائدة الا حين دقت اجراس الكنائس تدعو الى صلاة المساء .

تفرق الضيوف فى ساعة متأخرة ثملين فى جزئهم الاعظم . وامسك الخباز السمين ومجلد الكتب الذى كان وجهه

مثل سفر مجلد بجلد احمر ،

يوركو ، وحملاه من تحت ابطيه الى كشكه ، مراعين فى الوقت ذاته المثل الروسى القائل : الدين يُرد بمثله . وعاد صانع التوابيت الى بيته سكران وغضبان . وناقش

* زبائننا . (بالالمانية .)

بصوت مسموع : «ما الذى يجعل مهنتى اسوأ مـــن الاخريات ؟ وهل صانع التوابيت صنو الجلاد حقا ؟ لماذا اضحك هؤلاء الكفار ؟ احق ان صانع التوابيت مضحك الاعياد ؟ وددت ان ادعوهم لحفلة تدشين بيتى الجديد ، واولم لهم وليمة فاخرة ، ولكن لن يحصل ، لا يهم : سأدعو الذين اعمل لهم : الموتى المؤمنين» . قالت الخادمة التى كانت تخلع حذاءه آنذاك «ما هذا ، يـــا صاحبى ؟ ما هذا السخف ؟ استغفر الرب ! تدعو الموتى لتدشين البيت ! يا لها من نزوة !» فاستمر ادريان يقول «والرب العظيم ، سأدعوهم ، فى يوم غد بالذات . ارجوكم ، يا اصحابى البررة ، غدا ، ساولم لكم فى المساء ، اضيفكم على ما يُرزق الرب» . وبهذه الكلمة اوى صانع التوابيت الى السرير ، وسرعان ما شخر .

واُوقظ ادريان والظلام ما يزال متلبدا . فقد كانت التاجرة تريوخينا قد قضت نحبها فى نفس الليلة ، وهرع رسول من وكيلها على فرس ليبلغ ادريان النبأ . ولقاء ذلك قدم له صانع التوابيت عشرة كوبيكات ليشرب الفودكا ، واسرع هو فى ارتداء ملابسه ، واستأجر عربة وتوجه الى شارع رازغولاى . كان شرطى قد وقف عند باب المتوفية ، والتجار رائحون وغادون مثل غربان تشممت فطيسة . وكانت المتوفاة مسجّاة على منضدة ، صفراء كالشمع ، ولكن لم يشوهها التعفن بعد . وكان الاقارب والجيران واهل البيت يتزاحمون حولها . وكانت النوافذ كلها مفتوحة ؛ والشموع مضاءة ؛ والقسس ينشدون التراتيـــل . اقترب ادريان من ابن اخـــى تريوخينا ، وهو تاجر شاب يرتدى سترة عصريـــة

طويلة ، واعلن له ان التابوت ، والشموع ، وغطاء التابوت ، ولوازم الدفن الاخرى سترسل له فى الحال على اكمل وجه . شكره الوريث ذاهلا ، بعد ان قال انه لا يماحك فى السعر ، وانه سيعتمد على ضميره فى كل شىء . فاقسم صانع التوابيت ، كعادته ، على انه لن يأخذ زيادة ؛ وتبادل نظرة ذات دلالة مع الوكيل ، وانصرف لشأنه . وقضى النهار كله بين رواح ومجىء من شارع رازغولاى الى بوابة نيكيتسكيه ؛ ولما حل المساء كان قد دبّر كل شىء ، وقفل راجعا الى بيتـه ماشيا بعد ان صرف سائق عربته . كان الليل مقمرا ، ووصل صانع التوابيت بوابة نيكيتسكيه سالما . وعند كنيسة خميس الصعود ناداه صاحبنا يوركو ، وبعد ان عرف انه صانع التوابيت تمنى له ليلة سعيدة . كان الوقت متأخرا ، وكان صانع التوابيت يقترب من بيته ، حين احس فجأة بأن شخصا يدنو من باب بيته الخارجى ، ويفتحه ، ويختفى فيه . فكر ادريان مع نفسه «ما معنى هذا ؟ مَنْ هو بحاجة الىّ بعد ؟ ام ذاك لص تسلل الىّ ؟ ام العشاق يأتون الى ابنتىّ الحمقاوين ؟ محتمل !» وفكر صانع التوابيت ان يستصرخ بصاحبه يوركـو لينجده . وفى تلك اللحظة اقترب شخص آخر من الباب ، وهمّ بالدخول ، الا انه توقف حين رأى رب البيـت يركض ، وخلع قبعته المثلثة . وبدا وجهه لادريان مألوفا ، ولكنه لم يلحق لعجالته ان يمعن النظر فيه . قال ادريان لاهث الانفاس : «اهلا ومرحبا بكم فى دارى . ادخل ، ارجوك» . فقال الرجل بصوت خافت : «لا حاجة الى المجاملة ، يا صاح ، سر فى المقدمة ، ودلّ الضيوف

على الطريق !» ولم يكن ادريان بحاجة الى مجاملة قط . كان الباب مفتوحا ، فارتقى ادريان الدرج ، والرجل وراءه . وخيل الى ادريان ان اناسا يطوفون فى الحجرات . وفكر مع نفسه «يا للعجب !» واسرع فى الدخول . . . واذا برجليه تخونانه . كانت الحجرة مملوءة بالموتى . وكان القمر من خلال النافذة ينير وجوههـم الصفراء والزرقاء ، وافواههم الغائرة ، وعيونهم المربدة نصف المفتوحة ، وانوفهم البارزة . . . وعرف ادريان فى شخوصهم مذعورا اولئك الذين دفنهم بمساعيه ، وكان الرجل الذى دخل معه هو العميد الذى دفن اثناء المطر المدرار . واحاطوا جميعا ، نساء ورجالا ، بصانـع التوابيت محيين مرحبين ، ما خلا فقيرا واحدا كان قد دفنه مجانا قبل وقت قصير لم يقترب منه حييا خجلا من اسماله ، وظل واقفا فى الزاوية وديعا . اما الباقون فكانوا يرتدون البسة لائقـة : المتوفيات معتمرات بقلانس ذات شرائط ، والموظفون الموتى ببزاتهـم الرسمية ، الا انهم بلحى غير مشذبة ، والتجار فى قفاطين الاعياد . قال العميد نيابة عن الحضور : «ها انت ترى ، يا بروخوروف ، اننا نهضنا لدعوتك ؛ ولم يبق فى الدار غير الذين لا حول لهم ، والذين تفسخوا كليا ، ولم يبق غير العظم بلا جلد ، وحتى بين هؤلاء لم يصطبر احدهم ورغب فى ان يزورك . . .» وفى هذه اللحظة انسل هيكل عظمى صغير من خلال الحشد ، واقترب من ادريان . كانت جمجمته تبتسم لصانع التوابيت ابتسامة رقيقة . وكانت مزق من الجوخ الاخضر اليانع والاحمر والكتان الرث تتدلى عليه ، وكأنها على عصا ، وعظام قدميه

تطقطق فى حذاء ركوب طويل ، مثل يد هاون فى هاون . وقال الهيكل العظمى : «انت لم تعرفنى ، يا بروخوروف ، اتذكر رقيب الحرس المتقاعد بيتر بيتروفيتش كوريلكين ، الذى بعت له فى عام ١٧٩٩ اول تابوت من صنعك وقلت انه من خشب البلوط بينما هو من الصنوبر ؟» وبهذه الكلمة بسط الميت له ذراعيه العظميتين ، الا ان ادريان جمع قواه ، وصرخ ، ودفعه . ترنح بيتر بيتروفيتش ، ووقع متهافتا قطعا قطعا . سرت بين الموتى همهمة الاستياء ، ووقفوا جميعا يذبون عن شرف صاحبهم ، وانهالوا على ادريان بالشتائم والوعيد ، وخارت عزيمة رب البيت المسكين الذى اصمه صياحهم ، وكاد يسحق ، فوقع هو ايضا على عظام رقيب الحرس المتقاعد ، وفقد وعيه .

كانت الشمس قد اضاءت منذ وقت طويل السرير الذى كان يرقد عليه صانع التوابيت . وفى آخر الامر فتح عينيه ، ورأى الخادمة امامه تنفخ فى السماور . وتذكر ادريان بذعر كل احداث الامس . وكانت تتراءى فى خياله تريوخينا ، والعميد ، والرقيب كوريلكين بشكل باهت . وانتظر صامتا ان تبدأ الخادمة بالحديث معه ، وتبلغه بعواقب مغامرات البارحة .

قالت اكسينيا ، وهى تقدم له المبذل :

— نمت نوما طويلا ، يا سيدنا ادريان بروخوروفيتش . زارك جارك الخياط ، وجاء شرطى الخفارة فى الكشك القريب ليبلغك ان اليوم هو عيد ميلاد رئيس مركز الشرطة فى منطقتنا ، ولكن رحت نائما فلم نرد ان نوقظك .

— هل جاء احد الىّ من بيت المرحومة تريوخينا ؟

— مرحومة ؟ احق انها ماتت ؟

— يا لك من حمقاء ! الم تساعدينى انت البارحة فى الاعداد لجنازتها ؟

— ما هذا الذى تقوله ؟ هل اصابك مس ، ام سكر البارحة لم يزايلك بعد ؟ اية جنازة كانت البارحة ؟ قضيت نهارك كله فى وليمة الالمانى ، وعدت سكران ، وارتميت فى السرير ، ونمت حتى هذه الساعة ، وقد حلّ الضحى .

فغمغم صانع التوابيت فرحا :

— حقا !

اجابت الخادمة :

— مؤكد .

— اذن ، قدمى الشاى سريعا ، ونادى على ابنتىّ .

ناظر المحطة *

موظف من درجة دنيا
دكتاتور لمحطة الخيول .
(من قصيدة «المحطة» للامير فيازيمسكى .)

مَنْ لم يلعن نظار المحطات ، ومــن لم يتبادل السباب معهم ؟ ومَن لم يطلب منهم ، فى ساعة غضب ، سجل الشكاوى ليسجل فيه شكواه غير المجدية على الاستبداد ، والغلظة والتقصير ؟ ومَنْ لا يعتبرهم غيلان الجنس البشرى يسلكون مسلك الموظفين الراحلين للمحاكم او قطاع الطرق من مشارف موروم على الاقل ؟ ومع ذلك فسنكون منصفين ، ونحاول ان نتفهم وضعهم ، وربما سنحكم عليهم حكما اكثر هوادة . ما هذا الذى يسمى ناظر المحطة ؟ انه شهيد حقيقى من الدرجة الرابعة عشرة حصنته وظيفته من الضربات الجسدية فقط ، وحتى هذا ليس دائما (مستشهدا بضمير قرائى) . وما هى وظيفة هذا الدكتاتور ، كما يسميه الامير فيازيمسكى مازحا ؟ اليست اشغالا شاقة حقيقية ؟ لا راحة فى نهار ولا فى ليل . المسافر يصب كل غضبه الذى تجمع خلال السفر المضجر على ناظر المحطة . والطقس لا يطاق ، والطريق وعرة ، والسائق عنود ، والخيول لا تجر ،

* المقصود فى ذلك محطة خيول . (المترجم .)

ولكن ناظر المحطة هو المذنب . والمسافر ، اذ يدخل بيته البائس ، ينظر اليه ، وكأنه ينظر الى عدو ؛ ولطيف لو استطاع ان يتخلص بسرعة من هذا الضيف غير المدعو ؛ ولكن المعاذ بالله ! اذا لا توجــد خيول ؟ . . اية شتائم ، واية تهديدات تنصب على رأسه ! وهو فى المطر وفى الوحل مضطر الى ان يركض متنقلا من بيت الى بيت ، يخرج من البيت الى الرواق فى زمهرير الشتاء اثناء العاصفة الثلجية والصقيع القارس ليستريح لدقيقة من الزمن من صياح النازل المحنَّق ودفعاته . وحين يأتى جنرال يقدم ناظر المحطة المرتجف الخيول الاخيرة ومن بينها تلك الخيول السريعة المعدة خاصة لسعاة الحكومة . ويغادر الجنرال دون كلمة شكر . وبعد خمس دقائق يرن جرس ! . . واذا بساعى الحكومة يلقى على طاولته امرا باستبدال الخيول ! . . عندما نتروى بكل ذلك جيدا ، تمتلئ قلوبنا بالالم الصادق ، بدلا من الغيظ . ثم لننقل بعض الكلمــات الاخرى : خلال عشرين عاما متوالية طوّفت فى روسيا فى كل حدب وصوب ؛ وعرفت طرق السفر البريدية كلها تقريبا . وتعرفت على بضعة اجيال من سائقى العربات ؛ واكاد اعرف كل الحوذية فى وجوههم ، ونادرا ما لم اتعامل مع احد من نظار محطة . وانا آمل ان انشر ذخيرتــى الطريفة من مشاهداتى فى اسفارى فى وقت ليس بالبعيد ؛ واكتفى الآن بالقول ان فئة نظار المحطات تصوَّر اكذب تصوير لدى الرأى العام . ان نظار المحطــات هؤلاء المفترى عليهــم هم ، فى جوهر الامر ، اناس وديعون خدومون بالطبيعة ، ميالون الى العشرة ، متواضعون فى

مطامحهم فى الاحترام ، وغير مسرفين فى حب المال . ومن احاديثهم (التى ينفر منها السادة المسافرون مع الاسف) يمكن استخلاص الكثير من الاشياء الطريفة والتهذيبية . اما بالنسبة لى ، فانا اعترف بأننى افضل حديثهم على احاديث موظف من الدرجة السادسة ، ذاهب فى مهمة رسمية .

من الممكن الحدس بسهولة ان لى اصحابا من فئة نظار المحطات المحترمة . والحق ان ذكرى واحد منهم عزيزة علىّ . وقد شاءت الظروف ذات يوم ان تقرب بينى وبينه ، وانا اود الآن ان احدث القراء الافاضل عنه .

فى شهر ايار من عام ١٨١٦ كان علىّ ان امرّ عبر ولاية س . . . ، فى طريق مهدم الآن . وكنت فى وظيفة صغيرة ، فكنت اسافر فى عربة استبدال فى المحطات . كنت ادفع اجرة استبدال حصانين . وتبعا لذلك كان نظار المحطات يرفعون الكلفة معى ، فغالبا ما كنت آخذ بالعراك ما كنت اعتبره حقا لى . ولما كنت شابا حاد المزاج كنت احنق على دناءة ناظر المحطة وجفائه حين كان هذا يعطى الخيول المعدّة لى لتشد الى عربة موظف من الطبقة الراقية . كما بقيت زمنا طويلا غير متعود على ان يتخطانى خادم فطن عن قصد ليقدم الطعام الى من هم اعلى رتبة منى اثناء الغداء على مائدة الحاكم . واليوم يبدو لى هذا وذاك من طبيعة الاشياء . وفى الواقع ماذا سيكون معنا لو استبدلت العادة المتعارف عليها القائلة : **المنزلة حسب الرتبة** باخرى من مثل **المنزلة حسب**

العقل ؟ واية مناقشات ستنشأ ! وبمن سيبدأ الخدم فى تقديم الطعام ؟ ولكن لاعد الى قصتى .

كان النهار حارا . وعلى بعد ثلاثة فراسخ من محطة ب . . . بدأت السماء ترذ رذاذا ، وبعد بضع دقائق كان المطر المدرار قد بللنى الى آخر خيط فى ملابسى . وعند وصولى الى المحطة كان اول شغل لى هو استبدال ملابسى باسرع وقت ، والثانى طلب احضار الشاى . صاح ناظر المحطة : «دونيا ! اعدى السماور ، ثم اذهبى لاحضار القشطة» . وبهذه الكلمات خرجت من وراء الحاجز فتاة فى حوالى الرابعة عشرة ، وركضت الى الرواق . بهرنى جمالها . فسألت ناظر المحطة : «اهذه ابنتك ؟» اجاب بقدر كاف من الزهو : «انها ابنتى . ثم انها مدبرة ، خفيفة الحركة ، مثل المرحومة امها تماما» . وبعد ذلك اخذ يسجل الامر الذى احمله لاستبدال الخيول ، واخذت انا انشغل بالتطلع الى الصور التى كانت تزين مسكنه المتواضع ، والنظيف فى الوقت ذاته . وهى صور تصور قصة الابن الضال : فى الصورة الاولى الشيخ الموقّر فى طرطور ومبذل منزلى وهو يفسح الطريق لشاب بادى الانفعال ، عجولا فى تلقى بركاته وكيس النقود . والصورة الثانية تصور بخطوط ساطعة سلوك الفتى الداعر : فهو جالس الى مائدة محاطا باصدقاء مزيفين ونساء مستهترات . وفى اخرى الفتى الذى بذر ثروته فى رداء خشن وقبعة مثلثة يرعى الخنازير ، ويقاسمها الطعام ؛ وقد ارتسم على وجهه الحزن العميق والندم . واخيرا صورة عودته الى ابيه ؛

الشيخ الطيب فى نفس الطرطور والمبذل المنزلى يهرع للقياه : الابن الضال العائد راكع على ركبتيه ؛ وفى المشهد يظهر الطاهى ينحر عجلا سمينا ، والاخ الكبير يسال الخدم عن سبب هذا الفرح . وقرات تحت كل صورة اشعارا المانية معتبرة . وكل ذلك قد انطبع فى ذاكرتى حتى اليوم ، مثلما انطبعت القدور بزهورها المنزلية ، والسرير بستارته الزاهية ، وغير ذلك من الاشياء التى احاطت بى آنذاك . وارى ، وكانه الآن ، رب البيت نفسه ، وهو رجل فى الخمسين من العمر ، غضا نشيطا ، وسترته الطويلة الخضراء تتدلى عليها ثلاث مداليات فى اشرطة ناصلة اللون .

وقبل ان انتهى من دفع الاجرة لسائقى القديم عادت دونيا تحمل السماور . ومن النظرة الثانية لاحظت المليحة الصغيرة التأثير الذى تركته فىّ ؛ غضت عينيها الزرقاوين الكبيرتين ؛ واخذت اتحدث اليها ، فكانت تردّ دون ايما تهيب ، مثل فتاة رأت الدنيا . قدمت لابيها قدح شراب ، ولها كوب شاى ، واخذنا ، ثلاثتنا ، نتجاذب اطراف الحديث ، وكأننا اصحاب منذ زمان .

كانت الخيول قد اعدت منذ وقت طويل ، وما زلت لا اجد فى نفسى الرغبة فى فراق ناظر المحطة وابنته . وفى آخر الامر توادعت معهما ، فتمنى لى الاب سفرا ميمونا ، ورافقتنى الابنة الى العربة . توقفت فى الرواق ، وسألتها ان تأذن لى بتقبيلها . وافقت دونيا . . . وفى وسعى ان اعدد الكثير من القبل ،

منذ ان دابت عليها ،

ولكن لم تخلف واحدة غيرها فى نفسى مثل هذه الذكرى الممتعة طوال هذا الزمن .

انقضت عدة اعوام ، قادتنى الظروف الى ذلك الطريق نفسه ، والى تلك الاماكن ذاتها . تذكرت ابنة ناظر المحطة العجوز وسررت من فكرة رؤيتها مرة اخرى . ولكن فكرت فى احتمال ان يكون ناظر المحطة العجوز قد استبدل بشخص آخر ، ومن المحتمل ان تكون دونيا قد تزوجت . والى جانب ذلك فكرت فى ان يكون هذا او تلك قد وافاه الاجل ، فدنوت من المحطة ب . . . بتوجس حزين .

توقفت الخيول عند مبنى البريد الصغير ، ودخلت انا الغرفة ، وتعرفت فى الحال على الصور التى تحكى قصة الابن الضال العائد ؛ وكانت الطاولة والسرير يقفان فى مكانيهما السابقين ؛ الا ان النوافذ كانت خالية من الزهور المنزلية ، وكان البلى والاهمال يشيعان فى كل شىء . كان ناظر المحطة ينام تحت فروة خروف ؛ وقد ايقظه قدومى ؛ فرفع جسمه قليلا . . . لقد كان هو سامسون فيرين نفسه ؛ ولكن ولشدّ ما شاخ ! بينما كان يتهيأ ليسجل امر استبدال الخيول تمعنت انا فى شيبه ، وفى الغضون العميقة على وجهه غير الحليق ، وفى الظهر المحدودب ، وانا لا اتمالك نفسى عجبا من ان تستطيع ثلاثة اعوام او اربعة ان تحول رجلا جمّ النشاط الى عجوز هرم . سألته : «هل عرفتنى ؟ نحن متعارفان منذ زمان» . اجاب جهما : «من المحتمل . فان الطريق هنا كبيرة ،

وكثيرون من المسافرين نزلوا عندى» . فأردفت اسأله : «كيف صحة ابنتك دونيا ؟» تعبَّس العجوز ، واجاب : «الله يعلم» . قلت : «اذن ، فقد تزوجت ؟» تظاهر العجوز بانه لم يسمع سؤالى ، وواصل قراءة الامر همسا . كففت عن اسئلتى ، وطلبت ان يعد الشاى . وبدأ حب الاستطلاع يضايقنى ، فاملت ان يفك الشراب عقدة لسان صاحبى العجوز .

ولم اكن على خطأ . فان العجوز لم يرفض القدح الذى قدمته له . ولاحظت ان الشراب صفّى عبوس وجهه . وفى القدح الثانى صار طلق اللسان . تذكرنى او تظاهر بذلك ، وعرفت منه القصة التى شغلتنى فى وقتها ، وتأثرت بها . بدأ حديثه :

«اذن ، فانت تعرف ابنتى دونيا ؟ومَنْ لم يعرفها ؟ آه ، دونيا ، دونيا ! اية فتاة كانت ! كان كل مسافر يثنى عليها الوان الثناء ، ولا يعيبها فى شىء . كانت السيدات يقدمن لها الهدايا ، منديلا مرة ، وقرطين مرة اخرى . وكان السادة من المسافرين يتعمدون التوقف متظاهرين بأنهم يريدون تناول الغذاء ، او العشاء ، وهم فى واقع الامر لا يرمون غير اطالة النظر اليها . وصاحب المقام ، مهما يكن مغضبا ، يهدأ فى وجودها ، ويتحدث معى بلطف . صدقنى ، ايها السيد ، ان السعاة ورسل الحكومة المستعجلين كانوا يتحدثون معها نصف ساعة . كان البيت يقوم عليها : فهى تنظف ، وتطهى ، وتنجز كل شىء . اما انا ، العجوز الاحمق ، فكنت اديم النظر اليها واكحل ناظرى برؤياها . فقد كنت عظيم الحب لابنتى دونيا ، كثير المداعبة لها ، فاى حياة كانت لها ؟

ولكن الدعوات لا ترد مصيبة ، وما هو مكتوب لك لا محيص لك عنه» . وهنا اخذ يقص علىَّ مصيبته بالتفصيل . — فى امسية شتائية قبل ثلاثة اعوام ، بينما كان ناظر المحطة يخطط كتابا جديدا ، وابنته تخيط لها ثوبا وراء الحاجز ، وصلت عربة ترويكا ، ودخل المسافر الغرفة فى قبعة جركسية ، ومعطف عسكرى ، ملتفا فى لفاح ، وطلب ان يجهز بالخيول . كانت الخيول كلها خارجة فى سفر . ولما سمع المسافر بهذا الخبر رفع صوته وسوطه . الا ان دونيا ، وقد الفت هذه المشاهد ، خرجت من وراء الحاجز ، وتوجهت الى المسافر سائلة اياه فى لهجة رقيقة هل يرغب فى ان يصيب طعاما ؟ وكان لظهور دونيا اثره المألوف . زال غضب المسافر ، ووافق على انتظار الخيول ، وطلب ان يحضر له العشاء . خلع قبعته المبللة الشعثاء ، وحلّ اللفاح ، ونزع المعطف ، فبدا شابا ، فارسا رشيقا ذا شاربين اسودين . ونزل فى بيت ناظر المحطة ، وشرع يتحدث معه ومع ابنته بمرح . قُدّم العشاء ، وفى غضون ذلك وصلت الخيول ، وامر ناظر المحطة بالا يقدم لها العلف ، وان تشد الى عربة المسافر فى الحال . ولكن لدى عودته رأى الشاب راقدا على تخت خشبى دون وعى تقريبا : فقد اصيب بتوعك ، بسبب صداع طرا عليه ، وكان من غير الممكن ان يتابع سفره . . . ما العمل ! تنازل ناظر المحطة له عن سريره ، وكان ينبغى ، اذا لم تتحسن صحة المريض ان يُرسل فى اليوم التالى لاستدعاء الطبيب من س . . .

فى اليوم التالى كانت حالة الفارس اسوأ . وقد سافر

خادمه على حصان الى المدينة لاستدعاء الطبيب . عصبت دونيا راس المريض بمنديل مبلل بالخل ، وجلست عند سريره ومعها خياطتها . كان المريض فى حضرة ناظر المحطة يتأوه ، ولا يكاد ينبس بكلمة واحدة ، الا انه شرب قدحين من القهوة ، وطلب وهو يتأوه ، ان يعد الغداء له . ولم تبتعد دونيا عنه . كان بين لحظة واخرى يطلب ان يشرب شيئا ، فكانت دونيا تجلب له قدح شراب الليمون الذى اعدته بنفسها . كان المريض يبلل شفتيه ، وفى كل مرة عندما يعيد فيها القدح كان يضغط بيده الضعيفة على يد دونيا ، امارة على الامتنان . ووصل الطبيب عند الغداء . جسّ نبض المريض ، وتحدث معه بالالمانية ، واعلن بالروسية انه يحتاج الى الهدوء فقط ، يومين او نحوهما ليستطيع ان يواصل السفر . سلّمه الفارس خمسة وعشرين روبلا لعيادته ، ودعاه الى تناول طعام الغداء . وافق الطبيب ، واكل كلاهما بشهية كبيرة ، واحتسيا زجاجة نبيذ ، وافترقا واحدهما راض عن الآخر كثيرا .

انقضى يوم آخر ، وشفى الفارس تماما . كان فى غاية المرح ، وقد تمازح بلا انقطاع تارة مع دونيا ، وتارة مع ناظر المحطة ؛ وصفر الحان اغنيات ، وتحدث مع المسافرين ، وسجل فى سجل البريد اوامرهم فى التزود بالخيول ، وقد احبه ناظر المحطة كثيرا حتى انه اسف لفراق نزيله اللطيف فى اليوم الثالث . كان اليوم يوم الاحد ، ودونيا تتهيأ الى القداس . وقدمت للفارس عربة السفر . فتوادع هذا مع ناظر المحطة ، بعد ان اغدق له فى اجرة المبيت والطعام ، وتوادع مع دونيا ، ودعا الى

ان يصحبها الى الكنيسة . وقفت دونيا فى حيرة من امرها . . . فقال لها ابوها : «ما الذى تخشينه ؟ فان السيد الجليل ليس ذئبا ، ولن ياكلك . فاركبى معه الى الكنيسة» . جلست دونيا فى العربة الى جانب الفارس ، وقفز الخادم الى مقعد عند الحوذى ، وصفر الحوذى ، وانطلقت الخيول تعدو .

لم يدرك ناظر المحطة المسكين كيف استطاع ان يسمح لابنته دونيا بالسفر مع الفارس ، وكأنما الم به غشاوة ، وطرأ شىء على عقله . وما هى الا نصف ساعة حتى اخذ قلبه يستشعر خيفة ، واستولى عليه قلق شديد افقده صبره ، فخرج بنفسه الى القداس . ولما اقترب من الكنيسة رأى الناس قد انصرفوا ، ولكنه لم ير دونيا . فدخل الكنيسة مسرعا : كان القس يغادر المحراب ، والشماس يطفىء الشموع ، وامرأتان عجوزان ما تزالان تصليان فى احد الاركان ، الا ان دونيا لم تكن فى الكنيسة . وبعد جهد عزم الاب المسكين على ان يسأل الشماس عما اذا كانت تحضر القداس ، فاجاب هذا انها لم تكن موجودة . عاد ناظر المحطة الى البيت وهو بين الموت والحياة . ولم يبق له غير امل واحد ، هو ان دونيا ، ربما دفعها هوس الفتيات الشابات ، الى ان تركب العربة الى المحطة التالية حيث كانت تعيش عرّابتها . فانتظر ، بقلق أليم ، عودة «الترويكا» التى سمح لها بركوبها . ولم يَعُدْ الحوذى . وفى آخر الامر ، عند المساء عاد لوحده سكران يحمل نبأ قتّالا : «غادرت دونيا تلك المحطة مواصلة السفر مع الفارس» .

ولم يتحمل العجوز المصيبة ؛ فرقد مريضا فى الحال على نفس السرير الذى كان الخادع الشاب يرقد عليه فى عشية الحادث . وفطن ناظر المحطة ، وهو يزن الامور الآن ، الى ان الفارس كان يتمارض . واصيب المسكين بحمى شديدة ، فنقل الى س . . . ، وعين فى مكانه شخص آخر بصورة موقتة . وعالجه نفس الطبيب الذى جاء لمعالجة الفارس . وقد اكد لناظر المحطة ان ذلك الشاب كان معافى ، وانه قد فطن الى نيته السيئة آنذاك ، الا انه لزم الصمت خوفا من سوطه . فهل كان هذا الالمانى يقول الحق ، ام كان يريد فقط ان يتباهى ببعد نظره ؟ الا ان ذلك لم يخفف الوطأة على المريض المسكين قدر شعرة . فما كاد يتماثل للشفاء حتى طلب من رئيس دائرة البريد فى س . . . اجازة لمدة شهرين وخرج ماشيا ليبحث عن ابنته دون ان يقول لاحد شيئا عن نيته . وقد عرف من سجلات السفر ان النقيب مينسكى سافر من سمولينسك الى بطرسبورغ . وروى الحوذى الذى قاد عربته ان دونيا كانت تبكى طوال الطريق ، رغم انها ، على ما يبدو ، سافرت برغبتها . وفكر ناظر المحطة : «لعلنى سأعود بابنتى الضالة الى البيت» . وبهذه الفكرة وصل الى بطرسبورغ ، ونزل فى فوج اسماعيلوفسكى ، فى بيت ضابط متقاعد كان يخدم معه ، وشرع فى بحثه . وسرعان ما علم ان النقيب مينسكى فى بطرسبورغ ، ويقيم فى حانة ديموتوف . فعزم ناظر المحطة على ان يذهب اليه .

وصل الى حجرة الانتظار فى شقته فى الصباح الباكر ، وطلب ان يبلغ سيادته بأن جنديا قديما يود مقابلته .

فأبلغه الخادم العسكرى ، وهو ينظف حذاء معلقا على سند ، ان السيد نائم ، وانه لا يستقبل احدا قبل الحادية عشرة . خرج ناظر المحطة وعاد فى الوقت المحدد . طلع مينسكى اليه بنفسه فى مبذله البيتى ، وطاقية حمراء وسأله : «ما حاجتك ، ايها الاخ ؟» شرع قلب العجوز يغلى ، ترقرقت الدموع فى عينيه . فلم يستطع الا ان يقول بصوت مرتجف : «سيادتك ! . . اصنع معروفا لله ! . .» حدق مينسكى به سريعا ، واحمر ، وامسكه من يده ، وقاده الى مكتبه ، واغلق الباب وراءه . تابع العجوز قوله : «سيادتك ! . . عفا الله عما سلف . فأرجع لى ابنتى المسكينة دونيا ، على الاقل . فقد استمتعت بها . فلا تهلكها عبثا» . فقال الشاب فى غاية الارتباك : «ما حصل لا تستطيع دفعه . انا مذنب ازاءك ، وسعيد فى ان اسألك المغفرة ؛ ولكن لا تظن اننى قادر على ترك دونيا . اقسم لك انها ستكون سعيدة . فما حاجتك اليها؟ انها تحبنى ، وقد نسيت وضعها السابق . لا انت ولا هى تنسى ما حصل» . وبعد ذلك دسّ شيئا فى طى كمه ، وفتح الباب ، ورأى ناظر المحطة نفسه فى الشارع دون ان يدرى .

لبث طويلا دون حراك ، ثم رأى خلف طرف كمه لفّة ورق . اخرجها ، وبسطها فاذا هى بضع اوراق نقدية متجعدة من فئة الخمسة والعشرة روبلات . واغرورقت عيناه بالدموع مرة اخرى ، دموع الحنق ! كوّر الاوراق فى يده ، ورماها ارضا ، وسحقها بكعب حذائه ، وانصرف . . . سار بضع خطوات ، وتوقف ، فكر مع نفسه . . . وعاد . . . الا ان الاوراق النقدية لم تكن

موجودة . هرع شاب حسن الهندام الى عربة اجرة ، حين رآه ، وجلس فيها وهتف بعجالة : «انطلق ! . .» ولم يلاحقه ناظر المحطة . وقرر التوجه الى داره فى محطته ، الا انه ود قبل ذلك ان يرى ابنته المسكينة دونيا مرة واحدة على الاقل . ولاجل ذلك عاد مرة اخرى الى مينسكى بعد يومين ، الا ان الخادم العسكرى قال له بحدة ان السيد لا يستقبل احدا ، واخرجه بصدره من غرفة الانتظار ، وصفق الباب فى اثره . وقف ناظر المحطة برهة ثم اخرى ثم انصرف .

فى مساء ذلك اليوم كان يسير فى شارع ليتينايا بعد ان صلى فى كنيسة «جميع الحزانى» . وفجأة انطلقت امامه عربة صغيرة مترفة ، ولمح ناظر المحطة مينسكى فيها . توقفت العربة امام دار من ثلاثة طوابق ، عند المدخل تماما ، ونزل الفارس منها الى المدخل راكضا . وومضت فكرة هنيئة فى ذهن ناظر المحطة . عاد ، وتوازى مع الحوذى ، وساله : «لمن الحصان ، يا اخ ؟ أليس صاحبه مينسكى ؟» اجاب الحوذى : «نعم ، ولكن ما غرضك ؟» قال ناظر المحطة : «ان سيدك امرنى بان اوصل مذكرة الى صاحبته دونيا ، ولكننى نسيت اين تسكن» . — «انها تسكن هنا ، فى الطابق الثانى . لقد تاخرت بمذكرتك هذه ، يا اخ . انه الآن بنفسه معها» . فردّ ناظر المحطة ، وقلبه يخفق خفقانا لا يوصف : «لا حاجة لذلك . شكرا على كلامك ، وساقوم انا بشأنى» . وبهذه الكلمة راح يرتقى السلم .

كانت الابواب مقفلة ؛ فدق الجرس ، ومضت بضع ثوان فى انتظار اليم . وقلقل المفتاح فى القفل . وفتح له

الباب . سأل : «هل افدوتيا سامسونفنا تقيم هنا ؟» اجابت الخادمة الشابة : «هنا ، فما حاجتك اليها ؟» ودون ان يجيب دخل ناظر المحطة الصالة . صاحت الخادمة فى اثره : «ممنوع ، لا يجوز . عند افدوتيا سامسونفنا ضيوف» . الا ان ناظر المحطة لم يصغ لها ، وواصل سيره . كانت الغرفتان الاولى والثانية مظلمتين ، والثالثة مضاءة . تقدم من الباب المفتوح وتوقف . كان مينسكى يجلس غارقا فى افكاره فى هذه الغرفة المرتبة ترتيبا رائعا . وكانت دونيا الرافلة بكل مظاهر الترف والموضة تجلس على مسند مقعده كما تجلس راكبة الفرس على سرج انجليزى . كانت ترمق مينسكى برقة ، وتفتل خصلاته السود المتجعدة على اصابعها اللامعة بالاحجار الكريمة . يا لناظر المحطة المسكين ! ان ابنته لم تبد له قط بهذه الروعة . وجد نفسه يمتع بصره بها دون ان يدرى . وسألت هى دون ان ترفع راسها : «مَنْ هناك ؟» . وبقى هو على صمته . رفعت دونيا راسها حين لم تتلق جوابا . . . وسقطت على البساط صارخة . هب مينسكى المذعور ليرفعها ، وفجأة وقع بصره على ناظر المحطة العجوز واقفا عند الباب ، فترك دونيا ، وتقدم نحوه ، مرتجفا من الغيظ قائلا له وهو يكز على اسنانه : «ماذا تريد ؟ لماذا انت تتلصص علىّ فى كل مكان كقاطع طريق ؟ ام تريد ان تذبحنى ؟ اخرج من هنا !» وامسك العجوز من تلابيبه بيده القوية ، واخرجه دافعا اياه على السلم .

وصل العجوز الى مقره . واشار عليه صديق له بان يرفع شكوى ؛ الا ان ناظر المحطة فكّر مليًا ، وهزّ

ذراعه رفضا ، وقرر ان يتخلى عن الامر . وبعد يومين خرج من بطرسبورغ عائدا الى محطته ، واخذ يزاول واجبه من جديد . وختم ناظر المحطة روايته قائلا : «وهذه هى السنة الثالثة وانا اعيش بدون دونيا ، وليس لى عنها علم ولا خبر . والله يعلم اهى حية ام ميتة . فان كل شىء يحدث . وليست هى اول ولا آخر مَنْ اغواهن هذا المسافر الماجن الذى استمتع بها زمنا ، ثم نبذها . وفى بطرسبورغ الكثيرات من خفيفات العقل هؤلاء . اليوم يرفلن فى الاطلس والمخمل ، وغدا يكنسن الشارع من حثالة الخمارات . وعندما افكر احيانا بان دونيا ايضا ربما تسقط هناك ، اتحمل الخطيئة ، واتمنى لها الموت . . .»

هذه هى قصة صاحبى ، ناظر المحطة العجوز ، القصة التى قطعتها الدموع غير مرة ، فكان يمسح الدموع بطرف ردائه بشكل مؤثر ، مثل شخصية تيرينتش الحريص فى قصيدة ديمتربيف الرائعة . وكانت هذه الدموع يثيرها ، لحد ما ، الشراب الذى احتسى منه خمسه اقداح خلال رواية قصته ؛ الا انها على اية حال اثرت فى قلبى تاثيرا شديدا . وعندما فارقت ناظر المحطة لبثت فى قلبى زمنا طويلا غير قادر على نسيانه ، مطيلا التفكير فى دونيا المسكينة . . .

وقبل فترة ليست بالبعيدة تذكرت صاحبى ، وانا مسافر عبر منطقة س . . . ، فعرفت ان المحطة التى كان يديرها قد خربت . ولم يستطع احد ان يرد ردا مقبولا على سؤالى : «أما زال ناظر المحطة العجوز حيا ؟» فعزمت على زيارة الناحية التى اعرفها ، واستأجرت خيولا

وانحدرت الى قرية ن . . .

كان ذلك خريفا . وكانت السماء ملبدة بسحب رمادية ؛ والريح الباردة تهب من الحقول المحصودة ، نازعة الاوراق الحمراء والصفراء من الاشجار المقابلة فى طريقها . وصلت الى القرية عند غروب الشمس ، وتوقفت عند مبنى البريد . خرجت امراة بدينة الى الرواق (المكان الذى قبلتنى فيه دونيا المسكينة) واجابت عن اسئلتى ان ناظر المحطة العجوز توفى منذ عام ، وان بيته يحتله الآن مُخمر بيرة ، وهى زوجته . اسفت على سفرى غير المجدى ، وعلى سبعة روبلات انفقتها عبثا . سألت زوجة مخمر البيرة : «ما سبب وفاته ؟» — «ادمن الخمرة ، يا حضرة» . — «واين دفن ؟» — «وراء حدود القرية ، قرب زوجته .» — «هل من الممكن ان أدل على قبره ؟» — «ولِمَ لا ؟ يا فانكا ، كفى لعبا مع القطة . ودلّ السيد على المقبرة ، واره قبر ناظر المحطة» .

وبهذه الكلمة خرج الىّ صبى رث الثياب ، احمر الشعر ، ذو عين واحدة ، وفى الحال قادنى الى خارج القرية . سألته فى الطريق :

— هل كنت تعرف المرحوم ؟

— كيف لا اعرفه ! لقد علمنى نحت المزامير . وكان (الله يرحمه !) يخرج من الخمارة ، ونحن فى اثره ، ونقول : «يا جد ، يا جد ، اعطنا بندقا !» فكان يلقى لنا بالبندق . كان يلاعبنا احيانا كثيرة .

— والمسافرون ، الا يتذكرونه ؟

- المسافرون قليلون الآن . ليس الا المحلّف يمر

خطفا ، ولا شأن له فى الموتى . وفى الصيف مرّت سيدة ، وسألت عن ناظر المحطة العجوز ، وزارت قبره .

سألته بلهفة : اية سيدة ؟

اجاب :

— سيدة بارعة الجمال ، جاءت راكبة عربة تجرها ستة خيول ، ومعها ثلاثة اطفال ومرضعة وكلب صغير . وما ان ابلغوا بان ناظر المحطة العجوز مات ، حتى انفجرت باكية ، وقالت للاطفال «اجلسوا بهدوء ، وانا ذاهبة الى المقبرة» . اردت مصاحبتها الى المقبرة . الا ان السيدة قالت : «انا اعرف الطريق» . واعطتنى خمسة كوبيكات فضية . يا لها من سيدة طيبة ! . .

وصلنا الى المقبرة . انها مكان اجرد ، غير مسيج ، تتناثر فيه الصلبان الخشبية ، ولا توجد فيه شجيرة واحدة . وانا لم ار ابدا مثل هذه المقبرة الموحشة .

قال لى الصبى وهو يقفز على كومة الرمل ركز عليها صليب اسود عليه ايقونة نحاسية :

— هذا قبر ناظر المحطة العجوز .

سألت :

— والسيدة جاءت الى هنا ؟

— جاءت . وراقبتها من بعيد . ارتمت هنا ، وظلت مرتمية وقتا طويلا . وبعد ذلك ذهبت الى القرية ، ودعت قسا ، واعطته نقودا ، وانصرفت . اما انا فاعطتنى خمسة كوبيكات فضية . سيدة رائعة !

واعطيت للصبى خمسة كوبيكات ، ولم أسف على سفرتى ولا على الروبلات السبعة التى انفقتها .

ابنة السيد — الفلاحة

انك لجميلة ، يا حسناء ، فى كل الازياء .
(من قصيدة «الحسناء» **لبوغدانوفيتش** .)

كانت ضيعة ايفان بتروفيتش بيرستوف تقع فى احدى ولاياتنا النائية . وقد خدم ايفان بتروفيتش فى شبابه فى الحرس ، واستقال فى بداية عام ١٧٩٧ ، ورحل الى ضيعته ، ولم يخرج منها منذ ذلك الحين . كان متزوجا واحدة من بنات الاعيان المعدمين ، وقد توفيت اثناء الوضع ، حين كان خارجا فى صيد . وسرعان ما سرّى عنه انشغاله فى شؤونه الاقتصادية . بنى دارا وفق تصميمه الخاص ، واقام له معملا للاجواخ ، وزاد مدخولاته ثلاث مرات ، وصار يعتبر نفسه اذكى انسان فى كل المنطقة ، ولم ينكر عليه ذلك جيرانه الذين كانوا ينزلون عليه ضيوفا مع عوائلهم وكلابهم . كان فى ايام الاسبوع الاعتيادية يرتدى سترة مخملية ، وفى ايام الاعياد سترة طويلة من الجوخ المنسوج بيتيا ؛ وكان يسجل النفقات بنفسه ، ولم يقرأ غير جريدة «سيناتسكيه فيدوموستى» . وبوجه عام كان محبوبا ، وان كان يعتبر معتدا بنفسه . شخص واحد لم يكن على وفاق معه ، هو غريغورى ايفانوفيتش موروومسكى ، جاره الجُنُب . وكان هذا نبيلا روسيا حقيقيا بذّر فى

موسكو جانبا كبيرا من ثروته ، وترمل فى اثناء ذلك ، فرحل الى ضيعته الاخيرة ، حيث استمر على عبثه ، ولكن من نوع جديد ، هذه المرة . اقام حديقة انجليزية انفق عليها كل مدخولاتـه الباقية تقريبا . وكان سوّاس خيوله يرتدون ما يرتديه الجوكية الانجليز . وكانت لابنته وصيفة انجليزية . وكان يزرع حقولـه على الطريقة الانجليزية :

ولكن القمح الروسى لا ينبت وفق هوى اجنبى ،

ورغم التقليـل الكبير فى النفقات لـم تزد واردات غريغورى ايفانوفيتش ؛ فوجد ، وهو فى الضيعة ايضا ، طريقة للدخول فى ديون جديدة ؛ ومع كل ذلك لم يعتبر رجلا خفيف العقل ، لانه اول صاحب اطيان فى ولايته دبر ان يرهن الضيعة الى مجلس الوصاية ، وهى صفقة كانت تعتبر فى ذلك الوقت معقدة وجريئة للغاية . وكان بيرستوف اشد ضراوة من كل الذين يلومونه . فقد كانت الكراهية للاشياء الجديدة من مميزاته . فلم يكن يتحدث دون اكتراث عن هوس التنجلز عنـد جاره ، وكان يتسقّط الفرص فى كل لحظـة لانتقاده . فاذا عرض اطيانه لاحد الضيوف ، فامتدح هذا حسن تدبيره اجاب ببسمة تهكمية ماكرة : «نعم ، ولكن ما عندى ليس كالذى عند الجار غريغورى ايفانوفيتش . ليس بنا حاجة الى هوس انجليزى ! ان نشبع على الطريقة الروسية» . وكانت هذه النكات وما شاكلها ينقلها الجيران بمثابرة الى غريغورى ايفانوفيتش مع الزيادة والتفسيرات . وكان المتنجلز يتلقى النقد بغير نفاد صبر ، مثل صحفيينا .

وقد اغتاظ ، ونعت المتجنىء عليه بالدب وعديـم الثقافة .

كانت هذه علاقة الملاكين حين وصل ابن بيرستوف الى ضيعة ابيه . وكان قد تثقف فى جامعة ن . . . ، وعزم على دخول الخدمة العسكرية ، الا ان اباه لم يوافق على ذلك . وكان الشاب يشعر بانه غير قادر على الخدمة المدنية مطلقا . ولم يستجب احدهما للآخر ، فصار الشاب الكسى يعيش كابن السيد ، وقد اطلق شاربيه على كل حال .

كان الكسى فى واقع الامر فتى ونِعْم الفتى . ومن المؤسف حقا الا تشد قده الممشوق بزة عسكرية ، وان يقضى شبابه منكبا على اوراق المعاملات فى احد المكاتب بدلا من ان يزهو على صهوة حصان . وكان الجيران يقولون بالاجماع ، وهم يرونه يجلّى بفرسه فى الصيد دون ان ينظر الى الطريق ، انه لن يصلح لان يكون رئيس مكتب حسنا . وكانت الآنسات يرمقنـه ، وبعضهن يتطلعن اليه معجبات . الا ان الكسى لم يكن يوليهن كبير اهتمام ، فاعتبرن السبب فى انعدام تجاوبه علاقة حب . وفى الواقع كانت الايدى تتناقل نسخة من عنوان احدى رسائلـه : **الى اكولينا بتروفنـا كوروتشكينا ، فى موسكو ، مقابل دير الكسييف ، فى بيت النحاس سافيليف ، مع الرجاء الشديد لايصال الرسالة الى ا . ن . ر .**

ان الذين لـم يعيشوا فى الارياف مـن قرائى لا يستطيعون ان يتصوروا اية فتنة تتحلى بهـا آنسات الارياف هؤلاء ! انهن ، وقد نشأن على نقاء الهواء ، فى

ظلال بساتين التفاح ، يستقين معرفتهن عن الدنيا والحياة من الكتب . والتوحد ، والفراغ ، والقراءة تنمى فيهن مبكرا مشاعر واهواء غير معروفة لحسناواتنا المستطيرات الالباب . فان رنين جرس بالنسبة للآنسة الريفية ما هو الا مغامرة ، والسفر الى مدينة قريبة بمثابة عهد من عهود الحياة ، وزيارة ضيف تترك ذكرى طويلة واحيانا لا تمحى . وبالطبع فى مقدور كل انسان ان يضحك من بعض غرائبهن ، الا ان نكات الملاحظ السطحى لا تستطيع ان تقضى على فضائلهن الجوهرية ، واهمها تميز الشخصية ، الاصالة (individualité) التى لا وجود للعظمة الانسانية بدونها ، حسب راى جان-بول . قد تتلقى النساء فى العواصم تعليما افضل ، الا ان سراة الناس يصقلون الشخصية سريعا ، ويجعلون النفوس متشابهة كثيرا ، مثل اغطية الراس . وهذا القول لا يقال استنكارا الا ان Nota nostra. manet * ، كما يكتب احد المعلقين القدامى .

ومن السهل تصور الاثر الذى لا بد ان يتركه الكسى فى محيط اوانسنا . وكان اول من ظهر امامهن حزينا خائب الظن ، واول من تحدث لهن عن المسرات المفقودة ، وعن شبابه الذابل ؛ وفضلا عن ذلك كان يضع فى اصبعه خاتما اسود عليه صورة راس ميت . وكل هذه الاشياء تبدو جديدة للغاية فى تلك الولاية . وقد جنت الاوانس به جنونا .

ولكن اكثر مَنْ انشغلت به من الفتيات كانت ابنة صاحبى المتنجلز ليزا (او بيتسى كما كان يسميها

* ملاحظتنا تبقى سارية المفعول . (**باللاتينية .**)

غريغورى ايفانوفيتش عادة) . وكان الابوان لا يتزاوران . فلم تكن قد رات الكسى بعد . بينما لم يكن للجارات الشابات جميعهن الا الحديث عنه . كانت فى السابعة عشرة من العمر . وكانت عيناها السوداوان تبعث حيوية فى وجهها الاسمر البديع جدا . وكانت الابنة الوحيدة لابيها ، والمدللة لهذا السبب . كانت خفتها ونزواتها المتكررة تعجب اباها ، وتسلم الى القنوط مربيتها مس جاكسون ، وهى آنسة فى الاربعين من العمر متمسكة بالاصول ، كانت تتبودر ، وتخط حاجبيها بالكحل ، وتعيد قراءة «باميلا» * مرتين فى العام ، وتحصل لقاء ذلك على الفى روبل ، وتموت من السأم فى **روسيا البربرية هذه** .

كانت ليزا موضع عناية ناستيا ، وهى فتاة اكبر سنا منها ، الا انها كانت تماثل الآنسة فى نزقها الشديد . وكانت ليزا تحبها كثيرا ، وتكشف لها كل اسرارها ، وتتدارس معها خيالاتها ، وباختصار ، كانت ناستيا فى قرية بريلوتشينو شخصية اهم بكثير من كاتمة اسرار فى تراجيدية فرنسية .

قالت ناستيا ذات مرة وهى تعين ليزا على ارتداء ملابسها :

— سيدتى ، ائذنى لى اليوم بالخروج للضيافة .

— ماذونة . ولكن الى اين ؟

— الى عائلة بيرستوف فى توغيلوفو . فاليوم عيد

* «باميلا او الفاضلة المجازاة» رواية للكاتب الانجليزى ريتشاردسون . (**الناشر .**)

قديس زوجة الطباخ ، وقد زارتنا يوم امس لتوعدنا الى الغداء .

قالت ليزا :

– هكذا اذن ! السيدان متخاصمان ، والخدم يتضايفون .

فردت ناستيا :

– لا شان لنا بالسادة ! ثم اننى خادمتك ، ولست خادمة ابيك . وانت حتى الآن لم تتخاصمى مع الشاب بيرستوف . فليتخاصم الشيخان فيما بينهما ، اذا كان هذا يسرهما .

– حاولى ، يا ناستيا ، ان ترى الكسى بيرستوف ثم اخبرينى جيدا اى مظهر له ، واى انسان هو .

وعدتها ناستيا ، فانتظرت ليزا عودتها نهارا كاملا بنفاد صبر . وجاءت ناستيا فى المساء . وقالت وهى تدخل الغرفة :

– يا ليزافيتا غريغوريفنا ، رايت الشاب بيرستوف . اشبعت بصرى به ، فقد قضينا النهار كله سوية .

– كيف هذا ؟ حدثينى ، حدثينى بالترتيب .

– حسنا ، ذهبنا انا ، وانيسيا يغوروفنا ، ونينيلا ودونكا . . .

– حسنا ، اعرف . وبعد ذلك ؟

– حسنا ، ساقص كل شىء بالترتيب . وصلنا فى وقت الغداء تماما . كانت الغرفة مكتظة بالناس . كان هناك ضيوف من اهالى قريتى كولبينو وزاخاريفو ، وزوجة الوكيل وبناتها ، ومن قرية خلوبينو . . .

– حسنا ! وبيرستوف ؟

– على مهلك . وجلسنا الى المائدة . زوجة الوكيل فى المقعد الاول ، وانا الى جانبها . . . وامتعضت بناتها ، واى شأن لى بهن . . .

– آه ، يا ناستيا ، ما اضجرك فى تفاصيلك التى لا تنتهى !

– وما اضيق صدرك ! حسنا ، وخرجنا من وراء المائدة . . . وقد بقينا حوالى ثلاث ساعات ، وكان الغداء رائعا ؛ والحلويات مهلبية على الطريقة الفرنسية ، زرقاء ، وحمراء ، ومخططة . . . حسنا ، خرجنا من وراء المائدة ، وطلعنا الى الحديقة نلعب الاستغماية ، وهنا ظهر الشاب بيرستوف .

– صحيح ؟ صحيح انه لطيف ؟

– لطيف بشكل مذهل ، ويمكن ان يقال انه بارع الجمال . اهيف القد ، مديد القامة ، متورد الخدين تماما . . .

– احق ؟ بينما كنت اتصور وجهه شاحبا . اذن ؟ كيف بدا لك ؟ حزينا وساهما ؟

– ما هذا الكلام ؟ انا لم ار فتى مفعما بالحيوية مثله منذ ان عرفت الدنيا . دخل فى عقله ان يلعب معنا الاستغماية .

– يلعب معكن الاستغماية ! غير ممكن !

– ممكن جدا ! ثم فكر بشىء آخر . اذا امسك بواحدة فى اللعبة قبّلها .

– انت حرة في كلامك ، يا ناستيا ، ولكني لا اصدق .

– صدقى او لا صدقى ، فانا لا اكذب . خلّصت نفسى منه بالكاد . قضى النهار كله يلعب معنا هكذا .

– وكيف يقولون انه عاشق ، ولا ينظر الى واحدة ؟

– لا اعرف ، ولكنه اطال النظر فىّ كثيرا ، وفى تانيا ايضا ، ابنة الوكيل . . . ، وفى باشا من كولبينو ، وعلىّ اللعنة اذا تاذت واحدة من هذا العابث .

– هذا غريب ! وماذا يقول عنه اهل بيته ؟

– يقولون انه سيد رائع ، كثير الطيبة ، جم المرح . خصلة واحدة فيه غير جميلة ، هو انه يحب مغازلة البنات كثيرا . ولكن ذلك ليس عيبا فى رأيى سيهدأ مع الزمن .

قالت ليزا متحسرة :

– كم اود لو اراه !

– وهل ذلك بحاجة الى عناء ؟ فان توغيلوفو ليست بعيدة عنا ، مسافة ثلاثة فراسخ فقط . ما عليك الا ان تتمشى فى تلك الناحية ، او تركبى فرسا ، وستلتقين به بالتاكيد . انه يخرج كل يوم فى الصباح الباكر ومعه بندقية للصيد .

– لا ، غير لائق . قد يظن اننى الاحقه . ثم ان ابوينا متخاصمان ، ولا يجوز لى ان اتعارف معه . . . ولكن ، اتعرفين ماذا ، يا ناستيا ؟ سأتزيا بزى الفلاحة !

– حقا . ارتدى ثوبا سميكا ، وسرفانا * ، واذهبى الى توغيلوفو غير خائفة ، وانا اتعهد لك بالا يفوتك بصر بيرستوف .

– وانا اجيد التحدث بلهجة اهل هذه الناحية بشكل

* ثوب بلا اردان . (**المترجم** .)

طيب . آه ، يا ناستيا ، يا حبيبتى ناستيا ، ما اروعها من فكرة ! – وآوت ليزا الى مضجعها ، وقد عقدت العزم على ان تنفذ فكرتها المازحة .

فى اليوم التالى بدات بتنفيذ خطتها ، ارسلت مَنْ يشترى لها من السوق قماشا كتانيا سميكا ، وقطعة من منسوج الصين القطنى الازرق ، وازرارا نحاسية ، وفصّلت لنفسها ، بمساعدة ناستيا ، ثوبا وسرفانا ، واجلست كل وصيفاتها لخياطتهما ، وفى المساء كان قد اعد كل شىء . قاست ليزا زيها الجديد ، واعترفت امام المرآة بانها لم تبد قط بهذا المنظر الحسن فيما سلف من الايام . كررت دورها ، وحيّت منحنية انحناءة واطئة وهى سائرة ، وهزت رأسها بعد ذلك عدة مرات ، وتكلمت كلام الفلاحات ، وضحكت ، مغطية وجهها بكمها ، واستحقت رضى ناستيا التام . شىء واحد كان يصعب عليها : حاولت ان تسير فى الفناء حافية الا ان العشب النابت وخز قدميها الرقيقتين ، اما الرمل والحصى الدقيق فكانا يبدوان فوق مستوى احتمالها . وقد ساعدتها ناستيا فى ذلك ايضا : اخذت قياس قدم ليزا ، وهرعت الى الحقل نحو الراعى تروفيم ، واوصت على نعلين من لحاء الشجر على ذلك القياس . وفى اليوم التالى استيقظت ليزا قبل انفلاق الفجر . كان اهل البيت جميعا ما يزالون نياما . وكانت ناستيا تنتظر الراعى وراء البوابة . وارتفع بوق الراعى ، وامتد قطيع القرية قرب دار السيد . وعندما مرّ تروفيم امام ناستيا سلمها النعلين الصغيرين المبرقشين ، وتسلم منها نصف روبل مكافأة . تزيت ليزا بزى الفلاحة بهدوء ، وهمست لناستيا

بتعليماتها بخصوص مس جاكسون ، وخرجت الى المدخل الخلفى للبيت ، وركضت الى الحقل عبر الحديقة المحيطة بالدار .

كان الشروق يلمع فى المشرق ، وبدت صفوف ذهبية من الغيوم تنتظر الشمس ، مثل رجال الحاشية فى انتظار السلطان . وملأت السماء الصافية ، وطراوة الصباح ، والندى ، والنسيم ، وزغردة الطيور قلب ليزا بفرح طفولى . وكانت تبدو ، وهى فى خوف من لقاء شخص يعرفها ، وكأنها تطير وليست تسير . هدأت ليزا من سيرها ، وهى تقترب من الحرش الواقع على حدود اطيان ابيها . هنا كان عليها ان تنتظر الكسى . وكان قلبها يخفق خفقانا شديدا لسبب لا تدريه . الا ان الخوف الذى يصاحب نزواتنا الصبوية هو الجزء الرئيسى من فتنتها . دخلت ليزا فى عتمة الحرش . حيا الفتاةَ حفيف الحرش الخافت المتماوج . هدأ مرحها . وشيئا فشيئا استسلمت لحلم حلو . فكرت . . . ولكن هل من الممكن ان نحدد بدقة ما فكرت به آنسة فى السابعة عشرة ، وهى وحيدة فى الحرش ، فى الساعة السادسة من صباح ربيعى ؟ وهكذا سارت مفكرةً ، فى طريق مظللة من كلا الجانبين باشجار عالية ، واذا بكلب صيد رائع ينبح عليها فجأة . ذعرت ليزا ، وصرخت . وفى تلك اللحظة صدر صوت : *tout beau, Sbogar, ici... وخرج صياد شاب من وراء دغل . قال لها : «لا تخافى يا حسناء ، فكلبتى لا تعض» . كانت ليزا قد استعادت جاشها بعد الخوف ، واستطاعت ان تستغل الظرف فى

* توبو ، سبوغار ، الى هنا . (بالفرنسية .)

الحال . وقالت وهى تتظاهر بشىء من الخوف وشىء من الخجل : «كلا ، يا سيد ، اخاف . انها خبيثة ، وستهجم مرة اخرى» . وخلال ذلك اخذ الكسى (والقارئ قد عرفه) يتفرس بالفلاحة الشابة . وقال لها : «سأرافقك ، اذا كنت خائفة . اتسمحين لى بالسير الى جنبك ؟» اجابت ليزا : «ومن يمنعك ؟ حسب ما تريد ، والطريق عام» — «من اين انت ؟» — «من بريلوتشينو ، انا ابنة الحداد فاسيلى ، خارجة لجمع الفطر (وكانت ليزا تحمل سلة فى حبل) — «وانت ، السيد ؟ من ضيعة توغيلووفو ؟» اجاب الكسى : «بالضبط . انا خادم السيد الشاب» . وكان الكسى يريد ان يساوى بينهما . الا ان ليزا نظرت اليه ، وضحكت . قالت : «انت تكذب . ليست امامك حمقاء . ارى انك السيد نفسه» . — «ولماذا تظنين ذلك ؟» — «من كل شى» — «مثلا ؟» — «ولكن كيف لا يفرق بين السيد وخادمه ؟ اللباس يختلف ، والكلام يختلف وللكلبة اسم اجنبى» . وكانت ليزا من ساعة الى اخرى تعجب الكسى . وكان قد اعتاد ان يتصرف مع القرويات الطيبات ببساطة . فهمَّ معانقتها ؛ الا ان ليزا صدَّت عنه ، واتخذت فجأة هيئة صارمة باردة ، حتى ان الكسى ، رغم ان ذلك اضحكه ، احجم عن مواصلة تطاولاته . قالت ليزا بوقار : «اذا كنت تريد ان نكون صديقين فى المستقبل ، فلا تخرج عن الحدود ، ارجوك» . سألها الكسى مقهقها : «ومن علمك هذه الحكمة ؟ اهى ناستيا التى اعرفها ، وصيفة سيدتك ؟ بهذه الطرق ينتشر التهذيب اذن !» شعرت ليزا بأنها خرجت عن دورها ، فاصلحت امرها فى الحال . قالت : «وماذا

تظن ؟ اتحسب اننى لم اكن فى بيت سيد قط ؟ اكيد اننى سمعت ورايت كل شىء . على كل حال ، الكلام معك يمنعنى من جمع الفطر . فاذهب ، ايها السيد ، فى جهة ، ولاذهب انا فى جهة اخرى . اذن ، مع السلامة . . .» همت ليزا بالانصراف ، فامسكها الكسى من يدها : «ما اسمك ، يا روحى ؟» اجابت ليزا محاولة ان تنزع اصابعها من يد الكسى : «اكولينا . اطلقنى ، ايها السيد ، فقد آن لى ان اعود الى البيت» . — «حسنا ، يا صاحبتى اكولينا ، سازور اباك فاسيلى الحداد ، بالتأكيد» . فاعترضت ليزا : «كيف هذا ؟ من اجل المسيح لا تأت . اذا عرف اهلى اننى تكلمت مع سيد فى الحرش لوحدى ، فستصيبنى اذية . سيضربنى ابى فاسيلى الحداد حتى الموت» . — «ولكننى اود ان نلتقى ثانية» — «سآتى الى هنا ، مرة اخرى ، فى وقت ما ، لاجمع الفطر» . — «متى ؟» — «غدا ، اذا اردت» . — «يا عزيزتى اكولينا ، وددت لو اشبعك قبلا ، ولكننى لا اجرؤ . اذن ، غدا ، فى مثل هذا الوقت ، اليس كذلك ؟» — «نعم ، نعم» . — «الا تخدعيننى ؟» — «لا اخدعك» . — «اقسم لى» . — «اقسم بالجمعة المقدسة» .

افترق الشابان . خرجت ليزا من الغابة ، واجتازت الحقل ، وانسلت الى البستان ، ثم اندفعت الى مزرعة الدواجن ، حيث كانت ناستيا فى انتظارها . وهناك استبدلت ملابسها ، مجيبة بذهول عن اسئلة كاتمة اسرارها ، ودخلت غرفة الجلوس . كانت المائدة مصفوفة ، وطعام الفطور معدا ، ومس جاكسون وقد

تبودرت على عادتها ، وادخلت جسمها فى مشد ، تقطع رقائق من الخبز . امتدحها ابوها على نزهتها الباكرة قائلا : «ليس هناك ما يناسب الصحة مثل الاستيقاظ فى الفجر» . وبعد ذلك ضرب بعض الامثلة على طول العمر مستقاة من المجلات الانجلزية ، قائلا ان جميع الذين يعيشون اكثر من مائة عام لم يكونوا يتعاطون الفودكا ، وكانوا يستيقظون عند الفجر شتاء وصيفا . ولم تصغ ليزا اليه . كانت تعيد فى ذهنها جميع ملابسات اللقاء الصباحى ، كل حديث اكولينا مع الصياد الشاب . واخذ ضميرها يعذبها . كان عبثا ان تعترض على نفسها بنفسها ، وان لا يخرج حديثهما عن حدود اللياقة ، وان يعجز عبثها عن ان يأتى باية نتيجة . كان ضميرها يتذمر اشد من عقلها . وكان الوعد الذى اعطته ليوم غد اكثر ما كان يقلقها . فعزمت كليا على ان تنكث بقسمها السامى . ولكن اذا خاب الكسى فى انتظارها ، فقد يذهب الى القرية ليبحث عن ابنة الحداد فاسيلى ، اكولينا الحقيقية ، الفتاة البدينة المجدرة ، وبهذه الطريقة يكتشف لعبتها النزقة . وفزعت ليزا من هذه الفكرة ، وقررت فى الصباح التالى ان تظهر ثانية فى الحرش ممثلة دور اكولينا .

كان الكسى ، من جانبه ، مفتونا ، فقد قضى النهار كله يفكر بصاحبته الجديدة ؛ وفى الليل ، واثناء النوم لاحقت خياله صورة الحسناء السمراء . وما كاد الفجر ينفلق حتى كان مرتديا ثيابه . ولم يصرف وقتا لتعبئة بندقيته ، وخرج الى الحقل مع كلبته الوفية سبوغار ، وجرى الى مكان اللقاء الموعود . انقضى نحو نصف ساعة

فى انتظار لا طاقة له به ؛ وفى آخر الامر لمح السرفان الازرق يلمح بين مجاميع الشجيرات ، فانطلق للقاء اكولينا الحبيبة . كانت تبتسم لغبطة امتنانه ؛ الا ان الكسى لمح اثار الجزع والقلق على وجهها فورا واراد ان يعرف سبب ذلك . اعترفت ليزا بان تصرفها بدا لها طائشا ، وانها ندمت عليه ، وانها فى هذه المرة لم ترد ان تنكث بوعدها ، ولكن هذا سيكون اللقاء الاخير ، وانها ترجوه ان يقطع تعارفهما الذى لن يؤدى الى شىء طيب . وطبيعى ان هذا الكلام قيل باللهجة الفلاحية ؛ الا ان الافكار والمشاعر غير المألوفة فى فتاة بسيطة ابهرت الكسى. فاستعمل كل ذلاقة لسانه ليصرف اكولينا عن نيتها ، واكد لها براءة مقاصده ؛ ووعدها بانه لن يجترح اى سبب لندمها ، وانه سيطيعها فى كل شىء ، وتوسل اليها ان لا تحرمه من متعة واحدة ، وهى ان يلتقى بها على انفراد ، على الاقل بين يوم ويوم ، او مرتين فى الاسبوع . كان يتكلم بلسان عاطفة صادقة ، وفى تلك اللحظة كان عاشقا حقا . اصغت ليزا اليه صامتة . واخيرا قالت : «عِدْنى ، بان لا تبحث عنى فى القرية ابدا ، او تستفسر عنى . عدنى بان لا تبحث عن مواعيد معى غير التى اعينها انا» . اقسم الكسى لها بالجمعة المقدسة ، الا انها اوقفته بابتسامة وقالت : «لا اريد ان تقسم ، يكفينى وعدا منك فقط» . وبعد ذلك اخذا يتحدثان بود ، وهما يتمشيان سوية فى الغابة ، حتى قالت له ليزا ان آوان عودتها قد حان . وافترقا ، ولما بقى الكسى وحده ، لم يستطع ان يفهم كيف استطاعت فتاة ريفية بسيطة بعد لقائين ان تسيطر عليه

هذه السيطرة الحقيقية . كان للقاءاته مع اكولينا سحر الجدة بالنسبة له ، ورغم ان تعاليم الفلاحة الغريبة بدت له ثقيلة ، الا ان فكرة النكوث بكلمته لم تخطر على باله ، بله غير ذلك . ذلك لان الكسى ، بالرغم من خاتمه المسحور ، والتراسل السرى ، وخيبة الامل الكئيبة ، كان فتى طيبا متوقدا ، ذا قلب صاف ، قادر على الاحساس بمتعة البراءة .

لو استجبت لرغبتى وحدها ، لوصفت بالتاكيد ، وبكل التفاصيل ، لقاءات الشابين ، وميلهما المتبادل المتعاظم ، وروح الثقة ، والمشاغل ، والاحاديث ، ولكننى اعرف ان الجمهور الاعظم من قرائى لا يشاركنى هذه اللذة . فان هذه التفاصيل ، بشكل عام ، لا بد ان تبدو مغرقة فى العاطفية ، ولهذا اغفلها ، واقول باختصار انه لم يمض شهران حتى كان فتاى الكسى متيما فى الحب الى حد الوله ، ولم تكن ليزا اقل انغمارا منه ، ولو كانت اكثر صمتا . وكان كلاهما سعيدا بالحاضر ، وقليل التفكير فى المستقبل .

وكانت فكرة الرباط الابدى كثيرا ما تخطر على باليهما . ولكن احدهما لم يتحدث بها الى الآخر قط . والسبب واضح : وهو ان الكسى مهما يكن تعلقه بحبيبته اكولينا ، كان يتذكر دائما المسافة القائمة بينه وبين الفلاحة البائسة ؛ بينما كانت ليزا ترى اية كراهية قائمة بين والديهما ، ولم تستطع ان تأمل فى مصالحة متبادلة . وفضلا عن ذلك ، فان انفتها قد اضرمها بالخفاء امل رومانطيقى مبهم فى ان ترى ، فى آخر الامر ، صاحب ضيعة توغيلوفو مرتميا على قدمى

ابنة حداد بريلوتشينو . واذا بحدث مهم كاد يغير العلائق فيما بينهما .

فى صباح بارد صاف (من تلك الصباحات التى بها خريفنا الروسى) خرج ايفان بتروفيتش بيرستوف ليتنزه على فرسه ، بعد ان اخذ معه للحيطة ثلاثة ازواج من كلاب الصيد ، وسائسا ، وبعض الغلمان الخدم حاملين الخشخشات . وفى نفس الوقت كان غريغورى ايفانوفيتش مورومسكى ، وقد اغرته جودة الطقس ، قد امر بأن تُسرج فرسه المقصوصة الذيل ، وانطلق يعدو قرب ممتلكاته المتنجلزة . ورأى لدى اقترابه من الغابة جاره جالسا بأنفةٍ على صهوة حصانه فى سترة طويلة مؤطرة بفراء ثعلب ، ينظر ارنبا كان الغلمان يخرجونه من الدغل بالزعيق والخشخشة . لو كان غريغورى ايفانوفيتش قادرا على ان يتنبأ بهذا اللقاء ، لانعطف فى ناحية ، بالطبع ؛ الا انه وقع على بيرستوف مصادفة ، ووجد نفسه فجأة على بُعْد اطلاقة مسدس منه . فلا بدَّ مما ليس منه بد . تقدم مورومسكى ، كرجل اوروبى مثقف ، نحو خصمه ، وحياه باحترام . وردَّ بيرستوف التحية بحماس دب مقيَّد ينحنى **للسادة** حسب امر مروضه . وفى تلك اللحظة قفز الارنب خارجا من الغابة ، وركض فى الحقل . زعق بيرستوف والسائس باقصى ما تستطيعه حنجرتاهما ، واطلقا الكلاب ، وانطلقا فى اثره لا يلويان على شيء . فزعت فرس مورومسكى التى لم تكن قد خرجت للصيد من قبل وانطلقت تعدو . ارخى مورومسكى العنان لها ، وكان يعتبر نفسه فارسا ممتازا ، ورضى فى دخيلة نفسه

بهذه المصادفة ، التى صرفته عن رجل يكره الحديث معه . الا ان الفرس حين وصلت الى وهدة لم ترها من قبل ، تنحت جانبا فجأة ، ففقد مورومسكى مكانه من السرج ، وهوى ثقيلا جدا على ارض متجمدة ، واستلقى لاعنا فرسه المقصوصة الذيل ، التى توقفت كمن افاق على نفسه ما ان احست بانها بدون راكبها . خبَّ ايفان بتروفيتش على فرسه نحوه سائلا اياه هل اصيب بأذى . وخلال ذلك قاد السائس الفرس المذنبة ماسكا اياها من لجامها . وساعد مورومسكى على امتطاء صهوتها . بينما دعاه بيرستوف اليه : ولم يستطع مورومسكى الرفض ، لانه احس بانه مدين ، وهكذا عاد بيرستوف الى بيته مظفرا ، بعد ان اصطاد ارنبا ، وقاد خصمه جريحا ، ويكاد يكون اسير حرب .

تحدث الجاران بود كثير ، وهما يتناولان الفطور . طلب مورومسكى من بيرستوف عربة صغيرة ، لانه اعترف بانه ، لما لحقه من اذى ، غير قادر على الوصول الى بيته راكبا فرسه . رافقه بيرستوف حتى مدخل البيت ، اما مورومسكى فلم يغادر الا بعد ان اخذ منه عهدا بان يأتى فى اليوم التالى (مع الكسى ايفانوفيتش) ليتناول غداء وديا فى بريلوتشينو . وعلى هذا النحو كان العداء القديم والمتأصل على وشك ان يزول بسبب ذعر الفرس المقصوصة الذيل .

هرعت ليزا للقاء ابيها غريغورى ايفانوفيتش وقالت مندهشة : «ما هذا ، يا بابا ؟ لماذا تعرج ؟ اين فرسك ؟ ولمن هذه العربة ؟» اجابها غريغورى ايفانوفيتش :

«انك لن تحزنى ، my dear *» ، وروى لها ما حدث . لم تصدق ليزا اذنيها . ولم يدعها غريغورى ايفانوفيتش تفوق على نفسها معلنا ان بيرستوف الاب وابنه سيتغديان عنده غدا . قالت ليزا شاحبة اللون : «ما الذى تقوله ! بيرستوف الاب وبيرستوف الابن ! غدا سيتغديان عندنا ! لا ، لا يا ابى ، ليكن ما تريد ولكنى لن اظهر مهما يكن من شىء» . فاعترض الاب قائلا : «هل جننت ؟ متى اصبحت بهذا الحياء ؟ ام تضمرين عداوة موروثة ، مثل بطلة روائية ؟ كفى ، لا تتحامقى . . .» — «لا ، يا بابا ، لن اظهرامام بيرستوف وابنه لو اعطيت كنوز الارض» . وهزّ غريغورى ايفانوفيتش كتفيه ، وكف عن مجادلتها ، لانه كان يعرف ان التصادم معها لا ياتى بشىء ، وذهب ليستريح من نزهته المذكورة .

ذهبت اليزافيتا غريغوريفنا الى غرفتها ، واستدعت ناستيا . وتناقشت الاثنتان طويلا فى زيارة الغد . ماذا سيظن الكسى اذا عرف فى شخص الآنسة النبيلة المؤدبة صاحبته اكولينا ؟ وماذا سيكون رايه فى سلوكها ، واصولها وحجاها ؟ ومن جهة اخرى كانت ليزا تود كثيرا لو ترى الاثر الذى سيتركه فيه هذا اللقاء غير المتوقع ابدا . . . وفجاة ومضت فكرة فى ذهنها افضت بها الى ناستيا فى الحال ، وسرت الفتاتان بها كلقية ، ورأتا ان تنفذ حتما .

وفى اليوم التالى سأل غريغورى ايفانوفيتش ابنته على مائدة الفطور اما تزال تنوى الاختفاء عن بيرستوف الاب وابنه ؟ اجابت ليزا : «بابا ، ساستقبلهما ، اذا

* يا عزيزتى . (بالانجليزية .)

كان هذا يروق لك ، ولكن على شرط هو انك لن توبخنى مهما اتخذت من زى ، ومهما اتيت من عمل ، ولن تصدر منك اية امارة تنم عن دهشة او استياء» . قال غريغورى ايفانوفيتش ضاحكا : «مرة اخرى نزوات ! حسنا ، حسنا ، موافق . افعلى ما تشائين ، يا مدللتى السوداء العينين» . وبهذه الكلمات قبلها من جبينها ، وانصرفت ليزا لتستعد .

فى تمام الساعة الثانية دخلت الفناء عربة من صنع معمل بيرستوف تجرها ستة خيول ، وسارت قرب دائرة العشب الشديد الخضرة . وصعد بيرستوف الكبير الى مدخل البيت يساعده خادمان ببزتيهما الرسميتين من خدم مورومسكى . وفى اثره وصل ابنه ممتطيا صهوة جواد ، ودخل معه الى غرفة الطعام ، حيث كانت المائدة معدة . استقبل مورومسكى جاريه على احسن ما تكن الرقة ، واقترح عليهما تفقد الحديقة ومأوى الدواجن قبل الغداء ، وقادهما عبر ممرات مكنوسة بعناية ، ومفروشة بالرمل . اسف بيرستوف فى قرارة نفسه على بذل الجهد والوقت فى نزوات غير مفيدة البتة ، الا انه التزم الصمت تأدبا . ولم يشاطر ابنه استياء ابيه المقتصد ، ولا اعجابه بالمتنجلز المغرور . وانتظر بنفاد صبر ظهور ابنة صاحب الدار ، التى سمع عنها الكثير ، رغم ان قلبه ، كما نعرف ، كان مشغولا ، الا ان اى حسناء شابة كانت تملك الحق فى مداعبة خياله .

عادوا الى غرفة الطعام ، وجلسوا ثلاثتهم . تذكر العجوزان الزمن الخالى ، ونوادر من زمن خدمتهما فى الجيش ، بينما راح الكسى يفكر فى الدور الذى سيلعبه

في حضور ليزا . وقرر ان السهوم البارد ، في كـــل الاحوال ، احشم المواقف ، واستعد لذلك . فتُتح الباب ، فادار رأسه بقدر من عدم الاكتراث والتجرد الانوف كافٍ ، لا محالة ، ليثير قلب اى مغناج شديدة الغنج . ومن المؤسف ان الداخلة لم تكن ليزا ، بل مس جاكسون مبودرة مضغوطة بالمشدات ، مطرقة العينين ، ومنحنية قليلا تحية للضيوف ، وضاعت حركة الكسى العسكرية الرائعة هباء . وما كاد يستعيد شتات قواه حتى فتح الباب ثانية ، ودخلت ليزا في هذه المرة . نهض الجميع ؛ واخذ ابوها يقدم ضيفيه ، ولكنه توقف فجأة ، وعض شفتيه بعجالـــة . كانت ليزا ، ليزاه السمراء ، مبودرة الى اذنيها ، مكحلة باكثف مما تتكحل به مس جاكسون نفسها ؛ ومن شعرها الاصطناعي الذى كان اشرق لونا تناثرت خصلات مثل باروكة لويس الرابع عشر ، وبرز الردنان à l'imbécile * ، مثل قالب التنورة عند Madame de Pompadour ** ؛ وقد شدّ خصرها شدا قويا فكان مثل حرف «X» ، وكانت جميع مجوهرات امها التى لم تودع بعد في دائرة الرهونات تتلألأ في اصابعها ، وعلى نحرها ، واذنيها . لم يستطع الكسى ان يتعرف على صاحبته اكولينا في هذه الآنسة النبيلة المضحكة اللامعة . انحنى ابوه على يدها الصغيرة ، فحذا حذوَه بأسى . وحين مس اصابعها الشاحبة خيل اليه انها ارتجفت . وخلال ذلك استطاع ان يلاحظ قدمها

* بطريقة حمقاء . (**بالفرنسية** .)

** السيدة دى بومبادور ، محبوبة الملك لويس الخامس عشر . (**الناشر** .)

الصغيرة ، المعروضة عن قصد ، والمحتذية حذاء يكشف عن منتهى الغنج . وجعله هذا يتسامح بعض الشيء عن سائر زيها . اما البودرة والكحل فانـــه لصفاء قلبه ، والحق يقال ، لم يلحظهما في النظرة الاولى ، وبعد ذلك لم تثر انتباهه . تذكر غريغورى ايفانوفيتش وعده ، فحاول الا يظهر دهشته ؛ الا ان عبث ابنته بدا له مسليا جدا فما كاد يستطيع ضبط نفسه . ولم يكن للانجليزية المتزمتة مزاج للضحك . فقد حدست ان الكحل والبودرة مسروقان من صوانها ، فشعت حمرة الاسى القرمزية من خلال بياض وجهها المصنوع . القت نظرات لاهبة على الطائشة الشابة ، التى تظاهرت بانها لا تلاحظها ، مؤجلة كل ايضاح الى وقت آخر .

جلسوا الى المائدة . وتابع الكسى تمثيله دور الساهم الغارق في افكاره . وتصنعت ليزا ، وتكلمت من خلال اسنانها ، بصوت مترنم ، وبالفرنسية فقط . وكان ابوها يطيل النظر اليها كثيرا ، غير فاهم بغيتها ، ولكن يحسب ذلك كله مسليا جدا . واغتاظ الانجليزيـــة واعتصمت بالصمت . وكان ايفان بتروفيتش وحده مرتاحا ، وكأنه في بيته : اكل ما يشبع شخصين ، وشرب كفايتَه ، وضحك على ضحكه ، وبمرور الوقت صار يتحدث بود متزايد ويقهقه .

وفي نهاية الامر نهضوا من وراء المائدة ، وانصرف الضيفان . واطلق غريغورى ايفانوفيتش العنان للضحك والاسئلة . سأل ليزا : «لماذا فكرت في مخابثتهما ؟ أتعرفين ؟ كانت البودرة ملائمة لك حقا ، لا اريد ان اتدخل في اسرار الزينة النسائية ، ولكن لو كنت في مكانك لمضيت

فى البودرة ، وطبيعي ليس بذلك الافراط ، بل اخف» .
وكانت ليزا مفتونة بنجاح لعبتها . عانقت اباها ، ووعدت بان تفكر فى نصيحته ، وركضت لتسترضي مس جاكسون التي وافقت بعد لاى ان تفتح بابهـــا ، وتصغى الى تبريرها . انها خجلت ان تظهر امام اناس غرباء سمراء البشرة ؛ ولم تجرأ على ان تطلب . . . ولكنها كانت واثقـــة من ان مس جاكسون الطيبـــة اللطيفـــة ستسامحها . . . وهكذا ، وعلى هذا المنوال . ولما تاكدت مس جاكسون من ان ليزا لم تفكر فى الضحك منها ، هدات ، وقبلت ليزا ، واهدت لها علبة من البودرة الانجليزية كامارة على المصالحة ، فتقبلتها ليزا مع ابداء الشكر الصادق .

والقارئ يحزر ان ليزا لم تتوان فى ان تظهر فى صباح اليوم التالي فى حرش اللقاء . وسألت الكسى على الفور : «كنت ، يا سيد ، عند اسيادنا يوم امس ؟ ما رايك بالآنسة سيدتنا ؟» اجاب الكسى انه لم يلحظها . فردت ليزا : «مؤسف !» فسأل الكسى : «ولماذا ؟» — «لانني اردت ان اسألك احق ما يقول الناس . . .» — «ماذا يقولون ؟» — «احق ما يقولون انني اشبه الآنسة ابنة سيدنا ؟» — «هراء ! انها بالنسبة لك اقبح القبح» — «آه ، ايها السيد ، من الخطيئة ان تقول ذلـــك . ان آنستنا بيضاء عصرية ! فكيف اقارن بها !» اقسم الكسى لها بانها احسن جميع الاوانس البيضاوات ، ولكي يطمئنها تماما راح يصف سيدتها باوصاف مضحكـــة جعلت ليزا تغرق فى الضحك من كل قلبها . وقالت متنهدة : «ومع ذلك وان كانت الآنسة مضحكة ، فانا

بالنسبة لها بلهاء امية» . فقال الكسى : «آه ، وجدت ما يحزن عليه ! اذا كنت تريدين علمتك القراءة والكتابة فى الحال» . قالت ليزا : «اذن لنحاول» — «تفضلي ، يا عزيزتي ، عسى ان نبدأ من الآن» . وجلسا . واخرج الكسى قلما من جيبه ،ودفتر جيب ، وحفظت اكولينا الابجدية بسرعة مذهلة . واعجب الكسى اعجابا لا نهاية له بسرعة ادراكها . وفى اليوم التالي ارادت ان تكتب ايضا . وبدأ القلم لا يطاوعها ، ولكن بعد بضع دقائق اخذت ترسم الحروف الابجدية على قدر كاف من الصحة . قال الكسى : «اية اعجوبة ! تدريسنا يسير اسرع مما يسير على نظام لانكستر» . وفى واقع الامر قرأت اكولينا قصة «ناتاليا ، ابنة البيار» * مقطعة الكلمات الى مقاطع ، مبدية بين الحين والآخر ملاحظات اذهلت الكسى عن جد ، وكتبت صفحة كاملة من الحكم المأثورة المأخوذة من هذه القصة .

ومضى اسبوع ، وجرى بينهما تراسل . اقيمت دائرة بريد فى تجويف شجرة بلوط عجوز . وقامت ناستيا سرا بواجب ساعي البريد . وكان الكسى يحمل الى هناك الرسائل المكتوبة بخط كبير ، ويجد كلمات محبوبته غير المستقيمة المكتوبة على ورق ازرق بسيط . والظاهر ان اكولينا تعودت اكثر على تقويم العبارة ، وكان عقلها يتطور ويتهذب بشكل ملحوظ .

وخلال ذلك اخذت الصحبـــة الجديدة بين ايفان

---

* البيار — فئة اجتماعية عليا فى روسيـــا القديمة . (المترجم .)

بتروفيتش بيرستوف وغريغورى ايفانوفيتش مورومسكى تقوى شيئا فشيئا ، وسرعان ما تحولت الى صداقة ، وفق هذه الملابسات : كثيرا ما فكر مورومسكى بأنه بوفاة ايفان بتروفيتش ستنتقل ضيعته كلها الى يد الكسى ايفانوفيتش ؛ وعلى هذا النحو يصبح الكسى ايفانوفيتش من اغنى اصحاب الاراضى فى تلك الولاية ، ثم ليس هناك سبب يمنع الكسى من الزواج بليزا . اما بيرستوف العجوز فعلى الرغم من اقراره بوجود بعض الطيش فى جاره (او الحماقة الانجليزية ، على حد تعبيره) ، فانه لم ينكر فيه بعض الخصال الحميدة ، ومن ذلك حسن تدبير نادر . كان غريغورى ايفانوفيتش مورومسكى يمت بصلة قربى قريبة للكونت برونسكى ، الرجل البارز والقوى البأس . وكان فى مقدور الكونت ان يكون مفيدا جدا لالكسى ، اما مورومسكى فمن المحتمل (وهذا ما كان يفكر به بيرستوف) ان يسر بان يزوج ابنته بطريقة نافعة . كان كلا العجوزين يفكر بذلك على انفراد ، حتى جاء وقت ، فى نهاية الامر ، تكاشفا فيه ، وتعانقا ، ووعد احدهما الآخر بان يعالج الامر معالجة مدروسة ، ثم اخذ كل واحد يسعى من جهته . وكانت امام مورومسكى صعوبة ، هى ان يقنع ابنته بتسى ان تتعرف عن قرب بالكسى الذى لم تره منذ ذلك الغداء المشهود . وظهر ان احدهما لا يروق كثيرا للآخر ؛ او على اقل تقدير لم يعد الكسى الى بريلوتشينو ، بينما لزمت ليزا غرفتها كلما تلطف ايفان بيتروفيتش بزيارتهما . وفكر غريغورى ايفانوفيتش ؛ ولكن اذا كان الكسى سيدأب على زيارتنا كل يوم ، فان بيتسى ستقع فى غرامه لا

محالة . . فان ذلك من طبيعة الاشياء . والزمن يسوى كل شيء .

كان ايفان بتروفيتش اقل قلقا من نجاح مقاصدهما . فى ذلك المساء استدعى ابنه الى مكتبه ، واشعل غليونه ، وقال بعد برهة من الصمت : «لماذا كففت منذ زمان عن التحدث عن الخدمة العسكرية ، يا الكسى ؟ ام لم تعد بزة الفارس تفتنك ؟ . . » اجاب الكسى باحترام : «لا ، يا ابى ، ارى انك لا تريد ان ادخل فى سلك الفرسان ، وواجبى ان اطيعك» . ردّ ايفان بتروفيتش : «حسنا ، انا ارى انك ابن مطيع ، وهذا ما يسليني : ولكنى انا ايضا لا اريد ان اقف دون ارادتك ، ولا اقسرك على الدخول . . . الآن . . . فى الخدمة المدنية ؛ ولكن انوى فى الوقت الحاضر تزويجك» .

سأل الكسى مندهشا :

– بمن ، يا ابى ؟

اجاب ايفان بتروفيتش :

– بليزافيتا غريغوريفنا مورومسكايا . عروسة ممتازة ، اليس كذلك ؟

– يا ابى ، انا لا افكر بالزواج بعد .

– انت لا تفكر . ولكننى فكرت لك واطلت التفكير .

– هذا شأنك . مع ان ليزا مورومسكايا لا تعجبنى البتة .

– ستعجبك فيما بعد . اصبر تحب .

– انا لا اشعر باننى قادر على ان اهبها سعادتها .

– سعادتها ليست من شأنك . ماذا ؟ اذن ، على هذا النحو تحترم ارادة الوالد ؟ طيب !

– حسب ما تشاء ، ولكن انا لا اريد ان اتزوج ، ولن اتزوج .

– ستتزوج والا فستحل عليك لعنتى ، اما الضيعة ، فسأبيعها ، والله ، وابذر النقود ، ولا يبقى لـك شروى نقير ! سامهلك ثلاثة ايام للتفكير ، وحتى ذلك الحين لا تجرأ على ان تقع امام بصرى .

كان الكسى يعرف ان اباه اذا عزم على شىء فلن تستطيع ان تقلعه من رأسه على حد تعبير تاراس سكوتينين . ولكن الكسى فى طباعه كان شبيها بابيه . ومن الصعب جدا ان تثنيه عن مرامه . اوى الى غرفته ، وراح يفكر فى حدود سلطـة الوالد ، وفى ليزافيتـا غريغوريفنا ، وفى وعد ابيه علنا بان يجعله معدما ، واخيرا فى اكولينا . ولاول مرة راى بوضوح انه متيم بها ؛ وخطرت فى باله الفكرة الروائية فى الزواج بفلاحة ، والعيش بكدحه ، وكلما اطال التفكير فى هذا المسلك الحازم راى فيه المزيد من التبصير . وكانت اللقاءات فى الحرش قـد انقطعت بعض الوقت بسبب الطقس الممطر . كتب لاكولينا رسالة باوضح خط ، وبألهب عبارة يعلمها بالدمار الذى يهددهما ، ويعرض لها يده فى الوقت ذاته . وقد حمل الرسالة فورا الى نقطـة بريدهما فى شجرة البلوط ، واوى الى مضجعه راضيا عن نفسه كثيرا .

وفى بكرة الصباح التالى ذهب الكسى الى مورومسكى ثابتا على نيته ، ليكاشفه بصراحة . وامل ان يثير

نخوته ، ويستميله الى جانبه . اوقف حصانه امام مدخل قصر بريلوتشينو ، وسأل : «هـل غريغورى ايفانوفيتش فى البيت ؟» اجاب الخادم : «لا ، لقد خرج غريغورى ايفانوفيتش منذ الصباح» . وفكر الكسى : «يا للاسف !» وسأل : «على كل حال ، هل ليزافيتـا غريغوريفنا موجودة ؟» – «نعم» . وقفز الكسى مـن جواده ، وسلم المقود فى يد الخادم ، ودخل دون تبليغ سابق .

وفكر ، وهو يقترب من غرفة الجلوس : «سيتقرر كل شىء . وسيكاشفها» . ودخل . . . وتوقف ! كانت ليزا . . . لا ، ليست ليزا بل اكولينا ، السمراء الحبيبة اكولينا ، تجلس امام النافذة مرتدية ثوبا صباحيا ابيض وليس سرفانا ، تطالع رسالته . كانت مستغرقة فى القراءة حتى انها لم تسمع حركته وهو يدخل . ولم يستطع الكسى ان يكتم اهة الفرح . جفلت ليزا ، ورفعت راسها ، وصرخت ، وهمت بالاختفاء . اندفع الكسى يمنعها . «اكولينا ، اكولينا ! . .» حاولت ليزا ان تحرر نفسها منه . . . كررت متنحية :

*« Mais laissez — moi donc, monsieur ;
mais êtes — vous fou ? »

وكرر هو مقبلا يدها : «اكولينا ، يا صديقتى ، اكولينا» . ولم تدر مس جاكسون التى شهدت هذا المنظر ماذا

---

* اتركنى ايها السيد ، هل جننت ؟ (بالفرنسية .)

يحدث . وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخل غريغورى ايفانوفيتش قال :

– اها ! يبدو ان قضيتكما منتهية تماما . . .

والقراء سيعفوننى عن امر زائد هو وصف حـــل العقدة .

نهاية قصص بيلكين

١٨٣٠

دوبروفسكى

الجزء الاول

الفصل الاول

منذ عدة اعوام خلت عاش النبيل الروسى العريق كيريلا بتروفيتش ترويكورف فى احدى ضيعه . وقد هيأ له ثراؤه واصله العريق وعلاقاته مركزا مرموقا فى المحافظات التى ضمت املاكه . وكان جيرانه على اتـــم الاستعداد لاشباع اقل نزوة من نزواته . اما موظفـو المحافظة فكانوا يرتعدون لدى سماع اسمه . ولقد تقبل كيريلا بتروفيتش علامات الخنوع هذه كجزية واجبة . وكانت داره تغص دائما بالضيوف المستعدين لتملق لهوه الارستقراطى ، ومشاركته مرحه الصاخب ، بل والعاصف احيانـــا . ولم يكن احد ليجرؤ على رفض دعواته ، او التخلف عن الحضور الى قرية بكروفسكويه فى ايام معينة لتقديم فروض الولاء . وفى حياة كيريلا بتروفيتش المنزلية تجلت كل رذائل الانسان الجاهل . لقد كان مدللا من قبل كل ما يحيط به فتعود ان يطلق العنان لنزوات طبعه العاصف وللمكائد التى يديرها عقله المحدود . وبالرغم من امكانياته البدنية الخارقة ، فقد كان يعانى من التخمة مرتين فى الاسبوع ويسكر كل مساء . وفى احد اجنحة داره كانت تقطن ١٦ وصيفة ،

يعملن فى اشغال التطريز ، ذلك العمل المميز لجنسهن . وكانت النوافذ فى الجناح تحجبها شبكة من العوارض الخشبية ، والابواب تقفل بالكوالين التى يحتفظ كيريلا بتروفيتش بمفاتيحها . وفى ساعات معينـــة كانت السجينات الشابات يخرجن الى الحديقة للتريّض تحت رقابة امرأتين عجوزين . ومن وقت لآخر كان كيريلا بتروفيتش يزوج بعضهن ، ثم تحل وصيفات جديدات محل من تزوجن .

اما معاملته للفلاحين والخدم فكانت صارمة وتحكمها أهواؤه . ومع ذلـــك فقد كانوا يكنّون له الولاء ، ويتباهون بثراء ومجد سيدهم ويتطاولون كثيرا على جيرانهم معتمدين على حمايته القوية .

كان العمل الدائم لترويكورف هو الطواف باملاكه الواسعة ، واقامة الولائم المستمرة ، وتدبير المكائـد كل يوم ، والتى عادة ما يقع ضحيتها احد المعارف الجدد ، وان كان اصحابه القدامى لا يتقون شرها دائما ، باستثناء اندريـــه جافريلوفيتش دوبروفسكى فقط . وكان ملازم الحرس المتقاعد دوبروفسكى هذا اقرب جار اليه ، ويملك سبعين فلاحا . ومع ان ترويكورف كان متعجرفا فى علاقاته مع ارفع الناس مقاما الا انه كان يحترم دوبروفسكى رغم ثروته المتواضعة . لقد كانا فى وقت مـــا رفيقين فى السلاح ، وعرف ترويكورف بتجربته مدى ضيق صدره وطبعه الحازم . ثم فرقتهما الظروف لمدة طويلة . واضطر دوبروفسكى بثروته المنهارة الى الاستقالة والاقامـــة فى ضيعته الوحيدة الباقية . وعندما علم كيريلا بتروفيتش بذلك ، عرض

7—2575

عليه حمايته ، لكن دوبروفسكى شكره وظل فقيرا ومستقلا . وبعد عدة سنوات قدم ترويكورف الى ضيعته بعد ان اصبح جنرالا ، فالتقيا ، وفرح كل منهما بلقيا الآخر . ومن ساعتها وهما يتقابلان كل يوم ، وصار ترويكورف ، الذى لم يشرف احدا بزيارتـــه يتردد ببساطة على دار صديقه القديم المتواضعة . ولما كانا من عمر واحد ، وابناء طبقة واحدة وتربية متشابهة ، فقد التقيا الى حد ما من حيث الطبع والهوايات . بل لقد كان مصيرهما ايضاً متشابهاً من بعض النواحى . فقد تزوج كلاهما عن حب ، وترمل كلاهما بسرعة ، وتبقى لكل منهمـــا مولود ، فتربـــى ابن دوبروفسكى فى بطرسبرج ، وشبت ابنة كيريلا بتروفيتش فى منزل ابيها . وكثيرا ما كان يقول لدوبروفسكى : «اسمع يا اخى اندريه جافريلوفيتش . اذا ما شبّ ولدك فتى طيبا ، فسأزوجه من ماشا ، فالفقير ليس عيبا» . ولكن اندريه جافريلوفيتش كان يهز رأسه ويردد عادة : «كلا يا كيريلا بتروفيتش ، ان ابنى فولوديا لا يصلح زوجا لابنتك ماريا كيريلوفنا ، فمن الافضل لنبيل فقير مثله ان يتزوج من نبيلة فقيرة ويصبح سيد الدار ، على ان يكون خوليا لامرأة مدللة» .

كان الجميـــع يغبطون هذا الوفاق السائد بين ترويكورف المتغطرس وجاره الفقير ، ويدهشون لجرأة الاخير عندما كان يقول رأيه بصراحة على مائدة كيريلا بتروفيتش دون ان يعنيه ان كان يتعارض مع رأى رب الدار ام لا . وقد حاول البعض ان يقلدوه ويخرجوا عن حدود الاذعان الواجب ، ولكن كيريلا بتروفيتش ارعبهم

لدرجة انه وأد فيهم الرغبة فى مثل هذه المحاولات ، وظل دوبروفسكى وحده خارج حدود القانون العام . غير ان حدثا عارضا افسد كل شيء وبدله .

فذات مرة فى بداية الخريف ، استعد كيريــــلا بتروفيتش للخروج الى الصيد . وصدرت الاوامر مسبقا الى مدربى الكلاب وساسة الخيول بان يكونوا مستعدين فى الساعة الخامسة صباحا . وارسلت الخيمة والمطبخ سلفا الى المكان الذى كان من المفروض ان يتناول فيه كيريلا بتروفيتش غذاءه . وتوجه رب الدار وضيوفه الى حظيرة الكلاب ، حيث كان يعيش اكثر من خمسمائة من كلاب الصيد متمتعة بالدفء والرفاهية ، مشيدة بكرم كيريلا بتروفيتش بلغتها الخاصة . وكان هناك ايضا مستشفى للكلاب المريضة تحت رعاية «الحكيم الرئيسى» الفلاح تيموشكا وكذلك قسم للاناث الاصيلة لتلد فيه وترضع صغارها . وكان كيريلا بتروفيتش يفخر بهذه المؤسسة الرائعة ، ولم يترك مناسبة تمر الا وتباهى بذلك امام ضيوفه ، الذين كان كل واحد منهم يراها للمرة العشرين على الأقل . واخذ يتمشى فى الحظيرة يحف به ضيوفه ويرافقه تيموشكا وكبار مدربى الكلاب ، ويتوقف امام بعض حظائر الكلاب سائلا تارة عن صحة المرضى ، وتارة موجها ملاحظات صارمة وعادلة الى هذا الحد او ذاك ، وتارة اخرى مناديا بعض الكلاب المحببة اليه فيتحدث اليها برقة . وكان الضيوف يرون من واجبهم ان يثنوا على حظائر كيريلا بتروفيتش ، لكن دوبروفسكى وحده ظل صامتا وعابسا . لقد كان صيادا مولعا بالصيد ولم تمكنه ثروته من اقتناء اكثر من

كلبين من كلاب الصيد ومجموعة صغيرة مــن الكلاب السلوقية فلم يستطع ان يكتم بعض الحسد عندما رأى هذه المؤسسة الرائعة .

وسأله كيريلا بتروفيتش :

— ما لك عابس يا اخـــى ؟ ام ترى حظائرى لا تعجبك ؟

فاجاب بجفاء : — كلا ، حظائرك خلابة ، وانى لأشك ان رجالك يعيشون مثلما تعيش كلابك .

فانزعج احد مدربى الكلاب وقال :

— اننا ، والحمد لله وللسيد ، لا نشكو من عيشتنا ، ولكن الحقيقة تبقى حقيقة ، فان بعضا من النبلاء لا يضيره ان يستبدل بضيعته حظيرة من حظائر الكلاب هذه . فسيشعر هنا بشبع ودفء اكثر .

وقهقه كيريلا بتروفيتش عاليا عندما سمع ملاحظة تابعه الجريئة ، وقهقه الضيوف على اثره ، مع انهـــم احسوا ان مزحة مدرب الكلاب يمكن ان تمسهم ايضا . وشحب وجه دوبروفسكى ، ولم ينبس ببنت شفة .

وفى هذا الوقت جيء لكيريلا بتروفيتش بالجراء الوليدة ، فى سلة ، فانشغل بها ، واختار من بينهـــا جروين وامر باغراق الباقى ، بينما اختفى اندريــــه جافريلوفيتش ، ولم يلحظ احد ذلك .

عندما عاد كيريلا بتروفيتش وضيوفه من الحظائر ، جلس لتناول العشاء ، وساعتها لاحظ تخلف دوبروفسكى فسأل عنه ، فاخبروه بأنـــــه عاد الى داره . فامرترويكورف ان يلحق به احد فورا ، ولا يعود الا به . فلم يحدث ابدا ان خرج للصيد بدون دوبروفسكى

المقدّر الخبير والعالم بميزات كلاب الصيد والحلائل الذى لا يخطئ لكل خلافات الصيادين . وعاد الخادم الذى انطلق لاحضاره ولما ينتهى العشاء ، فافضى الى سيده بأن اندريه جافريلوفيتش لم يطع للامر ورفض ان يعود وغضب كيريلا بتروفيتش ، وقد هيجه الشراب كعادته ، فأمر هذا الخادم نفسه بأن يعود الى اندريه جافريلوفيتش ويبلغه بأنه اذا لم يعد حالاً ويقضى ليلته فى بكروفسكويــــه فانه ، اى ترويكورف ، سيخاصمه الى الابد . وقفل الخادم راكضاً ، ونهض كيريلا بتروفيتش من المائدة ، وصرف ضيوفه وتوجه للنوم .

وفى اليوم التالى كان اول سؤال وجهه هو : هل اندريه جافريلوفيتش موجود ؟ وبدلا من الجواب قدموا اليه رسالة مطوية على شكل مثلث ، فأمر كيريـــلا بتروفيتش كاتبه ان يقرأها جهرا ، فسمع التالى :

«سيدى الفاضل ، لقد عقدت العزم على الا اعود الى بكروفسكويـــه ما لم ترسلوا الىّ مدرب الكلاب باراموشكا ليقدم اعتذاره . وسيكون لى الخيار ان اعاقبه او اعفو عنه ، فلست مستعدا ان اقبل مزاح اتباعكم ، بل ولا حتى مزاحكم انتم ، اذ اننى لست مهرجا ، بل انا نبيل عريق . وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

اندريه دوبروفسكى» .

ولو حكمنا على هذه الرسالة من خلال مفاهيمنـــا الحالية عن المجاملة لاعتبرناها مجافية تماما للادب .

ولكن الذى اغضب كيريلا بتروفيتش لم يكن كلماتها واسلوبها الغريب بل محتواها .

زمجر ترويكورف وهو يقفـــز حافى القدمين مـــن الفراش :

— ماذا ؟ اأرسل اليه اتباعى ليعتذروا له ، وله الخيار ان يعفو عنهم او يعاقبهم ؟ ترى من يظن نفسه حقا ؟ وهل يعرف ضد من يقف ؟ حسنـــا . . سوف اريه . . . سوف يندم كثيرا ، وسيعرف ما معنـــى الوقوف بوجه ترويكورف !

وارتدى كيريلا بتروفيتش ملابسه ورحل الى الصيد تحوطه جميع مظاهر الابهة المعتادة ، ولكنهم لم يوفقوا فى الصيد ، فلم يروا طوال اليوم الا ارنبا واحدا . وحتى هذا لم يفلحوا فى اقتناصه ، كذلك لميكن الغداء فى الهواء الطلق تحت الخيمة موفقا ، او على الأقل لم يكن حسب مزاج كيريلا بترفيتش ، الذى ضرب الطاهـــى وسبّ الضيوف ، وفى طريق العودة مرّ مع رهطه كله عبر حقول دوبروفسكى عامدا .

مرت عدة ايام ولم تهدأ العداوة بين الجارين ، فلم يعد اندريه جافريلوفيتش الى بكروفسكويه ، وشعر كيريلا بتروفيتش بدونه بالضجر ، فعبر عـــن أساه باقذع الشتائم ، التى كانت ، بفضـــل جهود النبلاء المحليين ، تصل الى دوبروفسكى منقحة ومزيدة . ثم جد جديد قضى على الامل الاخير فى الصلح .

فقد اتفق ذات مرة ان كان دوبروفسكى يتفقـــد ضيعته الصغيرة ، وعندما اقترب من غيضة اشجار البتولا سمع ضربات فأس ثم بعد لحظة طقطقة شجرة

اجتثت ، فأسرع الى داخل الغيضة ففجأ فلاحين من بكروفسكويه يسرقون اشجاره بهدوء . وعندما راوه حاولوا الهرب ، لكن دوبروفسكى استطاع بمساعدة حوذيه ان يقبض على اثنين منهم وقادهما مقيدين الى داره . واستولى المنتصر ايضا على ثلاثة من خيول العدو غنيمة . وكان دوبروفسكى غاضبا الى اقصى حد ، فلم يحدث من قبل ان اجترأ رجال ترويكورف المشهورون ببلطجتهم على العبث فى حدود ممتلكاته لعلمهم بعلاقة الصداقة التى تربط بينه وبين سيدهم . وقد رأى الآن دوبروفسكى انهم استغلوا الجفوة التى حدثت ، فقرر – مخالفا جميع قواعد قانون الحرب – ان يجلد اسيريه بغصون الاشجار اللينة التى سرقاها من غيضته ، ويبعث بالخيول للعمل بعد ضمها الى مواشيه .

وطار نبأ الواقعة الى كيريلا بتروفيتش فى نفس اليوم فجن جنونه وفكر ، فى فورة غضبه ، ان يتوجه مع كل اتباعه ليشنوا هجوما على كيستنيوفكا (هكذا كانت تسمى قرية جاره) فيدمرها عن آخرها ، ويحاصر الاقطاعى نفسه فى داره ، وما كانت هذه المآثر بجديدة عليه ، لكن افكاره سرعان ما سارت فى اتجاه آخر .

وبينما كان يروح ويجىء فى الصالة بخطوات ثقيلة مضت منه لفتة نحو النافذة فرأى عربة تجرها ثلاثة خيول تتوقف عند البوابة ويخرج منها رجل صغير الجسم يرتدى قبعة جلدية ومعطفا من قماش خشن متجها الى جناح الخولى ، فتعرف فيه ترويكورف على المحلف شاباشكين وآمر باستدعائه . وما هى الا لحظة حتى

كان شاباشكين ماثلا بين يديه ، محييا بانحناءة تلو انحناءة ومنتظرا أوامره برهبة وخنوع .

وحياه ترويكورف قائلا :

– كيف حالك يا هذا . . . ماذا وراءك ؟

فاجاب شاباشكين :

– لقد كنت ذاهبا الى المدينة يا صاحب المعالى فعرجت على ايفان دميانوف لأعرف ان كانت هناك اية اوامر من معاليكم .

– لقد جئت فى الوقت المناسب يا هذا . . . انى بحاجة اليك . خذ قدحا من الفودكا واصغ الىّ .

واصاب هذا الاستقبال الرقيق الموظف بذهول محبب فاعتذر عن تناول الفودكا واستعد لسماع كيريلا بتروفيتش بكل ما وسعه من انتباه .

وقال ترويكورف :

– يوجد لدىّ هنا جار ، اقطاعى صغير وقح ، واريد ان استولى على ضيعته ، فما رأيك فى هذا ؟

– اذا كانت لديكم يا صاحب المعالى اية مستندات او . . .

– كفى هذرا يا صاح . اية مستندات تريد ! هذا امر معروف ، انما المقصود ان نستولى على الضيعة بدون وجه حق . ولكن مهلا . . . لقد كانت هذه الضيعة فى وقت ما ملكنا ، اشتريناها من المدعو سبيتسين ، ثم بيعت بعد ذلك الى والد دوبروفسكى . الا يمكن ان نتمحك بذلك ؟

– امر عسير يا صاحب المعالى . اغلب الظن ان البيع قد تم بطريقة قانونية .

– فكر يا صاح . . . ابحث جيدا .

– لو كان بامكانكـــم مثلا يا صاحب المعالى ان تحصلوا باى وسيلة كانت من جاركم على العقد الذى يثبت ملكيته للضيعة لكان طبعا . . .

– مفهوم ، ولكن المصيبة ان كل اوراقه احترقت عندما شبت بمنزله النار .

– ماذا تقول يا صاحب المعالى . . . احترقت اوراقه ! هذا اقصى ما تتمناه . فى هذه الحالة تصرف حسب القانون ، وستصل دون ادنى شك الى غاية ما تصبو اليه .

– هل تعتقد ذلك ؟ حسنا ، انى اعتمد عـــلى جهودك ، ولك ان تطمئن بخصوص المكافاة .

وانحنى شاباشكين حتى كاد يلامس الارض ثم خرج ومن يومها اخذ يسعى فى هذا الامر ، وبفضل دهائه تلقى دوبروفسكى من المدينة بعد اسبوعين بالضبط دعوة بتقديم التفسيرات الضرورية فورا بخصوص ملكيته لقرية كيستنيوفكا .

وذهل اندريه جافريلوفيتش لهذا الطلب المفاجىء . فكتب فى نفس اليوم مذكرة شديدة اللهجة ، اعلن فيها ان قرية كيستينيوفكا آلت الى ملكيته بعد وفاة المرحوم والده ، وانه يملكها بحق الوراثة ، وليس لترويكورف اى دخل بذلك ، واى تطلع الى ملكيته هذه لا يعدو ان يكون دسيسة واحتيالا" .

وقد تركت هذه الرسالـــة اثرا طيبـــا فى نفس شاباشكين ، فقد عرف منها اولا : ان دوبروفسكى لا يفقه كثيرا فى هذه الامور ، وثانيا : ان شخصا بمثل

هذا الاندفاع والتهور لن يكون من الصعب زجه فى اقصى المواقف حرجا .

وبعد ان بحث اندريه جافريلوفيتش بتمعن اكبر طلبات الموظف ، رأى من الضرورى ان يرد ردا اكثر اسهابا ، فكتب مذكرة مقنعة ومع ذلك ظهر فيما بعد انها لم تكن كافية .

واخذ الامر يطول ، ولكن اندريه جافريلوفيتش ، الواثق من عدالة قضيته ، لم يقلق كثيرا ، ولم تكن لديه لا الرغبة ولا الامكانية ان يبعثر من حوله النقود ، ومع انه كان دائما اول من يهزأ بفئة الكتبة لضمائرهم المرتشية ، الا انه لم يجل بخاطره ابدا ان يصبح ضحية للدسيسة . اما ترويكورف فلم يهتم هو الآخر كثيرا بكسب القضية التى لفقها ، فقد كان شاباشكين يسعى من اجله ، متحدثا بأسمه ، مهددا وراشيا القضاة ، ومتحايلا فى تفسير مختلف القوانين والمراسيم . وعلى اية حال فقد تلقى دوبروفسكى فى التاسع من فبراير عام الف وثمانمئة و . . . عن طريق بوليس المدينة دعوة بالمثول امام محكمة ناحية (. . .) لسماع قرار المحكمة المذكورة فى قضية النزاع على ملكية ضيعة بينه هو الملازم دوبروفسكـــى ، وبين الجنـــرال ترويكورف وللتوقيع على قبوله او عدم قبوله للقرار . وتوجه دوبروفسكى فى نفس اليوم الى المحكمة . وفى الطريق لحق به ترويكورف وسبقه ، فنظر كل منهما الى الآخر بأنفة ، ولاحظ دوبروفسكى ابتسامة شريرة على شفتى خصمه .

الفصل الثانى

عندما وصل اندريه جافريلوفيتش الى المدينة نزل ضيفاً على احد معارفه التجار ، فقضى الليل عنده ، وفى الصباح توجه الى محكمة الناحية . ولم يعره احد التفاتا ، ثم وصل بعده كيريلا بتروفيتش فوقف الكتبة وقد دسوا الاقلام خلف آذانهم ، اما اعضاء المحكمة فاعربوا عن عميق امتنانهم لرؤيته وقدموا له كرسيا بدافع الاحترام لرتبته وسنه وهيئته . فجلس امام الباب المفتوح . اما اندريه جافريلوفيتش فوقف ، مستندا الى الجدار وحل صمت عميق ، ثم بدأ السكرتير يقرأ قرار المحكمة بصوت رنان .

وها نحن نورده هنا كاملا ، اعتقادا منا بأن كل واحد سيسره ان يرى احدى الوسائل التى يمكن بها فى روسيا ان نفقد املاكنا ، التى لنا فى ملكيتها حق لا ينازع . *

صمت السكرتير ، ونهض المحلف فحيا ترويكورف بانحناءة كبيرة ودعاه للتوقيع على القرار ، فوقع ترويكورف الظافر على **قرار** المحكمة بالقبول التام .

وجاء دور دوبروفسكى ، فقدم اليه السكرتير

* وبعد ذلك يورد بوشكين تعريفا قضائيا تتعذر ترجمته ، نموذجا للغة المبتسرة الركيكة للوثائق القانونية لذلك الزمن ، وفيها «يبرهن» عن طريق مختلف التزويغات القانونية على ان آل ترويكوروف هم المالكون الشرعيون لضيعة آل دوبروفسكى . **(الناشر .)**

الورقة ولكنه مكث ساكنا بلا حراك منكس الراس .

وكرر السكرتير دعوته له بالتوقيع اما بالقبول التام او عدم القبول القاطع اذا كان يشعر – على غير المتوقع – فى قرارة ضميره بأن الحق فى جانبه وينوى استئناف الحكم لدى الجهات المختصة وفى المدة التى يحددها القانون . وظل دوبروفسكى صامتا . ولكنه رفع راسه فجأة ، ولمعت عيناه ، ودق الارض بقدمه ، ودفع السكرتير بقوة ، حتى سقط هذا الاخير ، ثم امسك بالمحبرة وقذف المحلف بها . وروع الجميع ، وصرخ دوبروفسكى : «كيف ! الا تحترمون بيت الله !» ثم مخاطبا كيريلا بتروفيتش : «هل سمعتم يا صاحب المعالى ان مدّربى الكلاب يسوقونها الى الكنيسة ؟ ! الكلاب تركض فى الكنيسة ، بيت الله . . سأربيكم جميعا . . .» وتجمع الحرس على الضجة وسيطروا عليه بصعوبة ، ثم اخرجوه واجلسوه فى الزحافة . وخرج ترويكورف فى اثره تحف به هيئة المحكمة كلها . لقد اثر عليه جنون دوبروفسكى المفاجئ تاثيرا شديدا وبدد نشوة النصر . اما القضاة الذين كانوا يطمعون فى كرمه فلم يحظوا منه بكلمة تحية واحدة . وتوجه فى اليوم نفسه الى بكروفسكويه ، بينما لزم دوبروفسكى الفراش . وعاده طبيب الناحية الذى لم يكن لحسن الحظ جاهلا تماما فحجمه وركب له دود العلق والذباب الهندى فشعر بتحسن فى المساء وعاد الى وعيه . وفى اليوم التالى حملوه الى كيستينيوفكا التى لم تعد ملكه تقريبا .

الفصل الثالث

مرت فترة من الزمن ولكن حالـــة دوبروفسكى المسكين ظلت سيئة . صحيح ان نوبات الجنون لم تعاوده ، ولكن قواه اخذت تهن بشكل ملحوظ . لقد نسى هواياته السابقة ولم يعد يغادر غرفته الا نادرا ، ويستغرق فى التفكير اياما كاملة . واصبحت يجورفنا ، تلك العجوز الطيبة التى كانت تعنى بأبنه فيما مضى ، مربيته هو الآن . كانت تعنى بشؤونه وكأنه طفل صغير ، وتذكره بمواعيد الاكل والنوم ، وتطعمه وتعد له الفراش . واستسلم لها اندريه جافريلوفيتش فى هدوء ، ولم يعد يختلط بأحد غيرها . لم يكن فى مقدوره ان يفكر فى اعماله واموره المالية ، فرأت يجورفنـــا ضرورة احاطة دوبروفسكى الابن بالامر كله . وكان الابن يخدم فى احد افواج مشاة الحرس المرابط فى ذلك الوقت فى بطرسبرج . وهكذا انتزعت ورقة من دفتر الحسابات وأملت على الطاهى خاريتون ، المتعلم الوحيد فى كيستينيوفكا رسالة بعثت بها فى نفس اليوم الى مكتب البريد فى المدينة .

ولكن آن لنا ان نعرّف القارىء بالبطل الحقيقـــى لقصتنا .

تربى فلاديمير دوبروفسكى فى مدرسة التلاميـــذ العسكرية ثم تخرج منها ملازما فى الحرس . ولم يبخـل أبوه بشىء فى سبيل تربيته تربية لائقة ، فكان الشاب يتلقى من المنزل اكثر مما ينتظر . ولما كان مسرفـــا ومغرورا ، فقد سمح لنفسه بنزوات مترفة ، فكان يلعب

القمار ويستدين دون أن يعنى بالمستقبل ، ومؤملا ان عاجلا أم آجلا بعروس غنية ، حلم الشباب الفقير .

وذات مساء ، عندما كان بعض الضباط مضطجعين على الارائك فى منزله يدخنون من غلايينه الكهرمانية ، قدم له خادمه جريشا رسالة ، مـا ان رأى الشاب ختمها وخطها حتى اصابه الذهول وفضها بعجلـة وقرأ التالى :

«سيدنا ومولانا فلاديمير اندرييفيتش ، قررت انا مربيتك العجوز ان احيطك علما بصحة والدك . ان حالته سيئة جدا واحيانا ينطق كلمات لا معنى لها ويجلس طول اليوم كالطفل الغبى ، واللـه بيده امـور الحياة والموت . احضر الينا ايها الغالى وسوف ترسل الخيول لاستقبالك فى محطة بيسوتشنويه . يقولون ان المحكمة ستحضر الينا هنا لوضعنا تحت يد كيريلا بتروفيتش ترويكورف لاننا كما يزعمون نتبعه ، ولكننا لكـم وحدكم ، ولم نسمع بمثل هذا ابدا . ربما يمكنك وانـت فى بطرسبرج ان تتشفع لدى مولانا القيصر فلن يتركنـا للهوان . عبدتك المخلصة ومربيتك .

ارينا يجورفنا بوزيريفا .

ابعث ببركات الام الى جريشا . هل يخدمك جيدا ؟ المطر عندنا يسقط للاسبوع الثانى . وقد مات الراعى روديا قرب عيد القديس نيقولا» .

قرا فلاديمير دوبروفسكى هذه السطور المشوشة

للغاية عدة مرات متتالية وبقلق بالغ . لقد فقد امه منذ صغره ، وفى الثامنة من عمره ارسلوه الى بطرسبرج وهو لا يكاد يعرف اباه ، ومع ذلك كان متعلقا بـــه بصورة رومانسية . وازداد حبه للحياة العائلية بقدر ما فاته ان يتمتع بمباهجها المتواضعة .

لقد عصرت قلبه فكرة ان يفقد اباه ، وافزعتـــه حالة المريض المسكين التى استطاع ان يستشفها مـن رسالة مربيته . وتخيل اباه مهملا فى قرية نائية بين يدى امرأة عجوز بلهاء وخدم ، تهدده كارثة ما ويذوى دون عون تعذبه آلام الجسد والروح . واتهم فلاديمير نفسه باللامبالاة الاجرامية . فمنذ مدة طويلة لم تصله من ابيه اية رسالة ، ومع ذلك لم يفكر هو فى السؤال عنـــه معتقدا انه مشغول بالتنقل او الامور المتعلقة بادارة ضيعته .

وقرر ان يذهب اليه ، بل وحتى يستقيل اذا تطلب مرض ابيه ان يكون بجانبه . وانصرف رفاقه عندمـــا لاحظوا قلقه . ولما اصبح فلاديمير وحده كتب طلـــب اجازة ، واشعل غليونه وراح فى تفكير عميق .

وفى نفس اليوم اخذ يسعى للحصول على اجازة ، وبعد يومين سافر على الخيول يصحبه تابعه المخلص جريشا .

اقترب فلاديمير اندرييفيتش من المحطة التى كان عليه ان ينعطف عندها الى كيستينيوفكا . وكان قلبه مفعما بالتكهنات الحزينة . لقد كان يخشى الا يجد اباه على قيد الحياة ، وتخيل نمط الحياة الكئيب الذى ينتظره

فى القرية : المنأى والفراغ والفقر والسعى لترتيب امور لا يفقه فيها شيئا . وعندما وصل الى المحطة دخل الى الناظر وطلب منه جيادا اخرى . واستعلم منه الناظر عن الوجهة التى يقصدها ، ثم اخبره ان الجياد التى ارسلت من كيستينيوفكا فى انتظاره منذ اربعة ايام . وسرعان ما تقدم نحو فلاديمير اندرييفيتش الحوذى العجوز انطون ، الذى كان يتجول معه فى الاصطبل فيما مضى ويعنى بمهره الصغير . وعندما رآه انطون دمعت عيناه وانحنى حتى لامس الارض ، واخبره ان السيد العجوز ما زال حيا ، ثم هرول ليشد الجياد الى عربـــة . واعتـــذر فلاديمير اندرييفيتش عن قبول الدعوة للافطار واسرع بالرحيل . وقاده انطون فى الطريق المار عبر القرى ، وجرى بينهما الحديث التالى :

— خبرنى من فضلك يا انطون ، ماذا حدث بين ابى وبين ترويكورف ؟

— الله اعلم يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . الظاهر ان السيد اختلف مع كيريلا بتروفيتش فرفع هذا ضده قضية ، مع انه هو الآمر والناهى فى معظم الاحوال . ما لنا نحن الاقنان نناقش امور السادة ، ولكن ، والله العظيم ، والدك ما كان عنده حق فى وقوفه ضد كيريلا بتروفيتش ، فما الفائدة من نطح الصخر .

— يبدو ان كيريلا بتروفيتش هذا يفعل هنا مـــا يشاء ؟

— صحيح يا سيدى . هو لا يعير القاضى ابدا ، ورئيس الشرطة كخادم عنده . والسادة يزورونه احتراما له ، وكما يقال : الذباب يحط على الحلوى .

– هل صحيح انه سينتزع منا الضيعة ؟

– آه يا سيدى ، نحن ايضا سمعنا . من يومين قال راعى كنيسة بكروفسكويه فى حفلة التعميد عند عمدتنا : كفاكم لعبا ، سيشدد كيريلا بتروفيتش قبضته عليكم ، فقال له الحداد ميكيتا : كفى يا سافيليتش ، لا تحزن قريبك ولا تزعج الضيوف . كيريلا بتروفيتش شيء ، واندريه جافريلوفيتش شيء آخر ، وكلنا عبيد الله والقيصر ، ولكنك لا تستطيع ان تغلق فم احد .

– اذن فانتم لا تريدون ان تصبحوا ملكا لترويكورف ؟

– ملك لترويكورف ! اعوذ بالله . ان فلاحيه يعانون من قسوته ، فاذا ما انتقل الى ملكيته غرباء فلن يسلخ جلدهم فقط ، بل ولحمهم ايضا . كلا ، فليهب الله العمر الطويل لاندريه جافريلوفيتش ، ولو اختاره الى جواره ، فلا نريد احدا غيرك راعيا لنا . لا تسلمنا لاحد وسنقف من خلفك .

قال انطون هذه الكلمات وهو يلوح بالسوط ثم هز العنان فركضت الخيل خببا .

وصمت دوبروفسكى وقد اثر فيه اخلاص الحوذى العجوز ، واستغرق فى افكاره . ومضى اكثر من ساعة عندما استيقظ فجأة على صياح جريشا : «ها هى بكروفسكويه !» ورفع دوبروفسكى رأسه . كانوا يسيرون على شاطئ بحيرة كبيرة ، نبع منها نهر اخذ يتعرج فى البعد بين التلال . وفوق اكمة خضراء كثيفة على احد هذه التلال ارتفعت سقيفة خضراء لمنزل حجرى ضخم . وعلى التل الآخر انتصبت كنيسة ذات خمسة ابراج

وبرج اجراس من الطراز القديم . ومن حولها تناثرت بيوت الفلاحين بحدائقها وآبارها . وعرف دوبروفسكى هذه الاماكن ، وتذكر انه على ذلك التل كان يلعب مع ماشا ترويكورفا الصغيرة التى كانت تصغره بعامين ، وتبشر فى ذلك الوقت بحسناء . واراد ان يسأل انطون عنها ، لكن شعورا بالخجل منعه من ذلك .

وعندما اقترب من منزل رب الضيعة رأى ثوبا ابيض يلوح بين اشجار الحديقة . وفى هذه اللحظة الهب انطون ظهر الجياد وقد استبد به الغرور ، ذلك الشعور المشترك بين حوذية القرى وسائقى العربات فى المدن ، وانطلق باقصى سرعة فعبر الجسر مارا بجوار القرية . وبعد ان خلفا القرية وراءهما صعدا مرتفعا ، فرأى فلاديمير غيضة اشجار البتولا ، وفى الناحية اليسرى فى مكان مكشوف منزلا رماديا ذا سقف احمر ، فدق قلبه بشدة . لقد رأى امامه كيستينيوفكا ومنزل ابيه المتواضع .

وبعد عشر دقائق دلفوا الى فناء المنزل ، فاخذ ينظر حوله بتأثر لا يوصف ، فمنذ اثنتى عشرة سنة لم ير مسقط رأسه . لقد نمت شجيرات البتولا التى شهد غرسها بجوار السور واصبحت الآن اشجارا طويلة وارفة . اما الفناء الذى كانت تزينه فى وقت ما ثلاثة احواض من الزهور يتخللها طريق نظف بعناية ، فقد تحول الآن الى مرج لم تجتث حشائشه واخذ يرعى فيه حصان مقيد . وشرعت الكلاب تنبح ، لكنها صمتت عندما رأت انطون واخذت تهز ذيولها المشعثة . وخرج الخدم والحاشية من منازلهم واحاطوا بالسيد الشاب معربين عن

فرحتهم بصخب . وبصعوبة تمكن من شق طريقه وسط زحامهم وهرول الى السلاملك المتداعى . وفى المدخل قابلته يجورفنا وهى تبكى ، ثم عانقت ربيبها .

— مرحبا ، مرحبا يا دادة — ردد هذه التحية وهو يضم العجوز الطيبة الى صدره — ماذا حدث لابى ؟ اين هو ؟ وكيف حاله ؟

وفى هذه اللحظة دلف الى الصالة شيخ طويل القامة ، يخطو متحاملا ، شاحبا ، هزيلا فى رداء منزلى وطاقية .

وقال بصوت ضعيف :

— مرحبا يا فولوديا * .

وعانق فلاديمير اباه بحرارة .

وهزت فرحة اللقاء المريض بشدة فاصابه الضعف وخارت ساقاه ، وكاد يسقط لولا ان تلقاه ابنه على يديه .

وقالت له يجورفنا :

— لماذا نهضت من الفراش ؟ ان ساقيه لا تحملانه ، ومع ذلك يندفع الى حيث يندفع الناس .

وحملوا العجوز الى غرفة نومه ، وحاول ان يتحدث الى ابنه ، غير ان افكاره اختلطت فى رأسه ، وفقدت كلماته كل رابطة فلزم الصمت ، ثم استغرق فى النوم . وذهل فلاديمير لحالته فقرر ان ينام معه فى الغرفة ، وطلب ان يتركوه مع ابيه على انفراد . واذعن الخدم لطلبه ، وعندئذ انتبهوا الى جريشا فقادوه الى غرفة الخدم ، حيث اكرموه على طريقة اهل الريف وهم يبدون كل انواع السرور ، ويرهقونه بالاسئلة والتحيات .

* فالوديا هو اسم التدليل من فلاديمير . (المترجم .)

الفصل الرابع

حيث كانت الوليمة حافلة
كان يرقد التابوت .

(درجافين

بعد عدة ايام من وصوله اراد دوبروفسكى الا
ان يهتم بالاعمال ، غير ان اباه لم يكن فى حالة تسمـ
بتقديم التفسيرات اللازمة ، كذلك لم يكن لدى اندر
جافريلوفيتش وكيل اعمال . وعندما كان فلاديمير يفتـ
فى اوراق ابيه وجد رسالة المحلف الاولى ومسودة الر
عليها ، ولم يستطع ان يصل منها الى مفهوم واضح ع
القضية ، فقرر ان ينتظر ما تأتى به الايام ، معتمدا ع
عدالة القضية ذاتها .

وفى الوقت نفسه اخذت صحة اندريه جافريلوفيتـ
تسير من سيىء الى اسوأ ، واستشف فلاديمير النها
القريبة فلم يبارح العجوز الذى تحول الى طفل صغير .

وانتهت الفترة القانونية ولم يقدم الاستئنا
فاصبحت كيستينيوفكا ملكا لترويكورف . وجاء اليـ
شاباشكين يقدم التحية والتهنئة ، ورجاه ان يحدد الوق
الذى يناسب معاليه للقيام باجراءات استلام الضيعـ
الجديدة بنفسه او بواسطة من يسمح معاليه بتوكيـ
عنه . وارتبك كيريلا بتروفيتش ، فلم يكن بطبعـ

مغرضا ، لكنه انساق وراء رغبة الانتقام ، فاخذ ضميره يؤنبه . كان يعرف حالة غريمه ورفيق صباه القديم ، فلم يدخل النصر السرور على قلبـــه . وصوب الى شاباشكين نظرة رهيبة محاولا ان يجد علة ليسبه ، فلما لم يجد العلة المناسبة قال بغضب :

— اغرب عن وجهى ، فلا وقت عندى لك .

ورأى شاباشكين انه غاضـــب فانحنى واسرع بالانصراف . اما كيريلا بتروفيتش ، فبعد ان اصبـــح وحده ، اخذ يروح ويجئ وهو يصفر لحن : **زمجر يا رعد النصر** ، الامر الذى كان يدل دائما على انه يعانى من اضطراب غير عادى فى الافكار .

واخيرا امر ان تسرج الجياد الى عربة خفيفـــة ، وارتدى ملابس ثقيلة (كان ذلك فى اواخر سبتمبر) وغادر المنزل يقود العربة بنفسه .

وسرعان مـــا لاح امام ناظريه منزل اندريـــه جافريلوفيتش ففاضت نفسه بالمشاعر المتناقضة . لقد طغى حب الانتقام وشهوة السلطة الى حد ما عـــلى المشاعر النبيلة ، ولكن الاخيرة انتصرت فى النهاية ، فقرر ان يصالح جاره القديم ويقضى على آثار العداوة بينهما بأن يعيد اليه ممتلكاته . واطمأنت نفسه لهذا الغرض النبيل ، فانطلق بالجياد خببا نحو ضيعة جاره ، ودخل مباشرة الى فناء المنزل .

فى هذه اللحظة كان المريض يجلس الى النافذة فى غرفة نومه ، وعرف فى القادم كيريلا بتروفيتش فارتسم على وجهه اضطراب فظيع ، وحلت حمرة قانية محـــل الشحوب العادى فى وجنتيـــه ، ولمعت عيناه وتفوه

بالفاظ غير مفهومة . ورفع ابنه رأسه عن دفاتــــر الحسابات والمالية فراعته حالة ابيه . كان المريض يشير باصبعه نحو الفناء وقد استبد به الرعـــب والغضب . وجمع اطراف ردائه على عجـــل واراد ان ينهض من كرسيـــه ، فنهض قليلا . . . ثم سقط فجأة . . . واسرع ابنه اليه فوجده ممتدا فاقد الوعـى والتنفس . لقد اصابه الشلل .

وصرخ فلاديمير :

— اسرعوا ، اسرعوا ، استدعوا طبيبا من المدينة .

وقال الخادم الذى دخل الغرفة :

— كيريلا بتروفيتش يريد مقابلتكم .

ونظر فلاديمير الى الخادم نظرة رهيبة وقال :

— قل لكيريلا بتروفيتش ان يغور من هنا حالا قبل ان آمر بطرده . . . هيا .

واسرع الخادم مسرورا لتنفيذ اوامر سيده ، اما يجورفنا فقـــد اشاحت بيديها ذعرا ، وقالت بصوت يائس :

— يا سيدنا . . . ستقضى على نفسك ! سيدمرنـــا كيريلا بتروفيتش .

فقال فلاديمير بانفعال :

— اسكتى يا دادة . ابعثى انطون الى المدينة ليأتى بالطبيب .

وخرجت يجورفنا . لم يكن هناك احد فى المدخـــل فقد خفوا جميعا الى الفناء ليروا كيريـــلا بتروفيتش . وخرجت هى الى السلاملك فسمعت رد الخادم الذى كان يتحدث باسم السيد الشاب . واصغى كيريلا بتروفيتش

اليه وهو جالس فى العربة ، واربدت سحنته حتى غدت اشد سوادا من الليل ، وابتسم بازدراء وهو يصوب الى الخدم نظرة وعيد ، ثم سار بالعربة على مهل بجوار الفناء . ونظر الى النافذة التى كان يجلس اليها منذ لحظة اندريه جافريلوفيتش وحيث لم يعد هناك الآن . وظلت المربية واقفة على السلاملك وقد نسيت اوامر السيد . واخذ الخدم يناقشون الحادث بصخب . وفجاة ظهر فلاديمير بينهم وقال باقتضاب :

– لا داعى للطبيب . . . ابى توفى .

وعم الاضطراب ، وانطلق الناس الى غرفة السيد العجوز ، حيث كان ممددا فى الكرسى الذى وضعه فيه فلاديمير . وتدلت يده اليمنى حتى لامست الارض ، وسقط راسه على صدره . لم تكن هناك علامة على الحياة فى هذا الجسد الذى لم يبرد بعد ، ولكنه كان قد تشوه بفعل الموت . وصرخت يجورفنا ، واحاط الخدم بالجسد الذى ترك لرعايتهم ، فغسلوه والبسوه حلته العسكرية التى كانت قد خيطت فى عام ١٧٩٧ ، ثم وضعوه على نفس المائدة التى كانوا يعدونها لسيدهم سنوات طوال .

الفصل الخامس

تم الدفن فى اليوم الثالث . وتمدد جسد العجوز المسكين على المائدة ملفوفا فى الكفن ، تحيط به الشموع . واكتظت غرفة المائدة بالخدم ، الذين كانوا يستعدون للخروج به . وحمل فلاديمير التابوت

بمساعدة ثلاثة من الخدم ، وتقدمهم القسيس يصحبه السادن وهو ينشد الحانا جنائزية . وعبر سيد كيستينيوفكا عتبة داره لآخر مرة . ثم ساروا بالتابوت عبر الغيضة ، التى تقع خلفها الكنيسة . كان النهار صحوا وباردا ، وتساقطت الاوراق الخريفية من الاشجار .

وعندما خرجوا من الغيضة شاهدوا كنيسة كيستينيوفكا الخشبية والمقابر التى تظللها اشجار الزيزفون العجوز . هناك رقد جسد ام فلاديمير ، وهناك بالقرب من قبرها اعدت مسبقا حفرة حديثة .

كانت الكنيسة غاصة بفلاحى كيستينيوفكا ، الذين جاءوا ليودعوا سيدهم الوداع الاخير .

ووقف دوبروفسكى الشاب بجوار جوقة المرتلين . لم يبك ولم يصل ، غير ان وجهه كان قطيعا .

وانتهت الطقوس الحزينة ، فكان فلاديمير اول من تقدم لوداع الجسد ، ومن خلفه سار الخدم كلهم . ثم جاءوا بغطاء التابوت ودقوه بالمسامير . وانتحبت النسوة بصوت عال ، ومسح الرجال دموعهم بقبضات ايديهم من حين الى آخر . ثم حمل فلاديمير والخدم الثلاثة التابوت الى المقابر يصاحبهم اهل القرية كلهم . وانزلوا التابوت الى القبر ، ثم القى فيه كل فرد من الحاضرين قبضة من رمل . ثم هالوا التراب فى الحفرة فردموها وانحنوا امامها ، ثم تفرقوا . وانصرف فلاديمير بسرعة قبل الجميع ، ثم اختفى فى غيضة كيستينيوفكا .

ووجهت يجورفنا الدعوة باسمه الى القسيس وجميع سدنة الكنيسة الى وليمة المأتم ، معلنة ان السيد

الشاب لن يحضرها . وهكذا توجه الاب انطون وزوجته فيدوتوفنا والسادن الى منزل السيد سيرا على الاقدام وهم يتحدثون مع يجورفنا عن حسنات المرحوم ، وعما ينتظر وريثه (كان وصول ترويكورف ، والاستقبال الذى استقبل به معروفا لدى اهل الناحية كلهم ، وتوقع الساسة المحليون نتائج هامة لذلك الاستقبال) .

قالت زوجة القس :

— ليكن ما يكون . ولكن من المؤسف الا يصبح فلاديمير اندرييفيتش سيدنا . انه رائع بلا جدال .

وقاطعتها يجورفنا :

— ومن غيره يمكن ان يصبح سيدنا . عبثا يتوعد كيريلا بتروفيتش ، فلن يجد امامه جبانا . . ان صقرى يعرف كيف يدافع عن نفسه . وان شاء الله لن يتخلى عنه رعاته . . كم هو متعجرف كيريلا بتروفيتش ، ولكن تراه ثنى ذيله بين فخذيه عندما صاح فيه جريشا ابنى : اغرب ايها الكلب العجوز . . ارحل من هنا !

وقال السادن :

— اوه يا يجورفنا . . كيف طاوعه لسانه ان يقول ذلك ! انى مستعد ، على ما اعتقد ، ان اشتم اسقفا من ان اصوب نظرة غضب الى كيريلا بتروفيتش ، فما ان يراه المرء حتى يدفعه الخوف الى الانحناء والظهر يتقوس من تلقاء نفسه .

قال القس :

— باطل الاباطيل ! وكيريلا بتروفيتش سيحل اجله ايضا كما حدث الآن لاندريه جافريلوفيتش ، والفرق

الوحيد ان جنازته ستكون افخم والمدعوين الى الوليمة اكثر . . ولكن أليس كل ذلك سيان عند الرب ! ؟

— آه يا ابتاه ، لقد اردنا نحن ايضا ان ندعو كل الناحية ، لكن فلاديمير اندرييفيتش لم يشأ . الخير لدينا كثير ، وعندنا ما نقدمه للضيوف ، ولكن ما باليد حيلة . وما دام ليس هناك ضيوف ، فهيا على الاقل اطعمكم انتم يا ضيوفنا الاعزاء .

هذه الوعود الرقيقة ، والامل فى وليمة حافلة حثت خطى المتحدثين ، فوصلوا بسلام الى منزل السيد ، حيث وجدوا المائدة معدة ، والفودكا موضوعة .

وفى ذلك الوقت توغل فلاديمير فى قلب الغابة ، محاولا عن طريق الحركة والتعب اخماد حزن قلبه . كان يسير على غير هدى ، واخذت الاغصان كل لحظة تحتك به وتخدشه ، وقدماه تغوصان باستمرار فى المستنقع ، لكنه لم يعر اى شيء انتباها . واخيرا وصل الى وهدة صغيرة تحوطها الغابة من جميع الجهات . وكان هناك غدير يتلوى فى صمت بجوار الاشجار التى كاد ان يعريها الخريف . وتوقف فلاديمير ، ثم جلس على العشب البارد ، واخذت الافكار تترى فى نفسه ، كل فكرة اشد سوادا من سابقتها ، واحس بوحدته احساسا ممضا ، وبدا له المستقبل ملفعا بالغيوم القاتمة ، وعداوة ترويكورف تنبىء بمصائب جديدة ، ومن الجائز ان تنتقل ملكيته الضئيلة الى ايد غريبة ، وعندئذ لن ينتظره الا الفقر . وجلس طويلا بلا حراك فى نفس المكان متأملا جريان الغدير الهادىء ، الذى كان يجرف معه عدة اوراق ذابلة ، وبدا له بوضوح ان هذا صورة صادقة للحياة ،

صورة جد عادية . واخيرا لاحظ ان الغسق بدا يهبط ، فنهض ، ومضى يبحث عن الطريق الى المنزل ، لكنه ضل طويلا فى الغابة المجهولة قبل ان يجد فى النهاية الدرب الذى قاده مباشرة الى بوابة بيته .

وفى طريقه قابله القس مع بقية السدنة . وجالت بخاطره فكرة عن نذير الشؤم ، فاسرع لا اراديا يتنحى عن الطريق واختبأ خلف الاشجار . ولم يلحظوه فمضوا يتحدثون بحرارة وهم يمرون بجواره . وقال القس لزوجته :

– تجنبى الشر واصنعى الخير ، لا حاجة لبقائنا هنا . مهما كانت النهاية ، فهذا الامر لا يخصك . .

وردت الزوجة بشىء ما ، ولكن فلاديمير لم يستطع ان يسمع .

وعندما اقترب رأى جمعا غفيرا من الفلاحين والخدم محتشدين فى الفناء . وعلى البعد سمع فلاديمير ضجة ولغطا غير عاديين . وكانت هناك عربتان من ذوات الخيول الثلاثة تقفان الى جوار الحظيرة . وعلى السلاملك وقف عدة اشخاص غرباء فى ملابس رسمية ، يتحدثون فيما يبدو عن شىء ما .

وسأل فلاديمير بغضب انطون الذى ركض نحوه :

– ما معنى هذا ؟ من هؤلاء ، وماذا يريدون ؟

فاجاب العجوز وهو يلتقط انفاسه :

– آه يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . . المحكمة جاءت ، سيسلمونا لترويكورف . . يريدون انتزاعنا من رحمتك ! . .

ونكس فلاديمير رأسه ، واحاط الناس بسيدهم البائس ، وصاحوا وهم يقبلون يديه :

– يا مولانا ، لا نريد سيدا آخر غيرك . مر يا مولانا ان نفتك بالمحكمة وسنفعل . . . سنموت ولكنا لن نسلم . . .

ونظر فلاديمير اليهم واحس بمشاعر غريبة تثور فى نفسه ، فقال لهم :

– احتفظوا بهدوئكم ، وسأتحدث انا الى الموظفين .

وصاحت به اصوات من الجمع :

– تحدث يا مولانا ، ووبخ هؤلاء الملاعين .

واقترب فلاديمير من الموظفين . كان شاباشكين يقف مرتديا قبعته ، واضعا يديه فى خاصرته ، وينظر حوله بكبرياء ، اما رئيس الشرطة ، وهو شخص طويل القامة ، بدين ، فى حوالى الخمسين من عمره ، احمر الوجه ، ذو شوارب ، فعندما رأى دوبروفسكى يقترب صرخ قائلا بصوت ابح :

– وهكذا فاننى اكرر لكم ما سبق ان قلته : طبقا لقرار محكمة الناحية اصبحتم منذ الآن ملكا لكيريلا بتروفيتش ترويكورف ، والذى يمثله هنا السيد شاباشكين . اطيعوه فى كل ما يأمركم به ، اما انتن ايتها النسوة فأحببنه واحترمنه ، اذ انه من كبار المغرمين بجنسكن .

وقهقه الرئيس لمزحته هذه البارعة ، وتبعه شاباشكين وبقية الموظفين .

اما فلاديمير فكان يغلى من الغضب ، وسأل الرئيس المرح وهو يتصنع البرود :

– هلا اخبرتنى ما معنى هذا ؟
فأجاب الضابط المتعجرف :
– هذا يعنى اننا جئنا لتسليم الضيعة لكيريلا بتروفيتش ترويكورف ، ونرجو من **الآخرين** ان يغربوا عن هنا بالاحسان والمعروف .
– ولكن كان بوسعكم ، فيما اعتقد ، ان تتوجهوا الىّ قبل ان تتوجهوا الى فلاحى ، وتعلنوا الاقطاعى عن انتزاع ملكه .
وقال شاباشكين وهو يوجه اليه نظرة صلف :
– ومن تكون انت ؟ لقد توفى الاقطاعى السابق اندريه جافريلوفيتش ابن دوبروفسكى ، اما انت فنحن لا نعرفك ، ولا نريد حتى ان نعرفك .
وقال صوت من الجمع :
– هذا سيدنا الشاب فلاديمير اندرييفيتش يا صاحب السعادة .
فقال الرئيس متوعدا :
– من ذا الذى جرؤ على فتح فمه ؟ اى سيد ؟ اى فلاديمير اندرييفيتش ؟ سيدكم هو كيريلا بتروفيتش ترويكورف ، اتسمعون يا اغبياء ؟
– هذا لن يكون !
– ان هذا تمرد ! – صرخ الرئيس – تعال هنا يا عمدة !
وتقدم العمدة الى الامام .
– اقبض الآن فورا على من جرؤ على معارضتى ، وسوف اريه !
وتوجه العمدة الى الجمع يسأله عمن تحدث ، ولكن

احدا لم يتكلم ، ثم سرعان ما ترددت همهمة فى الصفوف الخلفية واخذت تعلو ، ثم تحولت فى لحظة الى صراخ مرعب . وخفض الرئيس صوته محاولا تهدئتهم .
وصرخ رجال الحاشية :
– دعوكم منه ، يا فتيان هيا اهجموا عليهم .
وتقدم الجمع كله .
واسرع شاباشكين وبقية الاعضاء الى المدخل واغلقوا الباب خلفهم .
وصرخ الصوت نفسه :
– هيا نقيدهم يا فتيان .
وبدأ الجمع يتقدم .
– قفوا ! – صرخ دوبروفسكى – ماذا تفعلون ايها الحمقى ؟ انكم تلقون بأنفسكم وبى الى الهلاك . ليذهب كل الى بيته ودعونى لشأنى . لا تخافوا ، ان القيصر رحيم ، وسوف اتشفع اليه ، ولن يتركنا للهوان فنحن جميعا ابناؤه ، ولكن كيف يدافع عنكم اذا ما اخذتم تتمردون وتثورون .
واتى حديث دوبروفسكى الشاب ، وصوته الرنان ، وطلعته المهيبة بالاثر المرجو ، فهدأ الناس ثم تفرقوا ، وخلا الفناء ، بينما جلس الموظفون فى المنزل . واخيرا فتح شاباشكين الباب خلسة وخرج الى السلاملك ، واخذ يشكر دوبروفسكى وهو ينحنى بذلة ، على حمايته الرحيمة لهم .
واصغى فلاديمير اليه باحتقار ولم يقل شيئا .
وواصل المحلف قائلا :
– لقد قررنا ان نبيت هنا اذا سمحتم ، لان الظلام

كأسياد، تارة يطلبون هذا الشيء، وتارة يطلبون ذاك، مشوشين على افكاره الحزينة بصورة كريهة. ثم اخيرا هدأ كل شيء.

فتح فلاديمير الدواليب الصغيرة وانشغل بالتنقيب فى اوراق المرحوم والده. كان معظمها عبارة عن اوراق حسابات ومراسلات لشتى الاغراض، فمزقها فلاديمير دون ان يقرأها. ثم عثر بينها على حافظة كتب عليها: رسائل زوجتى، فانكب عليها فلاديمير وقد هاجت مشاعره هياجا شديدا. كانت مكتوبة فى ايام الحملة التركية ومعنونة من كيستينيوفكا الى الجيش. وقد وصفت له فيها حياتها الخاوية واعمالها المنزلية، وشكت من الفراق ودعته ان يعود الى المنزل، الى احضان شريكة حياته الطيبة. وفى احداها عبرت عن قلقها بخصوص صحة الصغير فلاديمير. وفى رسالة اخرى اظهرت فرحتها بمواهبه المبكرة، وتنبأت له بمستقبل باهر سعيد. وانهمك فلاديمير فى القراءة ناسيا كل شيء فى العالم، وغاب فى دنيا السعادة العائلية، دون ان يلحظ مرور الوقت، حتى دقت ساعة الحائط معلنة الحادية عشرة. فوضع فلاديمير الرسائل فى جيبه وتناول الشمعة وخرج من الغرفة. كان الموظفون نائمين فى الصالة على الارض. وعلى المنضدة اصطفت الاكواب الفارغة بعد شرابهم، بينما عبقت الغرفة برائحة الروم الشديدة. ومر فلاديمير بجوارهم باشمئزاز متوجها الى المدخل. كانت الابواب مغلقة، ولم يجد المفتاح فعاد الى الصالة حيث وجده على المائدة. فتح فلاديمير الباب فاصطدم بشخص منزو فى الركن،

قد هبط، وربما يهجم علينا فلاحوكم فى الطريق. ارجوك ان تتفضل فتأمر بأن يفرشوا لنا ولو قشا فى غرفة الاستقبال، وما ان يلوح النور حتى نعود من حيث اتينا.

واجاب دوبروفسكى بجفاء:

— افعلوا ما يحلو لكم، فلم اعد السيد هنا.

قال هذا واتجه الى غرفة والده واغلق خلفه الباب.

الفصل السادس

«وهكذا فقد انتهى كل شيء — قال لنفسه — فى الصباح كان لا يزال لدى ركن آوى اليه وكسرة خبز، اما غدا فعلى ان اترك المنزل الذى فيه ولدت، وفيه مات ابى، اتركه لمن تسبب فى وفاته وفقرى». وتوقفت نظرته وجمدت على صورة امه. لقد رسمها الفنان مرتكزة الى حاجز، فى ثوب صباحى ابيض ووردة حمراء فى شعرها. «وهذه الصورة ايضا ستصبح ملكا لعدو اسرتى، —فكر فلاديمير، — وسوف يلقى بها فى المخزن مع الكراسى المحطمة، او يعلقها فى المدخل لتكون مادة لسخريات وتعليقات مدربى كلابه، اما غرفة نومها . . . الغرفة التى مات فيها والدى، فسيشغلها وكيل اعماله، او حريمه. كلا! كلا! لن ادعه يمتلك هذا المنزل الحزين الذى يطردنى منه». وصر فلاديمير على اسنانه، فقد انبثقت فى رأسه افكار رهيبة. كانت تصل الى سمعه اصوات الموظفين الذين كانوا يتصرفون

لمع فى يديه فأس . وعندما قرب فلاديمير الشمعة الى وجهه عرف فيه الحداد ارخيب . فسأله :

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟

فأجاب ارخيب هامسا :

— آه ! أهو انت يا فلاديمير اندرييفيتش ! رحماك يا رب ! حسنا انك كنت حاملا شمعة .

واخذ فلاديمير ينظر اليه بذهول . ثم سأله :

— لماذا تختبئ هنا ؟

فأجاب ارخيب بصوت خفيض متلعثما :

— لقد اردت . . . لقد جئت . . لاتأكد هل الجميع هنا ام لا .

— ولماذا تحمل فاسا ؟

— لماذا الفأس ؟ وكيف يمكن ان يسير الانسان الآن دون فاس . . هؤلاء الموظفون قوم مشاكسون . . وربما حدث شيء . .

— انك ثمل . . دع عنك الفأس واذهب لتاخذ قسطك من النوم .

— انا ثمل ؟ يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . . يشهد الله اننى لم اضع قطرة فى فمى . . وهل يخطر الشراب على بال الآن . . . وهل يمكن ان نصدق ان هؤلاء الموظفين يريدون اخذنا ويطردون اسيادنا من بيوتهم . . انظر كيف يشخرون ، هؤلاء الملاعين . . آه لو ضربتهم جميعا ضربة واحدة . . . ثم لا دليل ولا اثر . . .

وقطب دوبروفسكى حاجبيه ، وصمت قليلا ، ثم

قال :

— اسمع يا ارخيب . . ان ما فكرت فيه لا يصلح ، فليس الذنب ذنب الموظفين . هيـــا اضئ المصباح واتبعنى .

وتناول ارخيب الشمعة من يد سيده ، وبحث عن المصباح حتى وجده خلف الفرن فأشعله ، ثم هبط كلاهما من السلالم بهدوء ، وسارا بحذاء الفناء . فدق الحارس على اللوح الحديدى للانذار ونبحت الكلاب .

وسأل دوبروفسكى :

— من يقوم بالحراسة ؟

فأجابه صوت رفيع :

— نحن يا سيدى . . فاسيليسا ولوكيريا .

— انصرفا . — قال دوبروفسكى — . لسنا بحاجة اليكما .

— خلاص . . . — قال ارخيب .

— شكرا يا سيدى . . — ردت المرأتان وانصرفتا توا الى منزليهما .

وتابع دوبروفسكى سيره ، واقترب منه شخصان وناداه فعرف دوبروفسكى صوت انطون وجريشا .

سألهما دوبروفسكى :

— لماذا انتما مستيقظان ؟

فاجاب انطون :

— وهل يمكننا ان ننام ؟ هل قدر لنا ان نعيش حتى نرى هذا ؟ من كان يظن . . .

قاطعه دوبروفسكى :

— صه . . اين يجورفنا ؟

– فى بيت السيد ، فى غرفتها – اجاب جريشا .
– اذهب وات بها ، واخرج جميع اتباعنا من المنزل بحيث لا يبقى هناك احد . . الا الموظفون . اما انت يا انطون فجهز العربة .
انصرف جريشا وعاد بعد دقيقة مع امه التى لم تخلع ملابسها هذه الليلة ، ولم يغمض جفن احد فى المنزل باستثناء الموظفين .
وسأل دوبروفسكى :
– هل الجميع هنا ؟ ألم يبق احد فى المنزل ؟
فأجاب جريشا :
– لم يبق سوى الموظفين .
فأمر دوبروفسكى :
– احضروا دريسا او قشا .
فأسرعوا الى الاصطبل وعادوا يحملون دريسا .
– ضعوه تحت السلاملك . هكذا ! . . والآن الى بالنار يا فتيان !
وفتح ارخيب المصباح فأشعل دوبروفسكى شظية خشبية ، ثم قال لارخيب :
– انتظر ، يبدو اننى فى عجلتى اغلقت ابواب المدخل . اذهب بسرعة وافتحها .
وهرول ارخيب نحو المدخل . كانت الابواب غير مغلقة ، فأغلقها ارخيب بالمفتاح وهو يهمس : **يطلب منى ان افتحها . . هذا لن يكون** ! – ثم عاد الى دوبروفسكى .
وقرب دوبروفسكى الشظية من الدريس فاشتعل ، وارتفع اللهيب فأضاء الفناء كله .

وصرخت يجورفنا بتوسل :
– آه يا فلاديمير اندرييفيتش ، ما الذى تفعله ؟
فقال دوبروفسكى :
– أسكتى . حسنا يا اولادى ، وداعا ، سأرحل الى حيث يشاء الله . اتمنى لكم السعادة مع سيدكم الجديد .
فأجاب الواقفون :
– يا سيدنا ومولانا ، نموت ولا نتركك ، سنأتى معك .
وجاءوا بالعربة فجلس فيها دوبروفسكى وجريشا ، وحدد لهم مكان اللقاء فى غيضة كيستينيوفكا . وضرب انطون الخيول فانطلقت العربة مغادرة الفناء .
وهبت الريح ، وفى لحظة كان اللهب قد احاط بالمنزل ، وتصاعد دخان احمر فوق السقف ، وقرقع زجاج النوافذ ثم انهار ، واخذت القوائم المشتعلة تتداعى ، وترددت صرخات وعويل مستجير : «اننا نحترق ، النجدة ! النجدة !» .
قال ارخيب : – **هذا لن يكون** ! – وابتسم ابتسامة حاقدة وهو ينظر الى الحريق .
وقالت له يجورفنا :
– ارخيب ، انقذ هؤلاء الملاعين ، وستنال ثوابا من الله .
فأجاب الحداد :
– هذا لن يكون !
وفى هذه اللحظة ظهر الموظفون امام النافذة وهم

يحاولون كسر الاطار المزدوج . ولكن السقف انهار محدثا ضجيجا ، ثم سكن العويل .

وسرعان ما تجمع الناس فى الفناء . واسرعت النسوة ينقذن سقط متاعهن ، واخذ الاطفال يقفزون متلذذين بمشهد الحريق ، وتطاير الشرر كعاصفة نارية ، واشتعلت بيوت الفلاحين .

وقال ارخيب :

— كل شيء على ما يرام الآن . انظروا كيف تحترق ؟ لا بد ان المشهد يبدو رائعا لو نظرت اليه من ضيعة بكروفسكويه .

وفى هذه اللحظة جذبت انتباهه ظاهرة اخرى ، فقد ركضت قطة على سطح الحظيرة المشتعلة وهى لا تدرى الى اين تقفز ، فقد احاط بها اللهب من كل جانب . واخذ الحيوان المسكين يموء بتوسل طالبا النجدة ، بينما ضج الاطفال بالضحك وهم يشهدون يأسها .

— ما الذى يضحككم ايها الملاعين ، — قال لهم الحداد بغضب . — الا تخشون ربكم ؟ هذه دابة من مخلوقات الله تموت وانتم تفرحون ، يا حمقى !

ثم وضع سلما على السقيفة المشتعلة ، وصعد الى القطة التى فهمت غرضه فتعلقت بكمه ، وقد ارتسم على وجهها مظهر العرفان المقرون باللهفة . وهبط الحداد بغنيمته ، وقد كاد يحترق .

— والآن وداعا يا فتيان ، — قال مخاطبا الحاشية المرتبكة . — لم يعد لى عمل هنا . وداعا واذكرونى بالخير .

ورحل الحداد . واستمر الحريق مضطرما بعض

الوقت ، ثم اخيرا هدأ . واخذت اكوام من الفحم المتأجج تشتعل دون لهيب فى ظلام الليل ، ومن حولها كان يتجول اهل كيستينيوفكا الذين احترقت ديارهم .

الفصل السابع

فى اليوم التالى كان خبر الحريق قد ذاع فى الناحية كلها . وكان كل واحد يتحدث عنه واضعا شتى الافتراضات والظنون . فالبعض يؤكد ان اتباع دوبروفسكي شربوا حتى ثملوا فى وليمة التأبين فاحترق المنزل نتيجة اهمالهم وعدم حرصهم ، واتهم البعض الآخر الموظفين الذين سكروا محتفلين بالمكان الجديد ، بينما اعلن الكثيرون ان دوبروفسكى نفسه احترق ايضا مع من فى المنزل من هيأة المحكمة والحاشية . وهناك من فطن الى الحقيقة واكد ان سبب هذه الكارثة الفظيعة هو دوبروفسكى نفسه ، دفعه الى ذلك الحقد واليأس . ووصل ترويكورف فى اليوم التالى مباشرة الى مكان الحريق واجرى التحقيق بنفسه . وقد اتضح ان رئيس الشرطة والمحلف والوكيل المفوض والكاتب ، وكذلك فلاديمير دوبروفسكى والمربية يجورفنا والخادم جريشا والحوذى انطون والحداد ارخيب قد فقدوا ولا يعرف لهم مكان . . . وادلى جميع افراد الحاشية بما يفيد ان الموظفين احترقوا عندما انهار السقف ، وقد امكن استخراج عظامهم المحترقة . اما الفلاحتان فاسيليسا ولوكيريا فقد قالتا انهما شاهدتا دوبروفسكى والحداد ارخيب قبل الحريق بعدة دقائق . وقد اتفق الجميع

على ان الحداد ارخيب على قيد الحياة ، ويحتمل ان يكون الفاعل الاساسى ، ان لم يكن المسبب الوحيد للحريق . واتجهت الى دوبروفسكى شكوك قوية . وارسل ترويكورف الى المحافظ وصفا تفصيليا بما حدث ، وفتحت قضية جديدة .

وسرعان ما جاءت الاخبار بوقود جديد للفضول والاشاعات . ففى ناحية (. . .) ظهر قطاع طريق فنشروا الرعب فى جميع الضواحى المجاورة . واتضح ان الاجراءات التى اتخذتها الحكومة ضدهم لم تكن كافية . وتوالت حوادث السطو ، وكانت كل حادثة تفوق سابقتها . ولم يعد هناك امن لا على الطرق ولا فى القرى . وكانت عدة عربات من ذوات الثلاثة خيول مملوءة بقطاع الطريق تتجول فى وضح النهار فى جميع انحاء المحافظة ، فتعترض طريق المسافرين والبريد وتحل بالقرى ، فتنهب منازل الاقطاعيين ثم تشعل فيها النار . واشتهر زعيم العصابة بذكائه وشجاعته وشهامته ، وحكوا عنه العجائب . وكان اسم دوبروفسكى على جميع الشفاه ، والكل متأكدون انه هو ولا احد غيره زعيم الاشرار الشجعان . ولكن الذى ادهش الجميع شىء واحد : وهو ان ممتلكات ترويكورف لم تمتد اليها يد العبث . فلم يسطُ قطاع على حظيرة واحدة من حظائره ، ولم ينهبوا عربة من عرباته . وبعنجهيته المعهودة عزا ترويكورف هذا الاستثناء الى الخوف الذى استطاع ان ينشره فى ارجاء المحافظة ، وكذلك الى الشرطة اليقظة التى نظمها فى قراه . وفى البداية ضحك الجيران فيما بينهم من عنجهيته ، وتوقعوا ان يحل الضيوف الثقال بين يوم وآخر

بيكروفسكويه التى سيجدون فيها ما يشبع شهواتهم . غير انهم اضطروا الى ان يوافقوه ويعترفوا بأن قطاع الطرق ايضا احبوه باحترام غير مفهوم . . . وانتشى ترويكورف ، وفى كل مرة يسمع عن حادثة سطو جديدة قام بها دوبروفسكى كان يكيل السخريات للمحافظ وضباط الشرطة وقادة السرايا ، الذين كان دوبروفسكى يفلت منهم سليماً في كل مرة .

ثم حلّ اول اكتوبر : عيد قديس كنيسة ترويكورف . . . ولكن قبل ان نبدأ في وصف هذا الاحتفال والاحداث التي تلته ، يجب علينا ان نعرف القارئ بالوجوه الجديدة عليه او التي المحنا اليها في مطلع قصتنا هذه .

الفصل الثامن

لا شك ان القارئ قد فطن إلى ان ابنة كيريلا بتروفيتش التي لم نشر إليها إلا ببضع كلمات ، هي بطلة قصتنا . وفي العهد الذي نقص عنه كانت في السابعة عشرة من عمرها وجمالها في أوج ازدهاره . وكان والدها يحبها لدرجة الجنون ، لكنه كان يعاملها بطبعه المعهود ، فتارة يحاول ان يلبي أتفه رغباتها ، وتارة اخرى يرهبها بمعاملته الصارمة ، بل والقاسية احيانا . وبالرغم من أنه كان واثقاً من تعلقها به ، الا انه لم يوفق ابدا فى كسب ثقتها ، فقد تعودت ان تخفى عنه مشاعرها وافكارها ، لانها لم تكن تعرف مطلقا على وجه التحديد كيف سيتقبلها . ولم يكن لديها صاحبات فشبت فى جو من الوحدة . ونادرا ما كانت زوجات

وبنات الجيران يزرن كيريلا بتروفيتش ، الذى كانت احاديثه وملاهيه العادية تتطلب صحبة الرجال لا النساء . وقليلا ما كانت حسناؤنا تظهر وسط ضيوف كيريلا بتروفيتش . وكان تحت تصرفها مكتبة ضخمة ، معظم كتبها من مؤلفات الكتاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . ولم يستطع والدها الذى لم يقرأ قط شيئا عدا كتاب «الطاهية المثالية» ان يوجهها فى اختيار الكتب ، لذا كان من الطبيعى بالنسبة لماشا ، بعد ان قلبت شتى انواع المؤلفات ان يتجه اهتمامها الى الروايات . وهكذا اتمت تربيتها التى بدأت فى زمن ما تحت اشراف المادموازيل ميمى ، التى اولاها كيريلا بتروفيتش ثقته وعطفه الكبيرين ، ثم اضطر اخيرا الى نفيها بهدوء الى ضيعة اخرى ، عندما اصبحت آثار هذه العلاقة واضحة للعيان وخلفت المادموازيل ميمى ذكرى عطرة فقد كانت فتاة طيبة ، لها فيما يبدو تأثير على كيريلا بتروفيتش لم تحاول ابدا ان تستغله لاغراض شريرة ، الامر الذى ميزها عن المربيات اللواتى كان يغيرهن باستمرار . وبالنسبة لكيريلا بتروفيتش نفسه فقد احبها فيما يبدو اكثر من الاخريات . اما الصبى الشقى ذو العينين السوداوين والاعوام التسع ، والذى تشبه ملامحه ملامح المادموازيل ميمى الجنوبية ، فقد تربى تحت رعايته واعترف به ترويكورف ابنا له ، بالرغم من ان كثرة من الاطفال الحفاة والذين يشبهون كيريلا بتروفيتش تماما ظلوا يركضون تحت نوافذه باعتبارهم من الخدم .

وقد استحضر كيريلا بتروفيتش لصغيره ساشا

من موسكو مدرسا فرنسيا وصل الى بكروفسكويه فى زمن هذه الاحداث التى نتكلم عنها الآن .

وقد راق هذا المدرس لكيريلا بتروفيتش لمظهره الطيب ومعاملته البسيطة . ثم قدم لكيريلا بتروفيتش شهاداته ورسالة من احد اقرباء ترويكورف الذى كان هذا المدرس يعمل لديه وصيفا اربع سنوات . وفحص كيريلا بتروفيتش كل ذلك ، والشىء الوحيد الذى لم يعجبه هو صغر سن هذا الفرنسى ، لا لانه كان يعتقد ان هذا العيب الطيب لا يتفق والصبر والخبرة اللازمين لمهنة المدرس البائسة ، وانما كان لديه شكوكه الخاصة ، التى قرر ان يوضحها له فى التو واللحظة . ولهذا الغرض امر باستدعاء ماشا (لم يكن كيريلا بتروفيتش يعرف الفرنسية ، ولهذا كانت ماشا بمثابة مترجم له) .

— تعالى هنا يا ماشا ، وقولى لهذا المسيو اننى قد قبلته . . على خيرة الله . . . ولكن بشرط الا يجرؤ على رفع عينيه الى فتياتى ، والا فاننى سوف اريه . . ابن الكلب هذا . . . ترجمى له ما قلت ، يا ماشا .

واحمرت ماشا ، ثم استدارت نحو المدرس وقالت له بالفرنسية ان اباها يأمل فى تواضعه وسلوكه المهذب .

وانحنى لها الفرنسى ، واجاب بأنه يأمل ان يحوز الاحترام ، حتى وان رفضوا ان يولوه العطف .

وترجمت ماشا إجابته بالحرف الواحد .

فقال كيريلا بتروفيتش :

– حسنا ، حسنا ، انه ليس بحاجة لا الى الاحترام ولا الى العطف . . . ان عمله هو العناية بساشا وتعليمه النحو والجغرافيا . ترجمى هذا له .

وخففت ماريا كيريلوفنا فى ترجمتها من الفاظ ابيها الخشنة ، وبعدها صرف كيريلا بتروفيتش الفرنسى الى الجناح الذى خصصت له غرفة فيه .

ولم تعر ماشـــا الفرنسى الشاب ادنى التفات ، فتربيتها الارستقراطية المتحيزة جعلتها تضع المدرس فى زمرة الخدم او الاسطوات ، والخادم او الاسطى لم يكن فى نظرها رجلا . كذلك لم تلحظ الانطباع الذى خلفته لدى مسيو ديفورج ولا خجله او اضطرابه او صوته المتهدج . ثم بعد ذلك ، ولعدة ايام متوالية ، راته مرات عديدة دون ان توليه اهتماما اكبر . ثم تكوّن لديهـا بطريقة غير متوقعة تصور جديد للغاية عنه .

كان كيريلا بتروفيتش كالعادة يربى فى داره عدة دببة صغيرة ، وكانت تعتبر لونا من اهم ألوان لهو اقطاعى بكروفسكويه . وكانت الدببة – وهى بعـــد صغيرة جدا – تساق كل يوم الى غرفة الجلوس ، حيث يلهو بها كيريلا بتروفيتش ساعات متواصلة ، محرّشا بينها وبين الجراء والقطط . وبعد ان تكبر الدببة كانت تربط فى سلسلة فى انتظار التحريش الحقيقى . وكانوا احيانا يقودونها امام نوافذ البيت ثم يدحرجون امامها برميـــل خمر فارغ مزروع بالمسامير ، فكان الدب يشمشمه قليلا ثم يلمسه بحذر فيخز يديه ، فيغضب ويدفعه بشدة ، فيشتد عليه الالم . وعندئذ يصيبه سعار فلا يزال ينقض على البرميل وهو يزمجر حتى

ينتزعوا من الوحش المسكين مادة غضبه الذى لا طائل منه . وكان يحدث احيانا ان يسرجوا زوجا من الدببة فى عربة ويجلسو فيها الضيوف طوعا او كراهية ، ثم يطلقونهم مع الدببة لتركض الى حيث يشاء الله . اما المزحة المفضلـــة لدى كيريـــلا بتروفيتش فكانت التالية .

كانوا يحبسون الدب الجائع فى غرفـــة خاويـــة ويقيدونه بحبل مربوط الى حلقة مثبتة فى الحائط . وكان الحبل بطول الغرفة تقريبا ، بحيث لا يظل فى الغرفة مكان آمن من بطش الوحش المرعب الا الركن المقابل . وفى العادة كانوا يأتون بشخص لا علم له بالامر الى باب الغرفة ، ثم يدفعونه فجاة عبر الباب الى الدب ، ثم يغلقون الباب ، ويتركون الضحية البائسة وجها لوجه مع وحش البرارى الاشعث . وكان الضيف المسكين ، بعد ان تتمزق اطراف ردائه ويسيل الدم من جروحه ، يجد بسرعة الركن الآمن ، ولكنه احيانـــا يضطر الى الوقوف ثلاث ساعات كاملة ، ملتصقا بالجدار ، يرقب الوحش الهائج على قيد خطوتين منه وهو يزأر ويثب ويشب على رجليه الخلفيتين ، ثم ينقض محاولا الوصول اليه . تلك هى صورة اللهو النبيل للاقطاعى الروسى !

وبعد عدة ايام من وصول المدرس تذكره ترويكورف ، وقرر ان يقدم له فروض الضيافة فى غرفة الدب ، ومن اجل ذلك دعاه ذات صباح ، وسار به عبر اروقـــة مظلمة ، ثم انفتح فجاة باب جانبى ، وظهر خادمان دفعا بالفرنسى خلال الباب ، ثم اغلقاه بالمفتاح . وما ان افاق المدرس من المفاجاة حتى راى الدب المقيد . بدا الوحش

ينفخ فى منخاريه وهو يشمشم ضيفه على البعد ، ثم وقف فجأة على رجليه الخلفيتين وهجم عليه . ولم يرتبك الفرنسى او يهرب ، بل انتظر الهجوم . واقترب الدب ؛ فأخرج ديفورج من جيبه فردا صغيرا ، دسه فى اذن الوحش الجائع واطلق النار ، فخر الدب صريعا . واسرع الجميع الى هناك وفتحوا الباب ، ودخل كيريلا بتروفيتش مصعوقا لهذه النهاية التى انتهت اليها مزحته .

وطلب كيريلا بتروفيتش باصرار توضيحا للامر كله ، فمن ذا الذى حذر ديفورج من المزحة التى دبرت له ، او لماذا كان معه فرد محشو فى جيبه ، وارسل يستدعى ماشا . وجاءت ماشا مهرولة وترجمت للفرنسى اسئلة ابيها .

— اننى لم اسمع شيئا عن الدب ، — اجاب ديفورج ، — ولكنى دائما احمل معى فردا ، لاننى لست مستعدا ان اتحمل اهانة ، لا يسمح لى وضعى ان اطلب اعتذارا عنها .

ونظرت اليه ماشا مبهورة ، ثم ترجمت اجابته لكيريلا بتروفيتش الذى لم ينبس ، ثم امر بحمل الدب وسلخ فروته ، وبعد ذلك التفت الى اتباعه وقال : — ارأيتم هذا الهمام ؟ ! لم يجبن اى والله لم يجبن ! ومنذ تلك اللحظة احب ديفورج ، ولم يفكر ان يختبره بعد ذلك .

ولكن هذا الحادث ترك انطباعا اقوى لدى ماريا كيريلوفنا واثار خيالها . لقد رات الدب الصريع ، وديفورج يقف فوق رأسه هادئا ويتكلم معها باطمئنان . وعرفت ان الشجاعة والاعتزاز الأبى بالنفس ليست

قاصرة على طبقة واحدة . ومن يومها اصبحت تولى المدرس الشاب احتراما اخذ يزداد ساعة بعد ساعة . ونشأت بينهما شبه علاقة ، فقد كان لماشا صوت رائع ومواهب موسيقية كبيرة ، فتطوع ديفورج باعطائها دروسا . وبعد ذلك ليس من الصعب على القارىء ان يخمن ان ماشا وقعت فى حبه ، ولمّا تعترف بذلك بينها وبين نفسها بعد .

الجزء الثانى

الفصل التاسع

قبيل العيد بدأ الضيوف يتوافدون ، فنزل بعضهم فى منزل السيد والاجنحة الخارجية ، وبعضهم نزل عند الوكيل ، والبعض الثالث عند القس ، والبعض الرابع عند اغنياء الفلاحين . وكانت الاصطبلات غاصة بجياد السفر ، والافنية والحظائر مزدحمة بالعربات المختلفة . وفى الساعة التاسعة صباحا رنت الاجراس داعية الى القداس ، فتقاطر الجميع نحو الكنيسة الجديدة المشيدة من الحجر على نفقة كيريلا بتروفيتش والمزدانة بهباته التى كان يقدمها كل عام . وتجمع جمهور ضخم من المصلين الموقرين ، حتى ان بسطاء الفلاحين لم يجدوا لهم مكانا داخل الكنيسة فوقفوا على سلمها وفى الفناء . ولم يبدأ القداس فقد كانوا ينتظرون وصول كيريلا بتروفيتش ، ثم جاء ممتطيا عربة تجرها ستة خيول ، وتقدم ليشغل مكانه تحفه المهابة وتصحبه ماريا كيريلوفنا التى كانت محط انظار الرجال والنساء ، فاعجب الفريق الاول بجمالها ، اما الفريق الثانى فتفحص ملابسها باهتمام . وبدأ القداس ، واصطف المرتلون

المنزليون جوقة ، وحتى كيريلا بتروفيتش نفسه ردد مقاطع الترتيل ، وصلى دون ان يتلفت يمنة او يسرة ، ثم طاطأ رأسه فى خشوع متكبر عندما دعى الشماس بصوت عال **لمشيد هذا المعبد** .

وانتهى القداس فكان كيريلا بتروفيتش اول من اقترب من الصليب ثم تبعه الجميع ، وبعد ذلك تقدم الجيران نحوه ليحيوه ، واحاطت السيدات بماشا . وفى طريقه الى خارج الكنيسة دعا كيريلا بتروفيتش الجميع الى تناول الغداء فى داره ، ثم جلس فى العربة متوجها الى المنزل ، فانطلق الجميع فى اثره . وامتلأت الغرف بالضيوف . وكانت تفد وجوه جديدة كل لحظة ، وتشق طريقها الى السيد بمنتهى الصعوبة . وجلست السيدات فى شبه حلقة موقرة ، فى ازياء مستعملة وغالية متأخرة عن الموضة ، ومزينات بالجواهر واللآلىء ، وتكدس الرجال بالقرب من الفودكا والكافيار وتحدثوا فيما بينهم مثيرين ضجة متعددة الاصوات . وفى الصالة اعدوا مائدة لثمانين شخصا . وجرى الخدم هنا وهناك وهم يرصون زجاجات الخمر والدوارق ويمدون المفارش . واخيرا أعلن الوصيف : المائدة معدة . . فكان كيريلا بتروفيتش اول من نهض ليجلس الى المائدة ، ثم سارت خلفه السيدات ، واحتللن مقاعدهن بعظمة مراعيات نوعا من الاقدمية ، اما الآنسات فتلاصقن بعضهن ببعض كقطيع خجول من الماعز ، واختارت كل منهن مقعدها بجوار الاخرى . وفى الجانب المقابل لهن جلس الرجال . وفى طرف المائدة جلس المدرس بجوار الصغير ساشا .

واخذ الخدم يوزعون الاطباق حسب رتب الضيوف

مسترشدين فى حالة الغموض بتخمينات لافاتير * فلم يخطئوا تقريبا فى معظم الاحوال . واختلط رنين الاطباق والملاعق بحديث الضيوف الصاخب . واستعرض كيريلا بتروفيتش مائدته بنظرة مرحة واستمتع تماما بسعادة المضيف الكريم . . . وفى هذه اللحظة دخلت الفناء عربة تجرها ستة خيول .

وسأل رب الدار :

— من هذا ؟

— انه انطـــون بافنوتيتش ، — اجابتـــه عدة اصوات . . .

وفتح الباب واندفـــع الى غرفـــة الطعام انطون بافنوتيتش سبيتسين ، رجل بدين ، فى الخمسين من عمره ، ذو وجه مستدير مجدور ، وذقن تتدلى تحتها طبقتان من الشحم ، واخذ ينحنى ويبتسم وقد استعد لتقديم اعتذاره . ولكن كيريلا بتروفيتش صاح :

— احضروا الاطباق . . . على الرحب والسعة يا انطون بافنوتيتش ، اجلس وخبرنا لماذا تغيبت عن قداسى وتأخرت على الغداء . ان هذا ليس من شيمك ، فأنت رجل متعبد ومولع بالاكل ايضا .

واجاب انطون بافنوتيتش وهو يثبت المنشفة فى عروة القفطان الاصفر بلون العدس :

— مذنب ، مذنب يا سيدى كيريلا بتروفيتش . لقد خرجت مبكرا ، ولكن لم اكد اقطع عشر فراسخ حتى انفلق

* لافاتير (١٧٤١–١٨٠١) كاتب سويسرى ، حاول فى كتابه «علم تعابير الوجوه» تحديد طباع الشخص على اساس ملامح وجهه . **الناشر** .

إطار العجلة الامامية ، فماذا افعل ؟ لحسن الحظ لم نكن بعيدين عن القرية ، ولكن الى ان وصلنا اليها ، ثم الى ان وجدنا الحداد ، ثم الى ان اصلحناها كيفما اتفق مرت ثلاث ساعات . ما باليد حيلة . ولم اجرؤ على اختيار اقصر الطرق عبر غابة كيستينيوفكا ، فلجأت الى الدوران حولها . . .

وقاطعه كيريلا بتروفيتش :

— ايه يبدو انك لست من معشر الشجعان . . . ماذا تخاف ؟

— ماذا اخاف ؟ كيف ؟ ودوبروفسكى ؟ قد اقع فى قبضته بين لحظة واخرى ، وهو فتى محنك لا يدع احدا يفلت من يديه ، اما انا بالذات فسيسلـــخ جلدى مرتين .

— ولماذا يا اخى يخصك بهذا التمييز ؟

— كيف لماذا يا سيدى كيريلا بتروفيتش ؟ بسبب قضية المرحوم اندريه جافريلوفيتش . ألست انا الذى اثبت لأجل خاطرك ، اعنى وفقا للضمير والعدالة ، ان دوبروفسكى يملك كيستينيوفكا عن غير وجه حق وفقط بسبب تسامحكم . وقد وعد المرحوم (أسكنه الله فسيح جناته) ان يصفى حسابه معى بطريقته الخاصة ، وسيفي ابنه على الأرجح بوعد ابيه . وحتى هذه اللحظة سترها الله ، فلم ينهبوا منى غير مخزن الحبوب ، وما يدريك لعلهم ينقضون على دارى بالذات .

وقال كيريلا بتروفيتش ملاحظا :

— وسيجدون فى الدار كنزهم . . . لا بد ان العلبة الحمراء ملأى حتى آخرها .

– رحماك يا سيدى كيريلا بتروفيتش . . كانت ملأى والآن فارغة !

– كفاك كذبا يا انطون بافنوتيتش ، لن تخدعنا . . . اين تنفق نقودك ، اذا كنت تعيش فى منزلك عيشة الخنازير ولا تدعو احدا ، وتنهب فلاحيك . . طبعا ليس امامك الا ان تكنز النقود لا اكثر .

ودمدم انطون بافنوتيتش وهو يبتسم :

– انت دائما تحب المزاح يا سيدى كيريلا بتروفيتش ، غير اننا افلسنا ، اي والله ، – وابتلع انطون بافنوتيتش مزحة رب الدار وغطى عليها بقطعة دسمة من شطيرة .

وانصرف عنه كيريلا بتروفيتش والتفت الى رئيس الشرطة الجديد الذى حلّ فى ضيافته للمرة الاولى والجالس على الطرف الآخر للمائدة بجوار المدرس :

– وانت ، هل ستقبض على الاقل على دوبروفسكى يا حضرة الرئيس ؟

وجبن الرئيس وانحنى وابتسم وتعلثم ثم اخيرا قال :

– سنبذل جهدنا يا صاحب المعالى .

– احم ! سنبذل جهدنا ! منذ امد بعيد وهم يبذلون جهودهم ، ومع ذلك لا فائدة . ثم حقا ، لماذا القبض عليه ؟ ان جرائم دوبروفسكى نعمة لضباط الشرطة ، اذ بسببها يسافرون هنا وهناك ، ويجرون التحقيقات ويستغلون العربات . وبعد ذلك يضعون النقود فى جيوبهم ، فكيف يقضون على رب النعمة هذا ؟ أليس كذلك يا حضرة الرئيس ؟

واجاب الرئيس المرتبك للنهاية :

– عين الحقيقة يا صاحب المعالى .

وقهقه الضيوف .

وقال كيريلا بتروفيتش :

– احب فيك الصراحة . ولكنى آسف على رئيسنا المرحوم تاراس اليكسييفيتش . لو لم يحرقوه لكانت الاحوال فى ناحيتنا اهدأ . ما هى اخبار دوبروفسكى ؟ اين شوهد آخر مرة ؟

واجاب صوت نسائى غليظ :

– عندى يا كيريلا بتروفيتش . . لقد تناول عندى الغداء يوم الثلاثاء الماضى . . .

واتجهت انظار الجميع الى أنّا سافيشنا جلوبوفا ، تلك الارملة البسيطة ، والمحبوبة من الجميع لشخصيتها الطيبة المرحة . واستعدوا لسماع قصتها وقد استحوذ عليهم الفضول .

– اريد ان اخبركم بأننى ارسلت وكيلى منذ ثلاثة اسابيع الى البريد ليرسل نقودا لابنى فانيوشا . اننى لا ادلل ابنى ، بل لا استطيع ان ادلله وان كنت ارغب فى ذلك لكنكم تعلمون ان ضابط الحرس يجب ان يحيا حياة لائقة به ، ولذلك اعطى لفانيوشا كل ما استطيع من دخلى القليل . وهكذا ارسلت اليه ألفى روبل . ومع ان دوبروفسكى طرأ على ذهنى اكثر من مرة ، الا اننى قلت لنفسى : المدينة ليست بعيدة ، فالمسافة لا تزيد على سبعة فراسخ وربما يمر الأمر على خير . واذا بوكيلى يعود فى المساء شاحبا ، ممزق الثياب وبدون العربة ، فشهقت : «ما هذا ؟ ماذا حدث لك ؟» فقال : سيدتى

أنّا سافيشنا ، نهبنى اللصوص وكادوا يقتلوننى . دوبروفسكى نفسه كان هناك ، واراد ان يشنقنى ثم راف بى واطلق سراحى ، ولكنه اخذ كل شيء ، حتى الحصان والعربة . وصعقت : يا الهى ، ماذا سيفعل ابنى فانيوشا ؟ ولم يكن بيدى حيلة ، فكتبت له رسالة شرحت له فيها كل شيء ، وبعثت اليه بركاتى دون درهم واحد .

ومر اسبوع ثم آخر ، واذا بعربة تصل الى فناء دارى ويخرج منها جنرال يطلب مقابلتى . اهلا وسهلا . ودخل رجل فى حوالى الخامسة والثلاثين ، اسمر ، اسود الشعر ، ذو شوارب ولحية ، نسخة طبق الاصل من كولنيف * ، وقدم نفسه على انه صديق المرحوم زوجى ايفان اندريفيتش وزميله فى الخدمة . وحسبما قال فقد كان مارا بالمكان ، ولما علم اننى هنا لم يستطع الا ان يزور ارملته . واكرمته مما رزقنى الله . وتحدثنا فى شتى الامور ، واخيرا وصلنا الى دوبروفسكى . وهنا حكيت له عن مصيبتى . وتجهم جنرالى ثم قال : هذا امر غريب ، لقد سمعت ان دوبروفسكى لا ينهب كل الناس بل الاغنياء المعروفين فقط ، وحتى هؤلاء لا ينهبهم تماما ، بل يترك لهم نصيبا . وليس هناك من يتهمه بارتكاب جرائم القتل . يبدو ان هناك خداعا فى هذه الواقعة . استدعى وكيلك لو سمحت . وارسلت استدعيه فجاء . وما ان رأى الجنرال حتى جمد فى مكانه . «خبرنى يا اخى

---

* هو جنرال روسى احرز عدة انتصارات رائعة ابان الحرب ضد السويديين فى سنتى ١٨٠٨–١٨٠٩ . **الناشر** .

كيف سطا عليك دوبروفسكى وكيف اراد ان يشنقك ؟» . ارتعش وكيلى ثم ارتمى على قدمى الجنرال : «مذنب يا سيدى ، الشيطان اغوانى . لقد كذبت» . فقال الجنرال : «ما دام الامر كذلك ، فلتقص على السيدة الحادثة كما وقعت ، وسوف استمع اليك» . ولم يستطع الوكيل ان يسيطر على نفسه ، فواصل الجنرال : «حسنا ، قل : اين قابلت دوبروفسكى ؟» — «عند شجرتى الصنوبر يا سيدى ، عند شجرتى الصنوبر» . — «وماذا قال لك ؟» — «سألنى : من انت ، والى اين ذاهب ، ولماذا ؟» — «حسنا ، وبعد ذلك ؟» — «بعد ذلك طلب الرسالة والنقود» — «ثم ؟» — «اعطيته الرسالة والنقود» — «وهو ، ماذا فعل هو ؟» — «مذنب يا سيدى» — «وهو ، ماذا فعل ؟» — «اعاد إلىّ الرسالة والنقود وقال : «اذهب فى رعاية الله ، وسلم ما معك فى مكتب البريد» — «ثم ؟» — «مذنب يا سيدى» — «سأصفى الحساب معك يا هذا — قال الجنرال بصوت رهيب — اما انت يا سيدتى فلتأمرى بتفتيش صندوق هذا النصاب ، ثم سلميه لى وسألقنه درسا . عليك ان تعلمى ان دوبروفسكى نفسه كان ضابطا فى الحرس ، ولا يحب الاساءة الى رفيق» . وخمنت من يكون معاليه ، فلم يكن الامر يحتاج الى كلام . وربط الحوذية وكيلى الى مقعد السائق ، ثم وجدنا النقود . وتغدى الجنرال عندى ثم رحل بسرعة واخذ معه الوكيل . وفى اليوم التالى وجدنا وكيلى مقيدا الى شجرة بلوط ، ومجردا من كل شيء .

واستمع الجميع فى صمت الى قصة أنّا سافيشنا ،

وخاصة الآنسات ، وشعرت الكثيرات منهن بالميل نحو دوبروفسكى ووجدن فيه صورة البطل الرومانسى ، وخاصة ماريا كيريلوفنا ذات الخيال الجامح والمشبعة بروايات رادكليف المليئة بالرعب الغامض .

وسأل كيريلا بتروفيتش :

— واذن فانت تعتقدين يا انّا سافيشنا ان دوبروفسكى نفسه كان عندك . انك مخطئة تماما . لست ادرى من زارك ، ولكنه ليس دوبروفسكى .

— ومن اذن يا سيدى غير دوبروفسكى يخرج الى الطرق ويستوقف المارة ويفتشهم ؟

— لست ادرى ، ولكنه ليس دوبروفسكى بالتأكيد . اننى اذكره عندما كان طفلا ، ولست ادرى هل اسودّ شعره ام لا ، ولكنه كان ايامها صبيا ذا شعر اشقر مجعد ، واعلم بالتأكيد ان دوبروفسكى اكبر من ابنتى ماريا بخمس سنوات ، وبالتالى فعمره الآن حوالى ٢٣ سنة وليس ٣٥ .

— بالضبط تماما يا صاحب المعالى — قال الرئيس — معى الآن فى جيبى اوصاف فلاديمير دوبروفسكى ، ومكتوب فيها بالضبط ان عمره ٢٣ سنة .

— آ . . . — قال كيريلا بتروفيتش — اقراها لنا بالمناسبة ، وسوف نصغى اليك ، فلن يضيرنا ان نعرف اوصافه ، ربما تقع عليه ابصارنا ، وساعتها لن يفلت .

واخرج الرئيس من جيبه ورقة قذرة للغاية وبسطها بعظمة ، واخذ يقرأ بصوت منغم :

— «اوصاف فلاديمير دوبروفسكى طبقا لرواية رجال حاشيته السابقين .

«**العمر** : ٢٣ سنة ، **الطول** : متوسط ، **الوجه** : نظيف ، **الذقن** : حليق ، **العينان** : عسليتان ، **الشعر** : فاتح ، **الانف** : مستقيم . **علامات مميزة : لا يوجد**» .

— هل هذا فقط كل ما لديك ؟ — قال كيريلا بتروفيتش .

— فقط . . . — اجاب الرئيس وهو يطوى الورقة .

— اهنئك يا حضرة الرئيس . يا لها من مستندات ! بمثل هذه الاوصاف لن يصعب عليكم العثور على دوبروفسكى ! من ذا الذى طوله ليس متوسطا ، ومن ذا الذى شعره غير فاتح ، او انفه غير مستقيم ، او عيناه غير عسليتين ! أقسم انك قد تتكلم ثلاث ساعات مع دوبروفسكى نفسه دون ان تخمن مع من جمعك القدر . ما اذكى ادمغة الموظفين !

ووضع الرئيس ورقته فى جيبه بخنوع ، وبدأ فى صمت يأكل الاوزة مع ورق الكرنب ، بينما كان الخدم قد داروا عدة مرات على الضيوف مالئين لكل منهم كأسه . وفتحت عدة زجاجات من خمر «جورسكى» و«تسيمليانسكى» بفرقعة ، فقوبلت بارتياح على انها شمبانيا . وبدأت الوجوه تحمر ، واصبحت الاحاديث اكثر رنينا واضطرابا ومرحا .

وواصل كيريلا بتروفيتش :

— كلا ، لن نرى رئيسا مثل المرحوم تاراس اليكسييفيتش ! لم تكن تنقصه الحنكة او الدراية . من

المؤسف انهم احرقوه ، والا لما افلت احد من العصابة . لو كان حيا لأمسك بهم جميعا . حتى دوبروفسكي نفسه ما كان ليستطيع ان يفلت او يفدى نفسه ، فان تاراس اليكسييفيتش كان سيأخذ منه الفدية ، ولكنه لا يطلق سراحه . تلك كانت طبيعة المرحوم . ليس هناك حل آخر سوى ان اتدخل فى الامر واهجم على العصابة مع رجالى . وفى البداية سأسلح عشرين رجلا وانظف بهم غابة اللصوص . ان رجالى شجعان ، كل منهم يصطاد الدب بمفرده ، ولم يجبنوا امام قطاع الطريق .

— هل دبكم بخير يا سيدى كيريلا بتروفيتش ؟ — سأل انطون بافنوتيتش وقد تذكر عند هذه الكلمات صاحبه الاشعث وكذلك بعض المزحات التى كان هو ايضا ضحيتها فى وقت ما .

— ميشا * اسلم روحه لبارئها — اجاب كيريلا بتروفيتش — لقد مات ميتة مجيدة على يد العدو ، وها هو المنتصر هناك — واشار كيريلا بتروفيتش الى ديفورج — لقد انتقم لك ، اتذكر ؟

— كيف لا اذكر — قال انطون بافنوتيتش وهو يحك جلده — اذكر جيدا . . اذن فميشا قد مات . . انى آسف عليه ، اى والله آسف ! كم كان مضحكا ! كم كان ذكيا ! دب لا مثيل له . ولماذا قتله المسيو ؟

واخذ كيريلا بتروفيتش يقص بتلذذ عظيم مأثرة رجله الفرنسى ، فقد كان يمتاز بموهبة سعيدة وهى ان يتباهى بكل ما يحيط به . وسمع الضيوف باهتمام

* يطلقون فى روسيا اسم «ميشا» على الدب تدليلا. (المترجم .)

قصة مصرع ميشا واخذوا ينظرون مبهورين الى ديفورج الذى ظل جالسا فى مكانه هادئا ، يوجه لتلميذه الجذل الملاحظات الاخلاقية وهو لا يحدس ان الحديث كان يدور عن شجاعته .

وانتهى الغداء الذى استمر حوالى ثلاث ساعات ، ووضع المضيف منشفته على المائدة ، فنهض الجميع وتوجهوا الى غرفة الاستقبال حيث كان فى انتظارهم القهوة وورق اللعب والشرب المتواصل ، الذى كانت بدايته المجيدة فى غرفة الطعام .

الفصل العاشر

فى حوالى السابعة مساء اراد بعض الضيوف ان يرحلوا ، ولكن رب الدار وقد انتشى من الخمر اعطى اوامره باغلاق البوابة واعلن انه لن يدع احدا يرحل قبل الصباح . وسرعان ما صدحت الموسيقى ، وفتحت ابواب القاعة وبدأت حفلة الرقص . وجلس رب الدار وضيوفه المقربون فى الركن واخذ يشرب الكأس تلو الكأس ويرقب مرح الشباب بغبطة . وجلست العجائز يلعبن الورق . وكان الراقصون من الرجال اقل من النساء كما هو الحال دائما فى اى مكان لا تعسكر فيه احدى فرق الفرسان ، فجند جميع من يصلح من الرجال لهذا الغرض . وتميز المدرس بين الجميع ورقص اكثر الكل ، واختارته جميع الآنسات مراقصا ، واكتشفن انه من السهل تأدية رقصة الفالس معه ، ودار عدة دورات وهو يراقص ماريا كيريلوفنا ، وراقبتهما اعين الفتيات

الساخرة . وقرب منتصف الليل انهى رب الدار حفلة الرقص اذ شعر بالتعب ، وامر بتقديم العشاء بينما انصرف هو لينام .

واعطى غياب كيريلا بتروفيتش للجميع مزيدا من الحرية والحركة فتجرأ الراقصون على شغل اماكنهم بجوار السيدات ، وضحكت الفتيات وتبادلن الهمس مع جاراتهن ، وتحدثت السيدات بصوت عال عبر المائدة . اما الرجال فكانوا يشربون ويتناقشون ويقهقهون ، وباختصار كان العشاء مرحا للغاية وخلّف فى النفوس ذكريات طيبة كثيرة .

لكن واحدا فقط لم يشترك فى هذه الفرحة الجماعية الا وهو انطون بافنوتيتش ، فقد جلس فى مكانه عابسا صامتا ، واكل وهو شارد الذهن ، وبدا قلقا للغاية . لقد اثارت مشاعره تلك الاحاديث التى دارت عن قطاع الطرق . وسنرى حالا انه كان هناك سبب وجيه لخوفه منهم .

لم يكذب انطون بافنوتيتش او يرتكب اثما عندما دعا ربه ليكون شاهدا على ان علبته الحمراء كانت خاوية . فقد كانت العلبة الحمراء خاوية فعلا ، اذ انتقلت النقود التى كانت فى وقت ما مخبأة فيها الى حقيبة جلدية ربطها على صدره تحت القميص . وفقط بفضل هذا الاجراء الاحتياطى استطاع ان يطمئن شكه فى كل انسان وخوفه الدائم . ولما كان مضطرا الى المبيت فى دار غريبة ، فقد خشى ان يخصصوا له مكانا فى غرفة منعزلة يسهل على اللصوص اقتحامها . واخذ يفتش بعينيه عن رفيق يعتمد عليه ، فوقع اختياره اخيرا على ديفورج .

والذى حدد هذا الاختيار هو مظهر ديفورج الدال على القوة ، والاكثر من ذلك شجاعته التى تجلت عند لقائه مع الدب ، هذا الدب الذى لم يكن انطون بافنوتيتش المسكين يتذكره الا ويشعر بالقشعريرة تسرى فى بدنه . وعندما غادر الضيوف المائدة اخذ انطون بافنوتيتش يحوم حول الفرنسى الشاب ، ويتنحنح ويسعل ، واخيرا خاطبه موضحا :

— احم . . احم . . الا يمكن يا مسيو ان ابيت فى غرفتك الصغيرة لانه ، اذا اردت الحقيقة . . .

فسأله ديفورج وهو ينحنى له باحترام :

— Que désire monsieur ?*

— اوه ، يا للمصيبة ، لم تتعلم الروسية بعد يا مسيو . جى فى موا شى فو كوشيه ** ، هل تفهمنى ؟

اجاب ديفورج :

— Monsieur, très volontiers, veuillez donner des ordres en conséquence.***

وفى الحال انطلق انطون بافنوتيتش لعمل الترتيبات اللازمة ، وهو مسرور للغاية لمعلوماته فى مجال اللغة الفرنسية .

ودع الضيوف بعضهم بعضا ، واتجه كل الى الغرفة المخصصة له . وذهب انطون بافنوتيتش مع المدرس الى الجناح . كانت الليلة مظلمة ، فاضاء ديفورج طريقهما

---

* ماذا تريد يا سيدى ؟

** اريد ان ابيت فى غرفتك .

*** بكل سرور يا سيدى . اصدر الاوامر المناسبة لو سمحت .

بمصباح ، وسار خلفه انطون بافنوتيتش فى غاية النشاط . وكان احيانا يضم الى صدره الحقيبة المخباة لكى يتأكد ان النقود ما زالت موجودة .

وعندما دخلا الى الجناح اضاء المدرس شمعة ، وبدا كلاهما يخلعان ملابسهما . وفى هذه الاثناء اخذ انطون بافنوتيتش يجوس فى الغرفة ويفحص الاقفال والنوافذ ويهز راسه لنتيجة الفحص غير المطمئنة . لقد وجد الباب لا يغلقه سوى مرتاج ، وليس للنوافذ اطر مزدوجة . وحاول ان يشتكى لديفورج من هذا الامر ، غير ان معرفته للفرنسية كانت اضيق من ان تتسع لمثل هذا الحديث المعقد فلم يفهمه الفرنسى ، واضطر انطون بافنوتيتش الى الكف عن شكواه . وكان فراشاهما متقابلين . وعندما استلقيا عليهما اطفأ المدرس الشمعة .

— بوركوا فو توشى ، بوركوا فو توشى * — صرخ انطون بافنوتيتش وصرف الفعل الروسى (تشيت) كيفما اتفق على الطريقة الفرنسية — اننى لا استطيع دورمير ** فى الظلام .

ولم يفهم ديفورج صرخته فتمنى له ليلة سعيدة .

ودمدم سبيتسين وهو يتلفلف بالغطاء :

— كافر ملعون . . لماذا اطفأ الشمعة . . هذا

---

* لماذا اطفاتها ، لماذا اطفاتها ؟ — فعل (توشيت) الروسى يعنى اطفا ، اما فعل (توشير) الفرنسى فمعناه : لمس . **(المترجم .)**

** ان انام . **(المترجم .)**

اسوأ بالنسبة له ، فانا لا استطيع النوم دون ضوء . . يا مسيو ، يا مسيو — ردد سبيتسين — جى فى افيك فو بارلى * . — ولكن الفرنسى لم يجب وسرعان ما علا شخيره .

وفكر انطون بافنوتيتش : «هذا الفرنسى الوغد يشخر ، بينما لا يخطر النوم لى على بال . . اخشى ان يدخل اللصوص خلال الباب المفتوح او ينفذوا عبر النوافذ ، ولن يستيقظ هذا الوغد ولو اطلقت المدافع» .

— مسيو . . يا مسيو . . — فلتذهب الى الشيطان !

وصمت انطون بافنوتيتش ، فقد تغلب التعب ونشوة الخمر شيئا فشيئا على خوفه وبدأ يغفو ، وسرعان ما راح فى سبات عميق .

كان القدر يخبئ له يقظة غريبة . فلقد شعر خلال النوم بشخص ما يشده بهدوء من ياقة قميصه . وفتح انطون بافنوتيتش عينيه وفى الضوء الشاحب لصباح خريفى رأى امامه ديفورج : كان الفرنسى ممسكا فى احدى يديه بمسدس صغير ، ويفك باليد الاخرى الحقيبة الغالية . وشل الذهول انطون بافنوتيتش . . ثم تمتم بصوت متهدج :

— كسكى سى مسيو ، كسكى سى ؟ **

— صه ، اخرس — اجاب المدرس بلغة روسية صرفة — اخرس والا هلكت . . اننى دوبروفسكى .

---

* اريد ان اتحدث معك .

** ما هذا يا سيدى ، ما هذا ؟

الفصل الحادى عشر

فليسمح لنا القارئ الآن ان نفسر له الاحداث الاخيرة فى قصتنا وذلك بشرح الظروف السابقة ، والتى لم يسعفنا الوقت للكلام عنها من قبل .

فى محطة (. . .) ، وفى منزل ناظر المحطة الذى اشرنا اليه سابقا جلس فى الركن احد المسافرين . وكان مظهره يدل على الخضوع والصبر ، وعلى ان صاحبه اما رجل من غير طبقة النبلاء واما اجنبى ، اى رجل ليست له كلمة مسموعة على الطرق البريدية . وكانت عربته تقف فى الفناء فى انتظار التشحيم وفيها حقيبة صغيرة ، دليل ضعيف على ثروة ضئيلة للغاية . ولم يطلب المسافر شايا او قهوة ، بل اخذ يتطلع خلال النافذة ويصفر ، مما اثار سخط زوجة الناظر ، التى كانت تجلس خلف الحاجز .

— هل قد بلانا الله بمصفراتى — قالت هامسة — انظر كيف يصفر . . . فلتخطفه مصيبة ، هذا الكافر الملعون .

فقال الناظر :

— وماذا هناك ؟ فليصفر كما يحلو له .

— ماذا هناك ؟ ! — قالت الزوجة الغاضبة معارضة — الا تعرف نذير الشؤم ؟

— اى نذير شؤم ؟ ان الصفير يذهب بالنقود ؟ ايه يا باخومفنا . . ماذا يهمنا من الصفير او عدمه ما دمنا بلا نقود على اى حال .

— دعه يرحل يا سيدوريتش . . . ما مصلحتك من ابقائه . اعطه خيولا وليذهب الى الشيطان .

— فلينتظر قليلا يا باخومفنا . ليس لدينا فى الاصطبل الا ثلاثة اطقم خيول ، والطاقم الرابع يستريح * . لا اريد ان اجر على نفسى المتاعب بسبب هذا الفرنسى ، فربما وصل الآن مسافرون من الاعيان . ها ! بالضبط ، ها هم يركضون . . او — وه . . يركضون بسرعة . . ربما يكون جنرال ؟

وتوقفت العربة عند السلاملك ، وقفز خادم من مقعد الحوذى وفتح الباب ، وما هى الا لحظة حتى دخل الى الناظر شاب يرتدى معطفا عسكريا وعمرة بيضاء ، ودخل خلفه خادم يحمل علبة ، وضعها على النافذة .

وقال الضابط للناظر بلهجة آمرة :

— اعطنى خيولا !

فاجاب الناظر :

— حالا . . اعطنى لو سمحت بطاقة السفر . **

— ليس معى بطاقة . . .اننى مسافر فى طريق فرعى . . . الا تعرف مَنْ انا ؟

وارتبك الناظر ، ثم انطلق يستعجل الحوذية . واخذ

* يتكون الطاقم من ثلاثة خيول ، والعربة التى تجرها ثلاثة خيول تسمى (ترويكا) وكانت وسيلة انتقال شائعة فى روسيا فى ذلك العهد . (**المترجم**) .

** قبل مد السكك الحديدية كان الانتقال من مكان الى آخر يتم فى روسيا القيصرية بواسطة عربات تحمل البريد والمسافرين وتسير على طرق رئيسية محددة . ويجرى استبدال الجياد المتعبة عند كل محطة بعد تقديم بطاقة السفر اللازمة . (**المترجم**) .

الشاب يروح جيئة وذهابا فى الغرفة ، ثم عبر الحاجز وسأل زوجة الناظر بصوت خافت : من هذا المسافر ؟

واجابت زوجة الناظر :

– الله وحده يعلم . . انه احد الفرنسيين . . وها هو ينتظر الخيول خمس ساعات ويصفر . . لقد اضجرنى هذا الملعون .

وتوجه الشاب إلى المسافر وسأله بالفرنسية :

– الى اين تنوى الذهاب ؟

فأجاب الفرنسى :

– الى أقرب مدينة ، ومنها سأتجه الى احد الاقطاعيين ، الذى استأجرنى غيابيا كمدرس . وقد ظننت أننى سأصل اليوم الى مقصدى ، ولكن يبدو ان لسيادة الناظر رأيا آخر . من الصعب الحصول على الخيول فى هذه البقعة يا سيدى الضابط .

وسأل الضابط :

– وعند اى إقطاعى ستعمل هنا ؟

فأجاب الفرنسى :

– عند السيد ترويكورف .

– عند ترويكورف ؟ من هذا الترويكورف ؟

– Ma foi, monsieur * . . . لقد سمعت عنه اشياء غير طيبة كثيرة . يقولون إنه سيد صلب الرأس وقاس فى معاملته لمستخدميه ، وان احدا لا يستطيع معاشرته ، وان الجميع يرتعدون عند سماع اسمه ، وانه مع المدرسين يرفع الكلفة ، بل لقد جلد اثنين منهم حتى الموت .

* فى الحقيقة يا سيدى . . .

– حنانيك . . . ومع ذلك قررت ان تعمل لدى هذا الوحش ؟

– وماذا افعل يا سيدى . . انه يقترح راتبا مغريا ، ثلاثة آلاف روبل فى السنة وكل ما يلزم . ربما كنت اسعد حظا من الآخرين . ان لى اما عجوزا سوف ارسل لها نصف الراتب لتعيش به ، ومن الباقى يمكننى خلال خمس سنوات ان ادخر رأسمالا صغيرا يكفى لاستقلالى فى المستقبل ، وساعتها bonsoir * سأرحل إلى باريس وانخرط فى التجارة .

وسأله الضابط :

– هل يعرفك احد من منزل ترويكورف ؟

– لا احد – اجاب المدرس – لقد استأجرنى هو من موسكو عن طريق احد معارفه الذى رشحنى اليه بدوره طاهيه الفرنسى اخى فى الجنسية . وينبغى ان اخبرك بأنه لم يكن فى نيتى ان اصير مدرسا ، بل حلوانيا ، ولكننى علمت ان مهنة المدرس فى بلادكم اربح بكثير . . .

واستغرق الضابط فى التفكير ، ثم قاطع الفرنسى قائلا :

– اسمع . . ما رأيك لو اقترحت عليك عشرة آلاف روبل عدا ونقدا بدلا من عملك هذا بشرط ان تعود فى التو واللحظة إلى باريس ؟

ونظر الفرنسى الى الضابط مذهولا ثم ابتسم وهز رأسه .

* وداعا .

– الخيول معدة – قال الناظر وهو يدخل .

واكد الخادم نفس الامر .

– لحظة واحدة – قال الضابط – اخرجا وانتظرانى دقيقة . . . – وخرج الناظر والخادم فواصل كلامه بالفرنسية . – انا لا امزح . . استطيع ان اعطيك عشرة آلاف ولا اريد منك سوى رحيلك واوراقك .

وما ان قال هذا حتى فتح العلبة واخرج عدة رزم من الاوراق المالية .

وجحظت عينا الفرنسى ، ولم يعرف حتى فيم يفكر . واخذ يكرر فى ذهول :

– رحيلى . . اوراقى . . . ها هى اوراقى . . ولكنك تمزح . . ما حاجتك الى اوراقى ؟

– لا دخل لك بذلك انى اسألك : هل توافق ام لا ؟

ومد الفرنسى وهو لا يصدق ما يسمع اوراقه الى الضابط الشاب الذى فحصها بسرعة .

– جواز سفرك . . حسنا – خطاب تزكية . . سنرى . . شهادة الميلاد . . رائع والآن خذ نقودك وعد من حيث اتيت . . وداعا .

وظل الفرنسى واقفا كالمقيد .

وعاد الضابط .

– كدت انسى اهم شىء . . عدنى بشرفك ان هذا الامر كله سيبقى سرا بيننا . . اعطنى كلمة شرف .

– اعدك بشرفى . . ولكن اوراقى . . ماذا افعل بدونها ؟

– اعلن فى اول مدينة ان دوبروفسكى سطا عليك

وسوف يصدقونك ويعطونك الشهادات اللازمة . وداعا . . ارجو من الله لك عودة سريعة الى باريس وان تجد والدتك بصحة طيبة .

وخرج دوبروفسكى من الغرفة وجلس فى العربة ورحل .

وكان الناظر يتطلع فى النافذة ، وعندما رحلت العربة قال لزوجته بانفعال :

– أتعرفين يا باخومفنا من كان هنا ؟ انه دوبروفسكى !

واندفعت زوجة الناظر نحو النافذة ، ولكن بعد فوات الاوان ، اذ ان دوبروفسكى كان قد رحل ، فأخذت تسب زوجها :

– انك لا تخشى الله يا سيدوريتش . . لماذا لم تخبرنى منذ البداية ، كنت على الاقل ألقيت نظرة عليه ، فما اظنه سيأتى مرة اخرى . . يا عديم الضمير . . نعم . . عديم الضمير . .

وظل الفرنسى واقفا كالمقيد ، وخيل اليه ان الاتفاق الذى ابرمه مع الضابط والنقود ، كل ذلك مجرد حلم . غير ان رزم البنكنوت كانت معه فى جيبه ، وكانت اقوى دليل على واقعية هذه الحادثة العجيبة .

وقرر ان يستأجر خيولا حتى المدينة . وقاد الحوذى العربة ببطء فوصلا المدينة ليلا .

وقبل ان يصلا إلى نقطة الحراسة التى كانت تنتصب بقربها صومعة حراسة مهدمة بدلا من الحارس ، امر الحوذى ان يوقف العربة ثم نزل منها وسار على قدميه بعد ان اخبر الحوذى بواسطة الإشارات انه يهدى اليه

العربة والحقيبة ليشرب بثمنهما فودكا . وكما ذهل هو لاقتراح دوبروفسكى ، كذلك ذهل الحوذى لكرمه ، ولكنه استنتج من هذا ان الفرنجى اصابه الجنون ، فشكره بانحناءة شديدة ، ثم قرر انه من الاصوب الا يذهب الى المدينة وانطلق الى احد اماكن اللهو التى يعرفها جيدا كما يعرف صاحبها . وهناك قضى ليلته . وفى اليوم التالى قفل راجعا فى عربة خالية تجرها ثلاثة جياد بدون الحقيبة والعربة وبوجه منتفخ وعينين حمراوين .

وبعد ان استولى دوبروفسكى على اوراق الفرنسى ذهب بجراة الى ترويكورف كما رأينا ، واقام فى داره . وايا كانت نواياه الخافية (والتى سنعرفها فيما بعد) الا ان سلوكه لم تشبه شائبة . صحيح انه لم يشغل نفسه كثيرا بتربية الصغير ساشا ، بل اعطاه مطلق الحرية فى اللهو ولم يتشدد فى محاسبته على استذكار الدروس التى كان يعطيها له محافظة على المظهر ، ولكنه ابدى اهتماما وعناية كبيرين بنجاح تلميذته فى الموسيقى . وكثيرا ما كان يجلس معها بالساعات الى البيانو . واحب الجميع المدرس الشاب ، احبه كيريلا بتروفيتش لمهارته وجسارته اثناء الصيد ، واحبته ماريا كيريلوفنا لعنايته الفائقة واهتمامه الخجول ، واحبه ساشا لتسامحه ازاء عبثه ، واحبه اهل الدار لطيبته ولكرمه الذى لم يكن يتناسب على ما يبدو ووضعه المالى . اما هو فقد بدا انه متعلق بالعائلة كلها واعتبر نفسه بالفعل احد افرادها .

ومر حوالى شهر منذ حمله لقب المدرس حتى ذلك

الاحتفال المشهور ، ولم يدر بخلد احد انه فى ذلك الشاب الفرنسى المتواضع كان يكمن قاطع طريق رهيب ، يلقى اسمه بالفزع فى قلوب جميع الملاك المحليين . وطوال هذا الوقت لم يغادر دوبروفسكى ضيعة بكروفسكويه ، غير ان الشائعات عن حوادث سطوه لم تنقطع بفضل خيال اهالى القرى الخصب ، وفضلا عن ذلك فمن الجائز ان تكون عصابته قد واصلت نشاطها فى غياب القائد .

وعندما بات دوبروفسكى فى غرفة واحدة مع شخص كان بوسعه اعتباره عدوه الشخصى واحد المتسببين الرئيسيين فى مأساته ، لم يستطع مقاومة الاغراء ، فقد كان على علم بوجود الحقيبة ، وقرر ان يستولى عليها . وقد رأينا كيف اذهل انطون بافنوتيتش المسكين بتحوله المفاجئ من مدرس الى قاطع طريق .

فى الساعة التاسعة صباحا توافد الضيوف الذين قضوا ليلتهم فى بكروفسكويه الواحد تلو الآخر إلى غرفة الجلوس حيث كانت غلاية الشاى (السماور) تغلى ، بينما جلست امامها ماريا كيريلوفنا فى ثوب صباحى . اما كيريلا بتروفيتش فكان يرتدى حلة من الكستور وحذاء منزليا ويشرب الشاى من كوبه الواسع الذى يشبه وعاء الغسيل . وكان انطون بافنوتيتش آخر من وصل . كان شاحبا للغاية ، وبدا حزينا حتى ان مظهره اذهل الجميع ودفع كيريلا بتروفيتش الى السؤال عن صحته . واجاب سبيتسين اجابة لا معنى لها ، واسترق النظر برعب إلى المدرس الذى كان يجلس هنا وكأن لم يحدث شىء . وبعد عدة دقائق دخل الخادم واعلن ان

عربة سبيتسين معدة ، فاسرع أنطون بافنوتيتش ينحني مودعا ، وبالرغم من الحاح رب الدار عليه بالبقاء غادر الغرفة على عجل ورحل من فوره . ولم يفهم احد ماذا حدث له ، وقرر كيريلا بتروفيتش انه افرط فى الاكل . وبعد الشاى وافطار الوداع بدأ الضيوف يرحلون ، وسرعان ما اصبحت بكروفسكويه خاوية ، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه .

الفصل الثانى عشر

مرت عدة ايام ولم يحدث ما يلفت النظر فى حياة سكان بكروفسكويه الرتيبة ، فكان كيريلا بتروفيتش يخرج كل يوم للصيد ، اما ماريا كيريلوفنا فشغلت وقتها بالقراءة والتريض ، وبدروس الموسيقى بصفة خاصة . لقد بدأت تفهم قلبها ، واعترفت – بضيق لا ارادى – ان هذا القلب لم يعد يشعر باللامبالاة نحو فضائل الفرنسى الشاب ، الذى لم يتعد من جانبه ، حدود الاحترام والادب الشديد ، مما طمأن كرامتها وشكوكها وخوفها ، فاستسلمت بثقة متزايدة لهذه العادة الجذابة . كانت فى غياب ديفورج تستوحش له ، وفى حضوره تنشغل به طوال الوقت ، وتحاول معرفة رايه فى كل شيء ، ودائما تتفق معه . ربما لم تكن قد وقعت فى غرامه بعد ، ولكن لهيب العاطفة كان مستعدا لأن يتأجج فى قلبها لدى اول عقبة تصادفها او اول مفاجأة يخبئها لها القدر .

وذات مرة ، عندما دخلت ماريا كيريلوفنا القاعة حيث كان المدرس بانتظارها ، لاحظت بدهشة الحيرة على

وجهه الشاحب . وفتحت البيانو وغنت بعض الالحان ، ولكن دوبروفسكى اعتذر بحجة صداع اصابه فقطع الدرس واغلق النوتة الموسيقية ، ودس فى يدها خلسة ورقة مكتوبة . وقبل ان تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجاة تناولتها منه وفى نفس اللحظة ندمت على ذلك ، غير ان دوبروفسكى كان قد اختفى من الصالة . وذهبت ماريا كيريلوفنا الى غرفتها وفتحت الورقة فقرات التالى :

«تعالى اليوم فى الساعة السابعة الى العريش عند الجدول ، من الضرورى ان اتحدث معك» .

وثار فضولها بشدة . لقد كانت تنتظر منه اعترافا بالحب منذ مدة طويلة ، وتتمناه وفى نفس الوقت تخشاه . كان يسرها ان تسمع تأكيدا لظنونها ، ولكنها احست انه لن يكون من اللائق سماع مثل هذا الاعتراف من شخص لا يسمح له وضعه ان يأمل ابدا فى الزواج منها . وقررت ان تذهب للموعد ، غير انها ترددت امام شيء واحد : كيف ينبغى عليها ان تتقبل اعتراف المدرس : بغضب ارستقراطى ، ام بوعد بالصداقة ، ام بمزاح مرح ، ام بعطف صامت . وفى هذه الاثناء كانت تتطلع الى الساعة كل لحظة . ثم حل الظلام فأوقدت الشموع ، وجلس كيريلا بتروفيتش يلعب البوستون مع ضيوفه من الجيران . ودقت الساعة فى غرفة الطعام معلنة السابعة الا ربعا ، فخرجت ماريا كيريلوفنا بهدوء إلى السلاملك وتلفتت حولها فى جميع الجهات ، ثم ركضت الى الحديقة .

كانت الليلة مظلمة ، والسماء ملفعة بالغيوم ، ولا يمكنك رؤية شيء على بعد خطوتين . لكن ماريا كيريلوفنا

سارت فى الظلمة على الدروب المعروفة ، وبعد دقيقة وصلت الى العريش . وهناك توقفت لتلتقط انفاسهـــا وتقابـــل ديفورج بمظهر اللامبالاة والتانى ، بيد ان ديفورج كان امامها بالفعل .

— اشكرك — قال بصوت هادئ حزين — على عدم رفضك لرجائى . لو لم توافقى لتملكنى اليأس .

واجابت ماريا كيريلوفنا بعبارة اعدتها من قبل :

— آمل الا تجعلنى اندم على تسامحى .

وصمت دوبروفسكى وبدا وكأنه يلملم اطراف شجاعته واخيرا قال :

— الظروف تقتضى . . . يجب ان اتركك . . . ربما تسمعين عما قريب . . . ولكن قبل الفراق اريد ان ابوح لك بسر . .

ولم تجب ماريا كيريلوفنـــا . لقد رات فى هذه الكلمات مقدمة للاعتراف المنتظر .

وواصل دوبروفسكى مطاطئ الراس :

— اننى لستُ ما تظنين ، لست الفرنسى ديفورج . انا دوبروفسكى .

وندّت عن ماريا كيريلوفنا صرخة .

— لا تخاف ارجوك ، لا يجب ان تخاف من اسمى . نعم اننى ذلك التعيس الذى حرمه والدك كسرة الخبز وطرده من بيت ابيه ودفعـــه الى نهب المسافرين فى الطرق . ولكن لا داعى للخوف منى على نفسك او عليه . لقد انتهى كل شىء . سامحته . اسمعى ، انـــت التى انقذته . . فقد قدر له ان يكون ضحية اول ماثرة دموية اقوم بها . . كنت اسير بجوار منزله محددا من اين

سابدأ الحريق ، ومن اين ادخل غرفة نومه وكيف اسد عليه جميع سبل الهرب . وفى تلك اللحظة مررت انت بجوارى كطيف سماوى ، فاطمأن قلبى وادركـت ان المنزل الذى تعيشين فيـــه مقدس ، وان اى إنسان تربطه بك روابط الدم لا يمكن ان تحل به لعنتى . عدلت عن الانتقام باعتباره جنونا . واخذت اطوف اياما كاملة بجوار حدائق بكروفسكويه آملا ان أرى عـــلى البعد ثوبك الابيض ، وراقبتك فى جولاتك الجريئـــة متلصصا من خميلة الى خميلة سعيدا لفكرة انى احميك ، وانه لا خطر عليك فى المكان الذى اوجد انا فيه سرا . واخيرا سنحت الفرصة فكنت فى منزلكم . لقد كانت هذه الاسابيع الثلاثة بالنسبة لى اسعد ايامـــى ، وستكون ذكراها سلوى حياتى الحزينة . . . واليوم تلقيت نبأ يجعل بقائى هنا بعد الآن مستحيلا . . اننى افارقـــك اليوم . . الآن . . ولكن رأيت من واجبى قبل ذلك ان اكشف لك عن نفسى كيلا تلعنينى وتحتقرينى . تذكرى دوبروفسكى احيانا ، واعرفى انه ولد لحياة غير هذه ، وان قلبه عرف كيف يحبك ، وانه ابدا لن . . .

وهنا تردد صفير ضعيف فصمت دوبروفسكى . .

ثم تناول يدها وضمها الى شفتيه الملتهبتين . وتكرر الصفير .

قال دوبروفسكى :

— اعذرينى ، إنهم يدعوننى ، ودقيقة تأخير قـــد تقضى علىّ .

وابتعد ، وظلت ماريا كيريلوفنا واقفة بلا حراك ، فعاد دوبروفسكى مرة ثانية وامسك بيدها .

— لو مسّك فى اى وقت سوء — قال لها بصوت رقيق مؤثر — ، لو مسّك فى اى وقت سوء ولم تتوقعى من احد معونة او حماية ، فهل تعديننى فى هذه الحالة ان تلجأى الىّ وتطلبى منى كل ما تريدين من اجل انقاذك ؟ هل تعديننى الا ترفضى اخلاصى ؟

وبكت ماريا كيريلوفنا فى صمت . وتكرر الصفير للمرة الثالثة فصرخ دوبروفسكى :

— إنك تقضين علىّ ! لن اتركك الا اذا اجبتنى . . هل تعديننى ام لا ؟

— اعدك ! — همست الحسناء المسكينة .

وعادت ماريا كيريلوفنا من الحديقة وقد هزها لقاء دوبروفسكى . وخيل اليها ان الناس فى هرج ومرج ، فقد كان المنزل يضج بالحركة ، وتجمع فى الفناء خلق كثير ووقفت بجوار السلاملك عربة ، وعلى البعد سمعت صوت كيريلا بتروفيتش فسارعت بدخول المنزل خشية ان يلحظوا تغيبها . وقابلها فى الصالة كيريلا بتروفيتش ، وكان الضيوف يحيطون برئيس الشرطة الذى تعرفنا عليه من قبل ويمطرونه بالاسئلة . كان مرتديا لباس سفر ومسلحا من قمة راسه حتى اخمص القدم ، واجاب على الاسئلة متخذا سيماء الغموض والعجلة .

وسأل كيريلا بتروفيتش :

— اين كنت يا ماشا ؟ الم تقابلى مسيو ديفورج ؟

وبصعوبة استطاعت ماشا ان تجيب بالنفى .

فواصل كيريلا بتروفيتش قائلا :

— تصورى . . لقد جاء الضابط للقبض عليه مؤكدا انه هو دوبروفسكى بعينه .

فقال الضابط باحترام :

— بكل اوصافه يا صاحب المعالى .

فقاطعه كيريلا بتروفيتش :

— ايه يا اخى . . اذهب بأوصافك هذه الى . . . لن اسلمك رجلى الفرنسى حتى احقق فى الامر بنفسى . كيف يمكن تصديق كلام انطون بافنوتيتش ، هذا الجبان الكذاب ؟ لقد خيل اليه ان المدرس اراد نهبه . ولماذا لم يقل لى كلمة واحدة عن هذا فى ذلك الصباح ؟

اجاب الضابط :

— لقد ارهبه الفرنسى يا صاحب المعالى . . . وانتزع منه قسما بالصمت . . .

— كذب — قرر كيريلا بتروفيتش — ساكشف الآن كل شىء . . . اين المدرس ؟ — سأل كيريلا بتروفيتش الخادم الداخل .

— لا نستطيع ان نجده فى اى مكان — اجاب الخادم .

فصرخ ترويكورف وقد بدأ يراوده الشك :

— ابحثوا عنه . . . ارنى ما لديك من الأوصاف الرائعة — قال للرئيس الذى قدم له الورقة فى الحال .

— احم . . احم . . ثلاثة وعشرون عاما . . هو كذلك فعلا ، ولكن هذا لا يثبت شيئا . . ماذا عن المدرس ؟

— غير موجود ، — جاءته الاجابة .

وبدا كيريلا بتروفيتش يقلق ، اما ماريا كيريلوفنا فكانت بين الحياة والموت .

وقال والدها ملاحظا :

— انك شاحبة يا ماشا . لقد أفزعوك .

فردت ماشا :

— كلا يا بابا . . مجرد صداع .

— اذهبى يا ماشا الى غرفتك ولا تقلقى .

فقبلت ماشا يده واسرعت الى غرفتها فارتمت على الفراش وانفجرت فى بكاء هستيرى . وهبت إليها خادماتها فنزعن عنها ثيابها ، وبجهد جهيد هدأنها بالماء البارد وشتى المنبهات ، ثم مددنها على الفراش فغابت فى النوم .

وطوال هذا الوقت لم يعثروا على الفرنسى فأخذ كيريلا بتروفيتش يسير فى الصالة جيئة وذهابا وهو يصفر بغضب لحن : «زمجر يا رعد النصر» . وتهامس الضيوف فيما بينهم ، واسقط فى يد الرئيس اذ لم يجدوا الفرنسى . وربما يكون قد تمكن من الهرب بعد ان حذره شخص ما ، ولكن من الذى حذره ، وكيف ؟ ظل هذا لغزا .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ولم يفكر احد فى النوم . واخيرا قال كيريلا بتروفيتش للضابط بغضب :

— ماذا إذن ؟ ليس من المعقول ان تبقى هنا حتى الصباح . ان دارى ليست «تكية» ، وليس بمثل مهارتك يا اخى ان تقبض على دوبروفسكى ، اذا كان هذا دوبروفسكى حقا . عد من حيث اتيت ، وفى المرة القادمة

كن اكثر همة . ثم قال مخاطبا الضيوف : — وانتم ايضا آن لكم ان تنصرفوا . هيا دعوا الخدم يجهزون العربات ، اما انا فاريد ان انام .

بمثل هذا الجفاء ودع ترويكورف ضيوفه !

الفصل الثالث عشر

مر بعض الوقت دون ان يحدث شىء هام ولكن فى بداية الصيف التالى حدثت تغيرات كثيرة فى حياة كيريلا بتروفيتش العائلية .

على بعد ثلاثين فرسخا منه كانت تقع ضيعة غنية يملكها الأمير فيرَيْسكى . وعاش هذا الامير مدة طويلة فى الخارج وكان يدير شؤون ضيعته رائد متقاعد ، ولم تنشأ اية علاقة بين ضيعتى بكروفسكويه وارباتوفو . لكن الامير عاد من الخارج فى نهاية شهر مايو وجاء الى قريته التى لم يرها طوال حياته . ولما كان متعودا على الاختلاط فقد ضاق بالوحدة ، وفى اليوم الثالث لوصوله رحل لتناول الغداء عند ترويكورف الذى كان قد تعرف عليه منذ امد بعيد فيما مضى .

كان الامير فى حوالى الخمسين من عمره ، ولكنه بدا اكبر من ذلك بكثير ، فقد اضعفت مختلف ضروب الافراط صحته وخلفت فيه آثارها التى لا تمحى . وبالرغم من ذلك كان مظهره لطيفا ، رائعا ، كما اكسبه تعوده على الحياة دائما فى المجتمع بعض اللطف ، وخاصة مع النساء . كان يشعر بحاجة دائمة الى الاختلاط ويضجر باستمرار . وسر كيريلا بتروفيتش بزيارته

للغاية معتبرا اياها دليل احترام من شخص خبر المجتمع الارستقراطى . وكعادته اخذ يضيفه بعرض مؤسساته عليه ، فقاده الى حظائر الكلاب ، ولكن الامير كاد يختنق من رائحتها واسرع خارجا وهو يضع على أنفه منديلا مضمخا بالعطور ، كذلك لم تعجبه الحديقة العتيقة بأشجار الزيزفون المقصوصة والبركة المستطيلة والممرات المنتظمة ، فقد كان يحب الحدائق الانجليزية وما يدعى بالطبيعة . وبالرغم من ذلك اثنى على ما شاهده وابدى اعجابه به . ثم جاء الخادم ليعلن أن المائدة معدة ، فعادوا لتناول الغداء . وسار الامير وهو يعرج متعبا من النزهة ونادما على هذه الزيارة .

ولكن ماريا كيريلوفنا قابلتهما فى الصالة فصعق زير النساء العجوز لجمالها . واجلسه ترويكورف بجوارها فانتعش الامير لوجودها وصار مرحا ، واستطاع جذب اهتمامها عدة مرات بحكاياته الشيقة . وبعد الغداء اقترح عليه كيريلا بتروفيتش نزهة على ظهور الجياد ، ولكن الامير اعتذر مشيرا الى حذائه العالى المصنوع من القطيفة وساخرا من مرض النقرس ، وفضل النزهة فى العربة حتى لا يفترق عن جارته الرقيقة . فاعدت العربة ، وجلس العجوزان والحسناء ثم انطلقوا . ولم ينقطع حبل الحديث ، وكانت ماريا كيريلوفنا تصغى باستمتاع الى تحيات رجل المجتمع المرحة والمتملقة ، عندما تحول هذا فجأة نحو كيريلا بتروفيتش وسأله عن ذلك المبنى المحترق وهل هو ملكه ؟ وتجهم كيريلا بتروفيتش فقد كانت الذكريات التى اثارتها هذه الضيعة المحترقة بغيضة الى نفسه . واجاب بان الضيعة اصبحت

ملكه الآن ولكنها كانت من قبل ملكا لدوبروفسكى .

— دوبروفسكى . . . — ردد فيريسكى — كيف ؟ ملك لهذا الشقى المعروف ؟

فاجاب ترويكورف :

— لابيه . . وحتى ابوه كان ايضا شقيا بما فيه الكفاية .

— واين بطلنا رينالدو هذا ، هل هو على قيد الحياة ؟ وهل قبض عليه ؟

— على قيد الحياة ومطلق السراح ، ولن يقبض عليه ما دام رؤساء الشرطة عندنا شركاء للصوص . وبالمناسبة ايها الامير ، لقد سطا دوبروفسكى على ضيعتك ارباتوفو ، اليس كذلك ؟

— بلى ، فى العام الماضى ، ويبدو أنه احرق او نهب شيئا ما . أليس من الطريف يا ماريا كيريلوفنا ان يتعرف المرء بهذا البطل الرومانسى عن قرب ؟

— اى طرافة فى ذلك ! — قال ترويكورف — لقد تعرفت به ، وظل يعلمها الموسيقى ثلاثة اسابيع كاملة ، والحمد لله ، لم يأخذ شيئا لقاء الدروس .

وهنا اخذ كيريلا بتروفيتش يحكى قصة مدرسه الفرنسى ، وجلست ماريا كيريلوفنا على احر من الجمر ، واصغى فيريسكى باهتمام كبير ، واعتبر كل ذلك غريبا للغاية فغير موضوع الحديث . وعندما عادوا امر باعداد عربته ورحل بعد تناول الشاى مباشرة بالرغم من إلحاح كيريلا بتروفيتش عليه بالمبيت . وقبل رحيله دعا كيريلا بتروفيتش وماريا كيريلوفنا لزيارته ، فوعده ترويكوروف الفخور بالمجىء لانه اعتبر الامير

فيريسكي ندا له الى حد ما ، آخذا بعين الاعتبار لقب الامارة والوسامين والثلاثة آلاف نفس التي يمتلكها الامير .

وبعد يومين من زيارة الامير فيريسكي توجه كيريلا بتروفيتش مع ابنته لزيارته . ولم يستطع وهم يقتربون من ضيعة ارباتوفو الا ان يملى ناظريه من منازل الفلاحين النظيفة البهيجة ومنزل السيد الحجرى المشيد على طراز القصور الانجليزية . وامام المنزل امتد مرج كثيف الخضرة كانت ترعى فيه ابقار سويسرية بينما تصلصل اجراسها الصغيرة . واحاطت بالمنزل من جميع الجهات حديقة واسعة . وقابل السيد ضيوفه على السلاملك وقدم ذراعه لتعتمد عليها الحسناء الشابة . ثم دلفوا الى صالة رائعة مدت فيها مائدة لثلاثة اشخاص . وقاد المضيف ضيوفه الى النافذة فشاهدوا منها منظرا خلابا . كان نهر الفولجا يجرى امام النوافذ وسارت فيه صنادل محملة تملأ الريح اشرعتها ، ولاحت قوارب الصيادين التي اطلقوا عليها اسما جد معبر : «مهلكة الارواح» . وخلف النهر امتدت التلال والحقول ، وبعثت عدة قرى الحياة فى المكان . وبعد ذلك اخذوا يستعرضون مجموعات الصور التي اشتراها الأمير فى الخارج . وشرح الامير لماريا كيريلوفنا مضامينها المختلفة وتاريخ الفنانين الذين رسموها مشيرا الى ميزاتهم وعيوبهم . كان يتحدث عن الصور لا بلسان المتحذلقين المعروف بل بعاطفة وخيال فاصغت اليه ماريا كيريلوفنا باستمتاع . ثم جلسوا الى المائدة ، فاثنى كيريلا بتروفيتش على خمور صاحبه ومهارة

طاهيه . اما ماريا كيريلوفنا فلم تشعر بأى حرج او تكلف فى الحديث مع شخص كانت تراه للمرة الثانية فقط . وبعد الغداء اقترح المضيف على ضيوفه ان يذهبوا الى الحديقة . وهناك تناولوا القهوة فى عريش على شاطىء بحيرة واسعة تزدحم بالجزر . وفجأة صدحت موسيقى صادرة عن آلات نفخ ، ورسا قارب ذو ستة مجاذيف بجوار العريش مباشرة فاستقلوه ، وسبح بهم فى البحيرة بجوار الجزر ، فنزلوا فى بعضها . ووجدوا فى احداها تمثالا من المرمر ، وفى جزيرة اخرى مغارة منعزلة ، وفى الجزيرة الثالثة نصبا عليه نقش غريب ، اثار فى ماريا كيريلوفنا فضول العذارى الذى لم تشبعه تماما تلميحات الامير الوقورة . ومر الوقت بسرعة وبدأ الغسق يهبط ، فتعلل الامير بالبرودة والندى واسرع عائدا بهم الى المنزل حيث كانت غلاية الشاى بانتظارهم . وطلب الامير من ماريا كيريلوفنا ان تقوم بدور ربة البيت فى دار الاعزب العجوز ، فصبت الشاى وهى تصغى إلى قصص الثرثار الودود التى لا تنفد . فجأة دوى طلق نارى واضاء السماء صاروخ ، فقدم الامير شالا لماريا كيريلوفنا ودعاها هى وترويكورف الى الشرفة . وامام المنزل اندلعت فى الظلام اضواء متعددة الألوان كانت تدور ثم تصعد إلى أعلى بهيئة سنابل ونخيل ونافورات ثم تسقط كالمطر والنجوم وتنطفىء لتندلع من جديد . وابتهجت ماريا كيريلوفنا كالطفل . وسر الامير فيريسكى لاعجابها ، اما ترويكورف فكان فى غاية الرضى عنه لانه اعتبر

tous les frais * الأمير دليلا على احترامه له ومحاولته خطب وده .

ولم يكن العشاء اقل بذخا من الغداء . ثم توجه الضيوف بعده الى الغرف المخصصة لهم ، وفى الصباح ودعوا المضيف الفاضل وقد تواعدوا على ان يروا بعضهم البعض قريبا .

الفصل الرابع عشر

جلست ماريا كيريلوفنا فى غرفتها امام النافذة المفتوحة تطرز بواسطة اطواق التطريز . ولم تخلط بين ألوان الحرير كما فعلت حبيبة «كونراد» ** عندما طرزت الوردة بحرير اخضر وقد شتت الحب ذهنها . لقد كانت الابرة فى يدها تكرر دون خطأ نفس الخطوط المرسومة فى الاصل ، وبالرغم من ذلك لم تكن افكارها تتابع عملها هذا ، بل حلقت فى مكان بعيد .

وفجأة امتدت يد الى النافذة بهدوء ، ووضع صاحبها رسالة فوق اطواق التطريز ، ثم اختفى قبل أن تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجأة . وفى هذه اللحظة بالذات دخل الخادم غرفتها ودعاها الى كيريلا بتروفيتش . فخبأت الرسالة باضطراب خلف منديل راسها واسرعت لمقابلة ابيها فى مكتبه .

* كل نفقات .

** «كونراد فالينرود» قصيدة للشاعر البولونى آدام ميتسكيفيتش (١٧٩٨ـ١٨٥٥) . وكانت بطلة القصيدة قد طرزت الوردة بالحرير الاخضر والاوراق بالاحمر لان الفراق عن حبيبها جعلها تشعر بالحنين وشتت ذهنها .

لم يكن كيريلا بتروفيتش بمفرده ، بل كان معه الامير فيريسكى . وعندما دخلت ماريا كيريلوفنا وقف الامير ، وانحنى لها بصمت واضطراب غير عادى بالنسبة له .

وقال كيريلا بتروفيتش :

– تعالى هنا يا ماشا . . سازفّ اليك نبأ آمل ان يسعدك . ها هو عريسك . . لقد تقدم الامير لخطبتك .

وجمدت ماشا واكتسى وجهها بصفرة الاموات . ووقفت صامتة . واقترب منها الامير فأمسك بيدها وسألها بنبرة تنم عن التأثر هل توافق على ان تُسعِدَه . وصمتت ماشا .

فقال كيريلا بتروفيتش :

– انها موافقة ، طبعا موافقة ، ولكن اتدرى ايها الامير ، يصعب على الفتاة ان تتفوه بهذه الكلمة . . هيا يا اولاد ، تبادلا القبلات ، ولتنعما بالسعادة .

ووقفت ماشا جامدة ، وقبل الامير العجوز يدها ، وفجأة انهمرت الدموع على خديها الشاحبين ، فتجهم الأمير قليلا .

قال كيريلا بتروفيتش :

– هيا ، هيا ، اذهبى وجففى دموعك ، وعودى إلينا مرحة . – ثم قال مخاطبا الامير : – كلهن يبكين عند الخطبة . . تلك عادتهن . . . والآن ، فلنتحدث عن المهم يا أمير . . اعنى عن البائنة * .

* البائنة هى «الدوطة» التى تقدمها العروس . (المترجم .)

واسرعت ماريا كيريلوفنا تستغل الاذن بالانصراف ، فهرولت الى حجرتها ، واغلقت عليها الباب ، واطلقت لدموعها العنان . وعندما تخيلت نفسها زوجة للامير العجوز ، بدا لها منفرا وبغيضا . وافزعها الزواج وكأنه مقصلة او قبر . «كلا ، كلا – رددت وقد غلبها اليأس – من الافضل ان اموت ، او اهب نفسى للدير ، او اتزوج من دوبروفسكى» . وهنا تذكرت تلك الرسالة فبدأت تقرؤها بنهم ، وهى تحدس انها منه . وفعلا كانت رسالة منه ، لم تتضمن غير الكلمات التالية :

«فى العاشرة مساء ، فى نفس المكان» .

الفصل الخامس عشر

تألق القمر – فقد كانت ليلة هادئة من ليالى شهر يوليو – واحيانا كانت تهب الريح ، فيتردد حفيف رقيق فى الحديقة كلها .

وكطيف رقيق اقتربت الحسناء الشابة من مكان الموعد المضروب ، ولم يكن هناك احد بعد ، وفجأة ظهر امامها دوبروفسكى من خلف العريش .

وقال لها بصوت هادئ حزين :

– اننى اعرف كل شىء . تذكرى وعدك لى .

فاجابت ماشا :

– انت تعرض علىّ الحماية ، ولكن لا تغضب ، انها تفزعنى ، كيف يمكنك ان تقدم لى المعونة ؟

– بوسعى ان اخلصك من الرجل البغيض .

– استحلفك بالله الا تمسه ، اياك ان تمسه

بسوء اذا كنت تحبنى . لا اريد ان اكون سببا فى عمل فظيع .

– لن امسه ، فرغبتك عندى مقدسة . انه مدين بحياته لك ، ولن ارتكب باسمك اية جريمة ، اذ يجب ان تظلى طاهرة لا تلطخك حتى جرائمى . ولكن كيف اخلصك من ابيك القاسى ؟

– ما زال هناك امل . ارجو ان اؤثر فيه بدموعى ويأسى . انه عنيد ، ولكنه يحبنى جدا .

– لا تتعلقى بآمال زائفة ، ففى هذه الدموع لن يرى ابوك غير الخوف والنفور الطبيعى المميز لكل الفتيات الشابات عندما يتزوجن لا عن حب ، بل عن منفعة تمليها الحكمة . فما العمل اذا اصر على بناء سعادتك رغما عنك ودفعك عنوة إلى تسليم مصيرك الى الابد لسلطان زوج عجوز . . .

– عندئذ ، عندئذ لا مفر . تعال خذنى وساصبح زوجتك .

واضطرب دوبروفسكى ، وغطت وجهه الشاحب حمرة قانية ، وفى نفس اللحظة عاد اكثر شحوبا من ذى قبل ، وظل صامتا فترة طويلة ، مطاطا الراس .

– استجمعى كل قواك الروحية وتوسلى الى ابيك ، ارتمى على قدميه ، صورى له كل بشاعة المستقبل ، وشبابك الذى سيذبل مع عجوز منحل داعر . استعدى لمصارحة قاسية . قولى له انه اذا لم يستجب فانك . . . فإنك ستلجئين الى حماية فظيعة . . قولى له ان الثروة لن تجلب لك دقيقة واحدة من السعادة ، وان

البذخ لا يطمئن الا الفقر ، ولا يطمئنه الا للوهلة الاولى وللحظة واحدة . لا تتركيه ، ولا تخشى غضبـــه او وعيده . وما دام هناك ولو ظل امل استحلفك بالله لا تتركيه . . اما اذا لم تبق هناك وسيلة اخرى . . .

وهنا غطى دوبروفسكى وجهه بيديه ، وبدا وكأنه يختنق . . . وبكت ماشا . .

وقال بمرارة وهو يشهق :

— يا لحظى التعيس . . اننى مستعد ان اضحى بحياتى من اجلك ، وكانت قمة نشوتى ان اراك على البعد او ألمس يدك . وعندما لاحت امامى الفرصة لكى اضمك الى قلبى الخافق واقول : يا ملاكى ، معا حتى الموت ! — اجد من واجبى — ويالى من يائس — ان اتجنب النعمة ، اجد لزاما علىّ ان ابعدها عنى بكـــل قواى . اننى لا اجرؤ على الارتماء على قدميك لاشكر السماء على هبتها التى لا أستحقها . اوه ، كم يجب علىّ ان اكره ذلك الشخص ، ولكنى اشعر انه لم يعد فى قلبى مكان للكراهية .

واحاط بقدها الممشوق بخفة وضمها الى قلبه ، فوضعت رأسها بأمان على كتف قاطع الطريق الشاب . وصمت كلاهما .

ومر الوقت بسرعة .

واخيرا قالت ماشا :

— آن لى ان انصرف .

وبدا كما لو ان دوبروفسكى استيقظ من غفوة . ثم تناول يدها ووضع فى إصبعها خاتما وقال :

— اذا قررت اللجوء إلى مساعدتى ، فاحملى هذا

الخاتم الى هنا ، وضعيه فى تجويف شجرة البلوط هذه ، وساعتها سأعرف ماذا ينبغى ان افعل .

وقبّل دوبروفسكى يدها واختفى بين الأشجار .

الفصل السادس عشر

لم تعد خطبة الامير فيرَيْسكى لماشا سرا بالنسبة للجيران ، فانهالت التهانى على كيريلا بتروفيتش ، بينما كان يجرى الاستعداد للعرس . وكانت ماشا تؤجـــل قرارها الحاسم من يوم الى آخر . وفى الوقت نفسه كانت معاملتها للعريس العجوز باردة ومتكلفة . ولم يهتم الامير بذلك ، فلم يكن يطمع فى حبها ، بل كان قانعا بموافقتها الصامتة .

غير ان الوقت كان يمر ، فقررت ماشا اخيرا ان تتحرك ، فكتبت رسالة للامير فيرَيْسكى . وحاولت ان تثير فيه المروءة ، واعترفت له بصراحة انها لا تشعر باى ميل نحوه ، وتوسلت اليه ان يعدل عن طلب يدها بل ويحميها من سلطان ابيها . ودست الرسالة سرا فى يد الامير فيريسكى ، فقرأها عندما خلا الى نفسه ولم تؤثر فيه مطلقا صراحة عروسه ، على العكس ، لقد ارتأى ضرورة الاسراع بالزفاف ولهذا اعتبر من المفيد ان يطلع حماه المقبل على الرسالة .

وجن جنون كيريلا بتروفيتش ، وبعد لأى تمكن الامير من اقناعه بألا يظهر لماشا علمه بأمر الرسالة فوافق كيريلا بتروفيتش على ذلك ، ولكنه قرر ألا

يضيع الوقت وحدد اليوم التالى مباشرة موعدا للزفاف .
واعتبر الامير هذا القرار جد حكيم ، فذهب إلى عروسه واخبرها أن رسالتها احزنته كثيرا ، ولكنه يأمل ان يكسب ميلها بمرور الزمن ، وان فكرة فقدانها شديدة الوقع عليه ، وليس فى إمكانه ان يوافق على مثل هذا الحكم باعدامه . وبعد ذلك لثم يدها فى وقار ، ثم رحل دون ان يقول لها كلمة واحدة عن قرار كيريلا بتروفيتش .

وما كاد يرحل عن المنزل حتى دخل اليها والدها وامرها دون مقدمات ان تكون مستعدة غدا . وكانت ماريا كيريلوفنا مضطربة بعد حديث الامير فيريسكى ، فانخرطت فى البكاء وارتمت على قدمى والدها ، وصرخت بصوت ضارع :

— بابا ، بابا ، لا تقض علىّ ، انا لا احب الامير ، لا اريد ان اكون زوجة له .

فقال كيريلا بتروفيتش مهددا :

— ما معنى هذا ؟ لقد كنت حتى الآن موافقة ولا تتكلمين ، والآن ، عندما تقرر كل شىء ، عنّت لك هذه النزوة وهذا الرفض . دعيك من هذه الحماقة فلن يجدى هذا معى .

— لا تقض علىّ — رددت ماشا المسكينة — لماذا تطردنى بعيدا عنك وتسلمنى لشخص لا أحبه ، هل مللتنى ؟ اريد ان أبقى معك كما كنا . بابا ، ستشعر بالحزن بدونى ، وستحزن اكثر عندما تفكر بانى تعيسة . بابا ، لا تكرهنى على الزواج ، فانا لا اريده . . .

وتأثر كيريلا بتروفيتش ، لكنه اخفى اضطرابه ، ودفعها عنه قائلا بصرامة :

— كل هذا هراء ، اتسمعين ؟ انا اعرف احسن منك ما هو المطلوب لسعادتك ، لن تنفعك الدموع ، زفافك بعد غد .

فصرخت ماشا :

— بعد غد ، يا الهى ! كلا ، كلا ، مستحيل ، هذا لن يكون . اسمع يا بابا . . اذا كنت قد قررت القضاء علىّ ، فسوف الجأ لحماية شخص لا يخطر لك ببال ، سوف ترى ، وسيصيبك الفزع عندما تعرف إلى اى حد دفعتنى . .

— ماذا ، ماذا ؟ — قال ترويكورف — اتهددينني ؟ يا لك من بنت جسورة ! اتدرين اننى سأصنع بك ما لا تتصورين ؟ اتجرؤين على ارهابى بشخص يحميك ؟ سنرى من يكون هذا الحامى !

فأجابت ماشا وقد غلبها اليأس :

— انه فلاديمير دوبروفسكى .

وظن كيريلا بتروفيتش انها جنّت ، ونظر اليها مصعوقا .

ثم قال بعد فترة من الصمت :

— حسنا ، انتظرى ما شئت من مخلصين ، ولكنك ستبقين فى هذه الغرفة ، ولن تخرجى منها الا يوم الزفاف .

وبعد ان قال كيريلا بتروفيتش هذه الكلمات خرج ، وأغلق خلفه الباب .

وبكت الفتاة المسكينة طويلا وهى تتخيل ما

ينتظرها ، غير ان هذه المصارحة العنيفة هدات من روعها ، فاصبح بوسعها ان تفكر بهدوء اكثر فى مستقبلها وفيما ينبغى عليها ان تفعله . كان اهم شيء عندها ان تتخلص من هذا الزواج البغيض . وبدا لها ان مصيرها كزوجة قاطع طريق جنة اذا ما قيس بما اعده لها القدر . ونظرت الى الخاتم الذى اعطاه لها دوبروفسكى . وتملكتها رغبة عارمة فى رؤيته على انفراد لتستشيره طويلا مرة اخرى قبل اللحظة الحاسمة . وراودها شعور داخلى بأنها ستجد دوبروفسكى مساء فى الحديقة قرب العريش ، فقررت ان تذهب الى هناك بعد حلول الظلام وتنتظره . وحل الظلام فاستعدت ماشا ، لكن باب غرفتها كان مقفلا بالمفتاح ، واخبرتها الخادمة عبر الباب ان كيريلا بتروفيتش امرهم بعدم السماح لها بالخروج . لقد كانت معتقلة . وجلست الى النافذة ، وقد شعرت باهانة عميقة ، ولم تخلع ملابسها الى وقت متأخر وظلت تحدق جامدة فى السماء المظلمة . واغفت عند الفجر ، غير ان الاحلام الحزينة اقلقت نومها الخفيف ، ثم ايقظتها اشعة الشمس المشرقة .

الفصل السابع عشر

وعندما استيقظت ، كان اول ما خطر على ذهنها هو فظاعة الوضع الذى وجدت نفسها فيه . ودقت الجرس فدخلت خادمتها وردت على اسئلتها ، قائلة ان كيريلا بتروفيتش ذهب الى أرباتوفو مساء وعاد فى ساعة متأخرة ، واعطى اوامر مشددة بعدم السماح لها بالخروج

من الغرفة او الاتصال بأى انسان ، كما ذكرت انها لم تلحظ اية استعدادات معينة لحفل الزفاف ، سوى الامر الذى صدر الى القس بعدم مغادرة الضيعة لاى سبب من الاسباب . وبعد هذه الانباء انصرفت الخادمة عن ماريا كيريلوفنا واوصدت خلفها الباب من جديد .

لكن كلماتها اثارت السجينة الشابة فكاد رأسها ينفجر واخذ دمها يفور ، وقررت ان تحيط دوبروفسكى علما بالامر كله ، وراحت تبحث عن وسيلة لوضع الخاتم فى تجويف شجرة البلوط المنشودة . وفى هذه اللحظة ارتطمت حصوة بنافذتها ورن الزجاج ، فنظرت ماريا كيريلوفنا إلى الفناء ورأت ساشا الصغير وهو يوجه لها إشارات سرية ، ففتحت النافذة وقالت :

– كيف حالك يا ساشا ؟ لماذا تدعونى ؟

– لقد جئت يا اختى لاعرف إن كنت بحاجة الى شيء . ان ابانا غاضب ، وقد منع الجميع من الاتصال بك ، ولكن اطلبى منى اى شيء وسأفعله من اجلك .

– شكرا يا ساشا العزيز . اسمع . هل تعرف شجرة البلوط ذات التجويف والتى بجوار العريش ؟

– اعرفها يا اختى .

– حسنا ، اذا كنت تحبنى اسرع الى هناك وضع فى التجويف هذا الخاتم ، واحذر ان يراك احد .

ثم القت اليه بالخاتم واغلقت النافذة .

والتقط الصبى الخاتم وانطلق يعدو بكل قواه ، فوصل الى الشجرة المطلوبة فى ثلاث دقائق . وهناك توقف وهو يلهث ، ثم تلفت حوله ، وبعد ذلك وضع الخاتم فى التجويف . وبعد تأدية المهمة بنجاح اراد ان

يبلغ ماريا كيريلوفنا بذلك فى الحال ، غير انه ظهر فجأة من خلف العريش صبى احمر الشعر ، احول العينين ، ممزق الثياب ، وانقض على الشجرة ، ودس يده فى التجويف ، فاندفع ساشا نحوه بأسرع من السنجاب وامسكه بكلتا يديه .

وقال متوعدا :

– ماذا تفعل هنا ؟

– وما دخلك انت ؟ – اجاب الصبى وهو يحاول التخلص منه .

فصرخ ساشا :

– دع هذا الخاتم أيها الارنب الاحمر ، والا اعطيتك درسا لن تنساه .

وبدلا من الاجابة سدد اليه الصبى لكمة فى وجهه ، لكن ساشا لم يدعه يفلت ، وصرخ بأعلى صوته :

– حرامى ، حرامى . . . اسرعوا . . اسرعوا . .

وحاول الصبى ان يتخلص منه ، وكان فيما يبدو اكبر من ساشا بعامين واقوى منه بكثير ، لكن ساشا كان امهر منه .

وتصارعا بضع دقائق ، ثم تغلب الصبى عليه فى النهاية ، فطرحه ارضا واطبق بيديه على رقبته .

ولكن فى تلك اللحظة امتدت يد قوية ، فامسكت بشعره الاحمر الخشن ، ورفعه البستانى ستيبان فوق الارض بنصف ذراع . . .

وقال البستانى :

– آه ، ايها الشيطان الاحمر . . كيف تجرؤ على ضرب السيد الصغير . . .

واستطاع ساشا أن ينهض ويتأهب من جديد ، ثم قال :

– لقد أمسكتنى من تحت ابطى والا لما طرحتنى ابدا . اعطنى الخاتم واغرب عن هنا .

– مستحيل ! – اجاب الصبى الاحمر ، واستدار فجأة فى مكانه ، فحرر شعره من يد ستيبان .

وانطلق يركض ، لكن ساشا لحق به ودفعه فى ظهره فسقط بشدة . وقبض عليه البستانى مرة اخرى وأوثقه بحزامه .

وصرخ ساشا :

– هات الخاتم !

– انتظر يا سيدى – قال ستيبان – فلنأخذه الى الوكيل ليعاقبه .

وقاد البستانى اسيره الى فناء منزل السيد ، وصاحبه ساشا وهو ينظر بقلق إلى سرواله الذى تمزق ولوثه العشب . وفجأة وجدوا انفسهم امام كيريلا بتروفيتش الذى كان ذاهبا لتفقد اصطبله .

ووجه السؤال الى ستيبان :

– ما هذا ؟

وشرح له ستيبان ما حدث فى كلمات قليلة .

واصغى اليه كيريلا بتروفيتش باهتمام . ثم قال مخاطبا ساشا :

– لماذا اشتبكت معه ايها الشقى ؟

– لقد سرق الخاتم من التجويف . . مُرْهُ ان يعطينى الخاتم يا بابا .

– اى خاتم ؟ ومن اى تجويف ؟

– خاتم ماريا كيريلوفنا . . ذلك الخاتم . . .
واضطرب ساشا وارتبك ، وتجهم كيريلا بتروفيتش وهو يهز رأسه :
– ان لماريا كيريلوفنا ضلعا فى هذا الامر . . هيا اعترف بكل شيء ، والا الهبت ظهرك بعود اخضر ، لن تتعرف بعده حتى على ابويك .
– والله يا بابا ، انا يا بابا . . ماريا كيريلوفنا لم تأمرنى بشيء يا بابا . . .
– اذهب يا ستيبان واقطع عودا طريا جيدا من شجرة بتولا .
– انتظر يا بابا ، سأقول كل شيء . كنت اركض اليوم فى الفناء ، وفتحت اختى ماريا كيريلوفنا النافذة فاقتربت منها ، وعندئذ سقط منها خاتم عفوا ، فأسرعت اخفيه فى التجويف . . و . . اراد هذا الصبى الاحمر ان يسرقه .
– سقط منها عفوا ، ومع ذلك اردت انت ان تخفيه . . . احضر العود يا ستيبان .
– انتظر يا بابا ، سأحكى كل شيء . لقد طلبت منى اختى ماريا كيريلوفنا ان اذهب الى شجرة البلوط واضع الخاتم فى التجويف ، فأسرعت الى هناك ووضعته . . لكن هذا الصبى الملعون . . .
والتفت كيريلا بتروفيتش الى الصبى الملعون وسأله متوعدا :
– صبى من انت ؟
– انا خادم السادة آل دوبروفسكى – اجاب الغلام الاحمر .

واكفهر وجه كيريلا بتروفيتش :
– يبدو انك لا تعترف بسيادتى . . حسنا ، وماذا كنت تفعل فى حديقتى ؟
فأجاب الصبى بلامبالاة فائقة :
– كنت اسرق التوت .
فقال كيريلا بتروفيتش ملاحظا :
– آها . . الخادم كسيده . . المصلون مثل امامهم . . وهل تطرح اشجار البلوط عندى توتا ؟
ولم ينبس الصبى .
– دعه يا بابا يسلّم الخاتم – قال ساشا .
– اسكت يا الكساندر – اجاب كيريلا بتروفيتش – لا تنس اننى سأعطيك علقة . اذهب الآن الى غرفتك . اما انت ايها الاحول فتبدو لى فتى مجربا . . هات الخاتم وعد الى دارك .
وفتح الصبى قبضته ليظهر له انه لا يخفى شيئا .
– لو اعترفت لى بكل شيء فلن اجلدك ، بل سأعطيك خمس كوبيكات لتشترى بها بندقا ، واذا لم تعترف فستنال منى شر عقاب . هيا !
ولكن الصبى لم ينبس ببنت شفة وظل واقفا مطأطأ الرأس ومتظاهرا بأنه ابله تماما .
فقال كيريلا بتروفيتش :
– حسنا ، اسجنوه ، واحرصوا الا يهرب ، والا سلخت جلدكم جميعا .
وقاد ستيبان الصبى إلى برج الحمام ، واغلق عليه الباب وامر مربية الطيور العجوز اجافيا بحراسته .

وقال كيريلا بتروفيتش بعـــد ان شيّع الغلام بنظراته :

— اذهب حالا الى المدينة واحضر رئيس الشرطة باسرع ما يمكن .

«ليس هناك شك فى انها على علاقة بدوبروفسكى الملعون ، ولكن امن المعقول انها استنجدت به حقا ؟ — فكر كيريلا بتروفيتش وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا مصفرا بغضب لحن : «زمجر يا رعد النصر» — ربما اكون قد وقعت اخيرا على اثره ، ولن يفلت منا . سنستغل هذه الفرصة ! انظر ، ها هو صوت ناقوس . الحمد لله ! إنه الرئيس !»

— هاتوا الصبى هنا .

وفى هذه اللحظة وصلت الى الفناء عربـــة تنقل الرئيس الذى تعرفنا عليه من قبل . ودخل الغرفة وقد غطاه الغبار .

وقال كيريلا بتروفيتش :

— نبأ رائع . . لقد قبضت على دوبروفسكى .

— الحمد لله يا صاحب المعالى — قال الرئيس مبديا فرحته — واين هو ؟

— ليس على دوبروفسكى نفسه ، بل واحد من عصابته . سيأتون به حالا . وسوف يساعدنا فى القبض على الزعيم نفسه . ها هم قد جاءوا به .

كان الرئيس يتوقع رؤيـــة قاطع طريق مرعب ، فصعق عندما راى صبيا فى الثالثة عشرة من عمره ، ضعيف البنيـــة الى حد كبير ، فالتفت الى كيريـــلا بتروفيتش متحيرا وانتظر منه تفسيرا . وفى الحال شرع

كيريلا بتروفيتش يروى له ما حدث فى الصباح دون الإشارة ، مع ذلك ، الى ماريا كيريلوفنا .

واصغى الرئيس باهتمام وهو ينقل بصره كل لحظة إلى الشقى الصغير الذى تظاهر بالغباء ، وبدا غير مهتم مطلقا بكل ما كان يدور حوله .

واخيرا قال الضابط :

— هل تسمح لى يا صاحب المعالى ان اتحدث اليك على انفراد ؟

فقاده كيريلا بتروفيتش الى غرفة اخرى واغلق خلفهما الباب .

وبعد نصف ساعة عادا ثانية إلى الصالة حيث كان الاسير ينتظر تقرير مصيره .

وتوجه اليه الرئيس قائلا :

— لقد اراد السيد ان يضعك فى سجن المدينة حيث يجلدونك ثم ينفونك بعد ذلك الى سيبيريا ، لكنى تشفعت لديه وحصلت لك على عفو منه . فكوا وثاقه .

— هيا اشكر السيد — قال الرئيس .

وتقدم الصبى الى كيريلا بتروفيتش فقبّل يده .

— عد الى دارك — قال له كيريلا بتروفيتش — واياك ان تعود إلى سرقة التوت من شجر البلوط .

وخرج الصبى ، وقفز من السلاملك بمرح ، وانطلق يركض عبر الحقـــل الى كيستينيوفكا دون ان يلتفت خلفه . وعندما وصل الى القرية ، توقف عند اول بيت فى طرفها ، وكان شبه مهدم ، وطرق النافذة فانفتحت وظهرت فيها امرأة عجوز .

قال الصبى :

— اعطنى كسرة خبز يا جدتى . منذ الصباح لم اذق شيئا . اكاد اموت من الجوع .

— اهذا انت ميتيا ، اين اختفيت ايها العفريت ؟ — اجابت العجوز .

— ساخبرك فيما بعد يا جدتى . . كسرة خبز ارجوك .

— ألا تدخل الى الدار ؟

— لا وقت عندى يا جدتى . . علىّ ان اذهب إلى مكان آخر . . كسرة خبز بحق المسيح . .. كسرة خبز .

— يا لك من عجول — همهمت العجوز — خذ ، ها هى كسرة الخبز . — وناولته من النافذة كسرة من خبز اسود .

والتهمها الصبى بشراهة وانطلق مواصلا ركضه وهو يمضغها .

اخذ الغسق يهبط ، وتوجه ميتيا الى غيضة كيستينيوفكا عبر حدائق الخضروات ومخازن الحبوب . وعندما وصل الى شجرتى الصنوبر القائمتين بمثابة حرس امامى للغيضة توقف ، وتلفت حوله فى جميع الجهات واطلق صفيرا حادا متقطعا ثم ارهف السمع . ورد عليه صفير خافت طويل ، ثم خرج احدهم من الغيضة وتقدم نحوه .

الفصل الثامن عشر

راح كيريلا بتروفيتش يذرع الصالة جيئة وذهابا ، وهو يصفر لحنه بأعلى من المعتاد . وكان المنزل كله يموج بالحركة . الخدم يهرولون ، والوصيفات فى هرج

ومرج ، والحوذية يجهزون العربة فى الحظيرة . وامتلأ الفناء بالناس . وفى غرفة ابنة السيد ، وقفت احدى السيدات امام المرايا ، تحيط بها الخادمات وأخذت تزيّن ماريا كيريلوفنا المتصلبة والتى مال رأسها بضعف تحت وطأة المجوهرات ، وكلما وخزتها المصففة دون قصد ، ارتعش بدنها رعشة خفيفة . لكنها ظلّت صامتة تحدق فى المرآة دون ان ينم وجهها عن اى شىء .

وتردد صوت كيريلا بتروفيتش عند الباب :

— هل ستنتهون قريبا ؟

— حالا — اجابت السيدة — انهضى يا ماريا كيريلوفنا وانظرى هل يعجبك هذا ؟

ونهضت ماريا كيريلوفنا ، ولم تقل شيئا . وفتح الباب .

— العروس جاهزة — قالت السيدة لكيريلا بتروفيتش — مُرْ بالجلوس فى العربة .

— فى رعاية الله — اجاب كيريلا بتروفيتش ، ثم تناول من على المنضدة ايقونة ، وقال لماشا بنبرة تأثر — تعالى هنا يا ماشا . . . اننى اباركك .

وارتمت الفتاة المسكينة على قدميه واجهشت بالبكاء :

— بابا . بابا . . — قالت خلال الدموع ثم احتبس صوتها .

واسرع كيريلا بتروفيتش يباركها ، ثم انهضوها ومضوا بها وهم يكادون يحملونها حملا فاجلسوها فى العربة . وجلست معها عرابة العرس وإحدى خادماتها وتوجهوا الى الكنيسة ، حيث كان العريس فى انتظارهم .

وخرج لملاقاة عروسه فاذهله شحوبها ومظهرها الغريب . ثم دخلا معا الى الكنيسة الباردة الخاوية . واغلقت خلفهم الابواب . وخرج القس من الهيكل وشرع توا فى اجراء الطقوس . ولم تكن ماريا كيريلوفنا ترى او تسمع شيئا ، فقد كانت تفكر فى شيء واحد وتنتظر دوبروفسكى منذ الصباح . لم تفقد الامل لحظة واحدة ، ولكن عندما توجه اليها القس بالسؤال التقليدى ارتعشت وجمدت وابطأت فى الرد ، فما زالت تنتظر . ولما لم يحصل القس منها على جواب نطق بالحكم الذى لا رجعة فيه .

وانتهت الطقوس ، واحست بقبلة الزوج الكريه الباردة . وسمعت تهانى الحاضرين المرحة ، لكنها لم تستطع بعد ان تصدق ان حياتها دفنت الى الابد ، وان دوبروفسكى لم يهب لتحريرها . وقال لها الامير كلمات رقيقة لم تفهمها . ثم خرجوا من الكنيسة التى كان فناؤها مزدحما بفلاحى بكروفسكويه ، فالقت عليهم نظرة سريعة ، عادت بعدها الى جمودها السابق . وجلس العروسان فى العربة معا وتوجها الى ارباتوفو ، التى كان قد سبقهما اليها كيريلا بتروفيتش ليقابل العروسين هناك . وعندما خلا الامير الى زوجته الشابة لم يتأثر مطلقا بمظهرها البارد ، ولم يضجرها بكلمات الحب المعسولة او الاطراء المضحك ، بل كانت كلماته بسيطة لا تتطلب ردا . وقطعوا على هذه الحال حوالى عشرة فراسخ ، والخيل تركض بسرعة على الطريق الريفى غير المستوى ، لكن العربة لم تكن تهتز تقريبا بفضل لوالبها الانجليزية . وفجأة ترددت اصوات مطاردة وتوقفت

العربة واحاطت بها ثلثة من الرجال المسلحين ، ثم تقدم رجل فى قناع نصفى ففتح باب الجانب الذى جلست فيه الاميرة الشابة وهو يقول لها :

— انت الآن حرة . اخرجى .

فصرخ الامير :

— ما معنى هذا ؟ من تكون انت . . .

— إنه دوبروفسكى — قالت الاميرة .

ولم يفقد الامير رباطة جأشه فاستل من جيبه مسدس سفر واطلق النار على قاطع الطريق المقنع . وصرخت الاميرة وهى تخفى وجهها بكلتا يديها فزعا . وجرح دوبروفسكى فى كتفه واخذت دماؤه تسيل . ولم يضيع الامير لحظة اخرى فاستل مسدسه الثانى ، لكنهم لم يمهلوه حتى يطلق النار ، اذ فتح باب العربة ، وامتدت عدة ايد قوية فأخرجته من العربة وانتزعت منه المسدس ، ولمعت فوق رأسه الخناجر .

فصرخ دوبروفسكى :

— اياكم ان تمسوه .

فتراجع رفاقه العابسون .

وواصل دوبروفسكى مخاطبا الاميرة الشابة :

— انت الآن حرة .

— كلا ، فات الاوان ، لقد اصبحت زوجة الامير فيريسكى .

— ماذا تقولين — صرخ دوبروفسكى يأسا — كلا ، لست زوجته . لقد اجبروك على الزواج ، ولا يمكن ابدا ان تكونى قد وافقت . . .

— فعارضته الاميرة بصلابة :

— لقد وافقت ، واقسمت اليمين . ان الامير زوجى ! فلتأمر باطلاق سراحه ، ودعنى امضى معه . انا لم أخدعك ، وانتظرتك حتى آخر لحظة . ولكنى الآن اقول لك : لقد فات الاوان . دعنا نرحل .

لكن دوبروفسكى لم يكن يسمعها ، فقد خارت قواه من الالم والاضطراب النفسى الشديد . وسقط بجوار العجلة فاحاط به قطاع الطريق ، واستطاع ان يقول لهم بضع كلمات ، فاركبوه على الحصان وسنده اثنان منهم بينما قاد الثالث الحصان ، وانطلقوا جميعا راحلين ، تاركين العربة وسط الطريق بعد ان اوثقوا الخدم وفكوا الخيول ، غير انهم لم يسرقوا شيئا ، ولم يريقوا قطرة دم واحدة انتقاما لدماء زعيمهم .

الفصل التاسع عشر

وسط غابة كثيفة ، وعلى مرج ضيق ارتفع استحكام ترابى صغير مكون من جسر وخندق ، ومن خلفه امتدت عدة اكواخ وخنادق مسقوفة .

واجتمع فى الفناء عدد كبير من الناس يمكنك بنظرة الى ملابسهم المتنوعة واسلحتهم المختلفة ان تتعرف فيهم فورا على قطاع الطريق . وكانوا يتناولون غداءهم وهم جالسون حاسرى الرؤوس بجوار قدر الطعام الجماعى . وعلى الجسر جلس القرفصاء حارس بجوار مدفع صغير ، واخذ يرقع قطعة معينة من ملابسه بمهارة تنم عن خياط خبير ، وكان يتلفت فى جميع الجهات بين لحظة واخرى .

وبالرغم من ان دورقا معينا تنقل عدة مرات من

ايد الى اخرى ، الا ان صمتا غريبا خيّم على هذه الجماعة . لقد تغدى قطاع الطريق ، ثم نهض الواحد منهم تلو الآخر فصلوا للرب ، وانصرف بعضهم الى الاكواخ ، وانطلق البعض الآخر يضرب فى الغابة او استلقى ليغفو قليلا حسب العادة الروسية .

وانهى الحارس عمله فنفض خرقه البالية ، وتملى معجبا من الرقعة ، ثم غرس الابرة فى كمه ، وجلس فوق ظهر المدفع وغنى بأعلى صوته اغنية قديمة حزينة :

لا تصخبى يا غابة خضراء يا اماه
لا تزعجى افكار ابنك الصنديد .

وفى هذه الاثناء فتح باب احد الاكواخ ووقفت عند عتبته امرأة عجوز فى غطاء راس ابيض ، انيقة الهندام جميلته ، وقالت بغضب :

— كفاك يا ستيوبكا . السيد نائم وانت تزعق بملء صوتك . انك عديم الضمير والرحمة .

— مذنب يا يجورفنا . حسنا ، لن افعل ذلك ثانية . فليسترح سيدى وليتماثل للشفاء .

وانصرفت العجوز ، وراح ستيوبكا يتمشى على الجسر .

فى الكوخ الذى خرجت منه العجوز ، وخلف حاجز ، رقد دوبروفسكى الجريح على سرير متنقل . وكانت مسدساته موضوعة امامه على مائدة صغيرة ، بينما تدلى سيفه على الحائط فوق راسه . وكانت ارض الخندق المسقوف وجدرانه مفروشة بالابسطة الفاخرة ، وفى احدى زواياه مائدة زينة نسائية مصنوعة من الفضة

ومرآة على حامل . وكان دوبروفسكى ممسكا فى يده بكتاب مفتوح ، لكن عينيه كانتا مغلقتين . ولم تدر العجوز التى كانت تسترق النظر من خلف الحاجز ، هل هو نائم ام انه مستغرق فى التفكير .

وفجأة انتفض دوبروفسكى فقد ساد الموقع جو منذر بالخطر ، واطل ستيوبكا براسه فى النافذة وصرخ :

— سيدى فلاديمير اندرييفيتش . رجالنا يرسلون إشارة . هناك مَنْ يتعقبنا .

وقفز دوبروفسكى من السرير والتقط سلاحه ، وخرج من الكوخ . كان قطاع الطريق متجمهرين فى الفناء وهم يثيرون صخبا ، وعندما ظهر دوبروفسكى لفهم صمت عميق .

وسأل دوبروفسكى :

— هل الجميع هنا ؟

فاجابوه :

— الجميع ما عدا المراقبين .

فصاح دوبروفسكى :

— اشغلوا مواقعكم !

فاحتل كل قاطع طريق موقعه المحدد .

وفى هذه اللحظة هرول ثلاثة من المراقبين نحو البوابة فخف دوبروفسكى للقائهم وسألهم :

— ماذا هناك ؟

فاجابوا :

— الجنود فى الغابة . انهم يحاصروننا .

فامر دوبروفسكى باغلاق البوابة ، وذهب ليتفقد المدفع بنفسه . وترددت فى الغابة عدة اصوات ثم

اخذت تقترب ، وقبع قطاع الطريق ينتظرون فى صمت . وفجأة خرج ثلاثة او اربعة جنود من الغابة ثم ارتدوا على الفور وهم يطلقون النار لانذار زملائهم .

وقال دوبروفسكى :

— استعدوا للمعركة !

فسرى حفيف بين قطاع الطريق ثم سكن كل شىء من جديد .

وعندئذ سمعوا ضجيج الجنود المقتربين الذين لمعت اسلحتهم بين الاشجار ، ثم خرج من الغابة حوالى مائة وخمسين جنديا ، اندفعوا نحو الجسر وهم يصيحون . واشعل دوبروفسكى فتيل المدفع ، فكانت طلقة موفقة اطارت براس احد الجنود وجرحت اثنين . ووقع ارتباك فى صفوف الجنود ، لكن الضابط قائدهم اندفع الى الامام فتبعه الجنود واقتحموا الخندق ، فاخذ قطاع الطريق يطلقون عليهم النار من البنادق والمسدسات ويدافعون بالفؤوس عن الجسر الذى اقتحمه الجنود الحانقون ، مخلّفين فى الخندق حوالى عشرين جريحا من رفاقهم . ونشبت معركة التحام بالسلاح الابيض . وكان الجنود قد ارتقوا الجسر ، وبدأ قطاع الطريق يتقهقرون ، غير ان دوبروفسكى اقترب من الضابط ، ودسّ المسدس فى صدره واطلق النار . فسقط الضابط على ظهره ، وحمله بعض الجنود على ايديهم واسرعوا بسحبه الى الغابة . اما البقية فقد توقفوا بعد ان فقدوا قائدهم . وارتفعت روح قطاع الطريق المعنوية فاستغلوا لحظة الارتباك هذه وكروا عليهم فردوهم الى الخندق . واخذ المحاصرون يهربون

فتبعهم قطاع الطريق وهم يصيحون . وتم احراز النصر . واوقف دوبروفسكى اتباعه معتمدا على الاضطراب التام الذى اصاب العدو ، وتحصن فى القلعة بعد ان امر بنقل الجرحى وتشديد الحراسة وعدم مغادرة اى فرد لمكانه .

ولفتت الحوادث الاخيرة انتباه الحكومة الجاد الى جرائم دوبروفسكى الجريئة . فجمعت المعلومات عن مكان تواجده وارسلت سرية من الجنود للقبض عليه حيا او ميتا . والقوا القبض على بعض افراد عصابته لكنهم علموا منهم ان دوبروفسكى ليس من بينهم . وبعد عدة ايام من هذا الحادث جمع دوبروفسكى كل اعوانه واخبرهم انه قرر تركهم نهائيا ونصحهم بان يغيروا هم ايضا اسلوب حياتهم . وقال :

– لقد اثريتم تحت قيادتى ، ولكل منكم جواز سفر يتيح له ان يتسلل بسلام الى اية محافظة بعيدة ويقضى هناك بقية عمره فى عمل شريف ومتمتعا بالرغد . لكنكم جميعا افّاقون ولن ترغبوا ، على الأرجح ، ان تتركوا مهنتكم هذه .

وبعد هذا الخطاب فارقهم ولم يصطحب معه غير (. . .) وحده . ولم يعرف احد الى اين ذهب وفى البداية تشككت السلطات فى صحة هذه الاقوال اذ كان معروفا مدى ولاء قطاع الطريق لزعيمهم ، فاعتقدت انهم يحاولون انقاذه . لكن الايام اكدت براءتهم ، فقد انتهت الزيارات الرهيبة واعمال السلب والحرائق واصبحت الطرق آمنة . ثم علم الناس عن طريق انباء اخرى أن دوبروفسكي اختفى خارج البلاد .

١٨٣٢ – ١٨٣٣

ابنة الآمر

احفظ شرفك منذ الصبا .
(مثل .)

الفصل الاول

رقيب الحرس

– استطاع ان يكون ضابط حرس غدا .
– لا حاجة الى ذلك ؛ دعه يخدم فى الجيش .
– قول صائب ! دعه يعرف المصاعب . . .

. . . .

ومن هو ابوه ؟
(من كوميديا «المتباهى» **لكنياجنين** .)

كان ابى اندريه بتروفيتش غرينيف فى صباه يخدم فى الجيش تحت امرة الكونت مينيخ ، وقد استقال فى عام . . . ١٧ وهو فى رتبة نقيب . ومنذ ذلك الحين عاش فى قريته فى ولاية سيمبيرسك حيث تزوج الآنسة افدوتيا فاسيلفنا ى . . . ، ابنة نبيل معدم من نبلاء تلك المنطقة . وكنا تسعة من البنين والبنات . وقد مات اخوانى واخواتى فى الطفولة .

كانت امى ما تزال حاملة بى ، حين سجلونى رقيبا فى فوج سيمينوفسكى ، بوساطة من رائد الحرس الامير

ب . . . ، وهو احد اقاربنا الاقربين . ولو ولدت امى ابنة ، على عكس جميع التوقعات ، لابلغ ابى الجهة المعنية عن موت الرقيب غير الموجود ، ولانتهى الامر بذلك . اعتبرت فى اجازة حتى انتهاء تحصيلى . وفى ذلك الوقت لم تكن نربى الاولاد كما نربيهم الآن . منذ الخامسة سلمت الى السائس سافيليتش الذى خول امر العناية بى بسبب من سلوكه الحسن . وتحت رعايته تعلمت القراءة والكتابة بالروسية فى سن الثانية عشرة ، واستطعت ان اميز صفات الكلب السلوقى . وفى ذلك الوقت استخدم ابى الفرنسى مسيو بوبريه الذى استقدم من موسكو مع مؤنة سنوية من النبيذ وزيت الزيتون . واستاء سافيليتش لقدومه استياء شديدا . فراح يدمدم مع نفسه : «الصبى ، والحمد لله ، نظيف ، مصفوف الشعر ، حسن التغذية ، على ما يبدو ، فما الحاجة الى صرف فلوس زائدة ، واستخدام مسيو ، وكأنه لم يبق احد من قومنا !»

كان بوبريه فى وطنه حلاقا ، ثم جنديا فى بروسيا ، ثم قدم الى روسيا pour être outchitel * ، غير مدرك كثيرا معنى هذه الكلمة . كان رجلا طيبا ، الا انه نزق خليع العذار الى اقصى حد . وكان موطن الضعف الرئيسى فيه ولعه بالجنس اللطيف ؛ وبسبب من عواطفه تلقى اكثر من مرة ضربات كان يعانى منها اياما . وهو بالاضافة الى ذلك لم يكن (على حد تعبيره) **خصما للزجاجة** ، اى (بالكلام الروسى) كان يحب حلاسها المفرطين . ولكن ، لما كان النبيذ يقدم فى

* ليصبح معلما . (**بالفرنسية** .)

بيتنا عند الغداء فقط ، وقدحا واحدا لكل شخص ، وفضلا عن ذلك كان يغفل المعلم عادة لدى التقديم ، فان صاحبى تعود بسرعة شديدة على الخمرة الروسية ، بل صار يفضلها على انبذة وطنه باعتبارها انفع للمعدة كثيرا . وسرعان ما تمت الالفة بيننا . وبالرغم من انه كان ملزما ، بموجب العقد ، على تعليمى **الفرنسية ، والالمانية ، وجميع العلوم** ، الا انه كان يفضل ان يتعلم منى على وجه السرعة ان يتكلم شيئا بالروسية ، وفيما بعد انشغل كل واحد منا بشأنه . كنا فى تفاهم تام ، ولم ترغب نفسى فى مرب غيره . الا ان القدر سرعان ما فرق بيننا . وهذه هى الحكاية :

ذات مرة اتفقت الغسالة بالاشكا ، وهى فتاة بدينة مجدورة ، وراعية البقر العوراء اكولكا على الارتماء فى وقت واحد على قدمى امى ، معترفين بضعفهما الاجرامى ، واشتكتا ، وهما تبكيان ، من المسيو الذى غرر بسذاجتهما . وكانت امى لا تحب المزاح بذلك ، فاشتكت لدى ابى . وكان ابى شديد الحزم فى قطع دابر مثل هذه الامور . فأمر فى الحال باحضار الفرنسى الفاسق . وحين ابلغ بأن المسيو منشغل فى اعطائى درسا جاء بنفسه الى غرفتى . فى تلك الاثناء كان المسيو ينام فى السرير نوما وديعا . وكنت مشغولا بعمل . وهنا تجدر الاشارة الى ان خارطة جغرافية كانت قد ارسلت لى من موسكو . وكانت معلقة على الحائط دون اية استفادة منها ، وكان عرض ورقها وجودته يغريانى بها منذ وقت طويل . وقد عزمت على ان اصنع منها طائرة ورقية ، وشرعت فى تنفيذ العمل مستغلا نوم بوبريه .

وقد دخل ابى علىّ ، وانا اثبت ذيلا ليفيا على رأس الرجاء الصالح . ولما رأى ابى تمارينى فى الجغرافية جر اذنى ، ثم هرع الى بوبريه ، وايقظه بطريقة غير محترسة كثيرا ، وراح يصب عليه اللوم والتقريع . حاول بوبريه فى ارتباكه ان ينهض ، الا انه لم يستطع : فان الفرنسى التعيس كان فى غاية السكر . تعددت الذنوب والعقاب واحد . امسكه ابى من تلابيبه ، ورفعه من السرير ، ودفعه خارج الباب ، وطرده من البيت فى نفس اليوم ، وفرح سافيليتش فرحا لا يوصف . وبذلك انتهى تعليمى .

عشت غير مكمل تعليمى ، اطارد الحمام ، والعب القفز على ظهور الاولاد من ابناء الخدم ، وخلال ذلك بلغت السادسة عشرة . وهنا حصل تغير فى حياتى .

ذات مرة خريفا كانت امى تصنع مربى العسل فى غرفة الجلوس ، وكنت انا انظر الى الزبد الفائر متلمظا . وكان ابى يقرأ عند النافذة «حولية البلاط» التى يتلقاها سنويا . وكان هذا الكتاب شديد التأثير فيه على الدوام . لم يطالعه قط دون انفعال شديد . كانت مطالعته له تثيره اثارة عجيبة . ولما كانت امى تحفظ كل عاداته واهوائه ، فقد كانت تحاول ان تبعد هذا الكتاب المنحوس عنه ابعد ما يمكن ، فكانت عيناه لا تقع على حولية البلاط اشهرا كاملة فى بعض الاحيان ، ولكن اذا عثر عليه مصادفة ظل بين يديه ساعات كاملة . وهكذا كان ابى يقرأ فى حولية البلاط ، هازا كتفيه بين الحين والآخر ، مرددا بصوت خفيض : «جنرال ! . . . وكان فى كتيبتى برتبة رقيب ! . .

حائز على الوسامين الروسيين الاولين كليهما ! . . والى زمن ليس بالبعيد كنا . .» واخيرا قذف ابى بالحولية على الاريكة ، وغرق فى تفكير لا يؤمل منه خير .

وفجأة التفت الى امى سائلا :

— يا افدوتيا فاسيليفنا ، ما عمر بيتر ؟

اجابت امى :

— دخل السابعة عشرة . ولد بيتر فى السنة التى فقدت فيها العمة ناستاسيا غيراسيموفنا عينها ، وحين . . .

قاطعها ابى :

— حسنا ، حان اوان التحاقه بالجيش . كفاه ملاحقة البنات ، وتسلقا الى بيوت الحمام .

وبهتت امى من فراقى الوشيك بهوتا عظيما جعلها تسقط الملعقة فى القدر ، وسالت الدموع على وجهها . ومقابل ذلك يصعب على وصف فرحتى . فان فكرة الخدمة فى الجيش كانت ترتبط فى نفسى بفكرة الحرية ، ومسرات الحياة فى بطرسبورغ . تصورت نفسى ضابطا فى الحرس ، وكان ذلك ، فى رايى ، اسمى درجات النعيم الانسانى .

كان ابى لا يحب تغيير ما يعزم عليه ، ولا تأجيل تنفيذه . وحدد يوم سفرى . وفى عشيته اعلن ابى انه ينوى ان يرسل معى رسالة الى رئيسى المقبل ، وطلب احضار الريشة والورق .

قالت امى :

— لا تنس ، يا اندريه بتروفيتش ، ان تبلغ

سلامى الى الامير ب . . . ، اكتب له اننى آمل ان يشمل بيتر بألطافه .

رد ابى عابسا :

— ما هذا الهراء ! بأية مناسبة اكتب للامير ب . . . ؟

— الم تقل انك ستكتب الى رئيس بيتر ؟

— وما فى ذلك ؟

— ورئيس بيتر هو الامير ب . . . فان بيتر مسجل فى فوج سيمينوفسكى .

— مسجل ! وما يهمنى من هذا التسجيل ؟ لن يذهب بيتروشا الى بطرسبورغ . فماذا سيتعلم اذا صار يخدم فى بطرسبورغ ؟ يبذر ويفسق ؟ لا ، دعيه يخدم فى الجيش ، ويتدرب حسب الاصول . يستنشق البارود ، ويصير جنديا لا فتى فارغا ! مسجل فى الحرس ! اين جوازه ؟ اجلبيه لى .

وجدت امى الجواز الذى كان محفوظا فى علبتها مع القميص الذى تعمدت فيه ، وقدمته الى ابى بيد مرتجفة . قرأه باهتمام ووضعه على الطاولة امامه ، وشرع يكتب رسالته .

اخذ حب الاستطلاع يعذبنى : الى اين سيرسلنى اذا لم يكن الى بطرسبورغ ؟ لم اصرف بصرى عن ريشة ابى التى كانت تتحرك ببطء شديد . واخيرا فرغ منها ، ووضعها فى ظرف واحد مع الجواز ، وخلع نظارته ، ودعانى اليه وقال : «هذه رسالة لك مرسلة الى اندريه كارلوفيتش ر . . . ، رفيقى القديم وصديقى . ستسافر الى اورنبورغ لتخدم تحت امرته» .

وهكذا تحطمت كل آمالى المتألقة ! فبدلا من حياة بطرسبورغ المرحة كان فى انتظارى ضجر فى ناحية نائية . والخدمة التى كنت افكر فيها قبل لحظة بعظيم الغبطة بدت لى شقاء ثقيلا . الا ان الامر لا يحتمل الجدل . فى صباح اليوم التالى وصلت عربة سفر الى مدخل البيت ، ووضعت فيها حقيبتى ، وصندوق فيه ادوات الشاى ، وصرر الكعك والفطائر ، وهى الدلائل الاخيرة لدلال الاهل . وباركنى والداى ، وقال لى ابى : «وداعا ، يا بيتر . اخدم باخلاص من تقسم له يمين الولاء ، واطع الرؤساء ، ولا تستجد عطفهم ، ولا تتهالك على الخدمة ، ولا تتهرب منها . وتذكر المثل القائل : احرص على لباسك وهو جديد ، وعلى شرفك منذ الصبا» . واوصتنى امى ، والدموع فى عينيها ، بان اعتنى بصحتى ، وطلبت من سافيليتش بأن يرعى ولدها . والبسونى معطفا من فراء الارنب ، وفوقه فروة ثعلب . وركبت العربة مع سافيليتش ، وبدأنا السفر ، والدموع تترقرق فى عينى .

وصلت الى سيمبيرسك فى ذات الليلة ، وكان على ان امكث فيها يوما كاملا لشراء الاشياء اللازمة ، وكلف سافيليتش بذلك . نزلنا فى حانة وخرج سافيليتش منذ الصباح متجولا بين الحوانيت . سئمت التطلع من النافذة الى الزقاق الموحل ، فخرجت اطوف فى جميع الحجرات . ودخلت حجرة البليارد ، ورأيت سيدا طويل القامة فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر له شاربان اسودان طويلان ، وعليه مبذل منزلى ، وفى يده عصا اللعب ، وبين اسنانه غليون . كان يلاعب الشخص المكلف

بالتسجيل الذى كان يحتسى كأسا من الفودكا اذا ربح ، ويحبو تحت منضدة البليارد على الاربع اذا خسر . اخذت اراقب لعبهما . وكلما طال اللعب ازداد الحبو على الاربع ، حتى بقى المسجل تحت المنضدة فى آخر الامر . تفوه السيد فوقه ببعض العبارات الشديدة بمثابة كلمة رثاء ، واقترح على ان الاعبه . رفضت لجهلى باللعبة . فلاح ذلك له غريبا على ما يبدو . نظر الى وكأنه يأسف لذلك ، الا اننا شرعنا نتحدث . عرفت انه يدعى ايفان ايفانوفيتش زورين ، وانه نقيب فرسان ، وانه جاء الى سيمبيرسك ليشهد مراسيم التجنيد ، وهو يقيم فى الحانة . ودعانى زورين الى ان اتغدى معه ما رزق الله ، وعلى طريقة الجندى . قبلت الدعوة بطيب خاطر . وجلسنا الى المائدة . شرب زورين كثيرا ، ودعانى الى الشرب ايضا قائلا انه ينبغى التعود على الحياة العسكرية ؛ وقص علىّ حكايات من حياة الجيش كادت تفقدنى زمام نفسى لشدة ما اضحكتنى ، ونهضنا من وراء المائدة صديقين على اتم ما تكون الصداقة . وهنا عرض علىّ ان يعلمنى لعب البليارد ، وقال : «انه ضرورى للعسكرى . فمثلا حين تخرج فى مسيرة ، وتصل الى بلدة صغيرة فبأى شىء ستقضى وقتك ؟ انك ستضطر الى اللجوء الى حانة ، وتلعب البليارد ، ولهذا الغرض ينبغى ان تجيد اللعبة !» اقتنعت بذلك كليا ، واخذت اتعلم باجتهاد شديد . وكان زورين يشجعنى بصوت عال مبديا دهشته من نجاحاتى السريعة ، وبعد عدة دروس ، اقترح على ان نلعب بنقود ، ببضعة فلوس ، لا لقصد الكسب ، بل لمجرد الا يكون لعبنا

عبثا ، وهو على حد قوله اردأ عادة . ووافقت على ذلك ايضا ، وامر زورين بأن يقدم شراب «البونش» ، وحثنى على تذوقه ، مكررا ان من الضرورى لى التعود على الخدمة العسكرية ، واية خدمة بلا شراب «البونش» ! واطعته . وخلال ذلك استمر لعبنا . وكلما ترشفت من قدحى ازدادت جرأة فى اللعب . وكانت الكرات تتطاير منى تباعا قافزة عبر حافة المنضدة ، واحتد مزاجى ، وشتمت المسجل الذى يعلم الله كيف كان يسجل ، ويزيد الرهان ، وباختصار اننى تصرفت كصبى انطلق فى دنيا الحرية . وخلال ذلك كان الوقت يمر دون ان يلحظ . نظر زورين فى الساعة ، ووضع العصا ، وابلغنى باننى خسرت مائة روبل . وقد اربكنى ذلك بعض الشىء ، لان نقودى عند سافيليتش . اخذت اعتذر . قاطعنى زورين : «ارجوك ! لا تدع ذلك يقلقك . استطيع ان انتظر ، والآن لنذهب الى ارينوشكا» .

وما حيلتى ؟ وهكذا قضيت المساء بسفاهة كما بدأت النهار . تناولنا العشاء عند ارينوشكا . وكان زورين يصب لى الاقداح تباعا ، مكررا ان من الضرورى التعود على الخدمة العسكرية . ولما نهضت من المائدة كنت لا اكاد اقف على قدمى . وعند منتصف الليل قادنى زورين الى الحانة .

قابلنى سافيليتش عند مدخل الحانة . وقد ندت منه آهة حين رأى الدلائل الواضحة على اجتهادى فى الخدمة . قال بصوت بائس : «ماذا جرى لك ، يا سيد ؟ اين سكرت هذه السكرة ؟ يا الهى ، انا لم ار مثل هذا طوال حياتى !» اجبته متذمرا : «اسكت ، يا عجوز ! انت

سكران بالتأكيد . اذهب لتنام . . . وضعنى فى السرير» .

استيقظت فى اليوم التالى مصدوعا ، وتذكرت بغموض ما حصل لى البارحة . وقد قطع سافيليتش تأملاتى حين دخل يحمل قدحا من الشاى . قال لى وهو يهز رأسه : «بدأت حياة السكر مبكرا ، يا بيتر اندريفيتش . على من طلعت ؟ اظن لا ابوك ولا جدك كان سكيرا ، ولا حاجة لذكر امك : طوال حياتها لم تضع فى فمها غير «الكفاس» * . ومن الملوم فى كل ذلك ؟ المسيو اللعين . كان يتردد على حانة انتيبيفنا بين الحين والآخر ، ويرطن قائلا : «مدام جى فو برى فودكا» . وهذه هى النتيجة ! هذا هو الواقع ، علمك الخير ، ابن الكلب ذاك . كأنما كنت بحاجة الى مرب زنديق ، وكأن اباك لم يكن له مربون من بنى قومه !» .

شعرت بالخجل . استدرت بوجهى وقلت له : «اخرج ، يا سافيليتش . لا اريد شايا» . ولكن كان من الصعب ايقاف سافيليتش اذا بدأ موعظة . «ها انت ترى ، يا بيتر اندريفيتش نتيجة الاسراف فى الخمرة . الرأس ثقيل ، والشهية معدومة . شارب الخمرة لا يصلح لشىء . اشرب ماء الخيار المملح مع العسل . والاحسن من ذلك ان تكسر خمارك بنصف قدح من الخمرة القوية . هل تريد ؟» .

وفى اثناء ذلك دخل غلام ، وسلمنى مذكرة من زورين . نشرتها وقرأت السطور التالية :

* مشروب روسى غير كحولى من دقيق الجودار . (المترجم ·)

«العزيز بيتر اندريفيتش . ارجو ان ترسل لى بيد الغلام المائة روبل التى خسرتها معى بالامس . فانا بحاجة ماسة الى الفلوس .

المستعد لخدمتك

ايفان زورين» .

ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد . خلعت على نفسى مظهر اللامبالاة ، والتفت الى سافيليتش الذى هو صاحب مالى وملبسى واحوالى ، وامرته بأن يعطى الغلام مائة روبل . فسأل سافيليتش مدهوشا : «كيف ؟ ولماذا ؟» اجبت باكثر ما يمكن من البرود : «انا مدين له بها» . فاعترض سافيليتش الذى كان يزداد دهشة باطراد : «مدين ! وكيف تسنى لك الوقت لتكون مدينا ، ايها السيد ؟ الامر ينطوى على شىء غير مفهوم . افعل ما تشاء ، يا سيد ، انا لن اعطى الفلوس» .

وفكرت فى اننى اذا لم اغلب العجوز العنيد فى مثل هذه اللحظة الحرجة فسيصعب علىّ فيما بعد التحرر من وصايته فنظرت اليه بأنفة ، وقلت : «انا سيدك ، وانت خادمى . والنقود نقودى . وقد خسرتها بسبب من رغبتى الخاصة . انا انصحك بأن لا تتحذلق ، وافعل ما اومرك به» .

واذهلت كلماتى سافيليتش حتى انه رفع ذراعيه ، وجمد فى مكانه . صرخت به حانقا : «لماذا انت واقف ؟» طفق يبكى قائلا بصوت مرتجف «سيدى بيتر اندريفيتش ، يا روحى ، لا تدعنى اموت من اليأس . اصغ الى ، انا العجوز : اكتب لهذا اللص انك كنت

تمزح ، وانه لا قبل لنا بمثل هذا المبلغ . مائة روبل ! يا ربى الرحيم ! وقل له ان والديك منعاك منعا باتا من اللعب بغير الجوز . . .» قاطعته بحزم : «كفى كذبا ، هات النقود ، والا طردتك شر طردة» .

نظر سافيليتش الىّ بأسى عميق ، ومضى ليجلب دينى . اشفقت على العجوز المسكين ، الا اننى اردت ان استقل بحريتى ، واثبت اننى لم اعد طفلا . وارسلت النقود الى زورين . اسرع سافيليتش باخراجى من الحانة اللعينة . فقد جاء ينبؤنى بان الخيول قد اعدت . وغادرت سيمبيرسك بضمير مضطرب ، وندم صامت ، دون ان اودع معلمى ، وغير ظان بأننا سنلتقى ثانية .

الفصل الثانى

الدليل

منای ، یا منای ،
منای الغريب !
لم اجیء اليك بمحض ارادتی
ولا قادنی اليك حصانی الكريم
بل قادنی اليك ، انا الفتى الطيب ،
الاقدام ، وتوثب الصبا ،
والسكر فى الحانات .
(اغنية قديمة .)

لم تكن تأملاتى خلال السفرة مريحة جدا . فان خسارتى ، بالنسبة لاسعار ذلك الزمن ، لم تكن قليلة الاهمية . ولم يكن فى ميسورى الا ان اعترف فى قرارة نفسى بأن تصرفى فى حانة سيمبيرسك كان تصرفا احمق ، وشعرت بالذنب ازاء سافيليتش . وقد آلمنى كل ذلك . كان العجوز يجلس الى جوار سائق العربة متجهم الاسارير ، مشيحا بوجهه عنى ، صامتا ، لا تبدر منه غير غمغمة بين الحين والآخر . كنت اود بالتأكيد لو اصالحه ، ولا اعرف كيف ابدأ المصالحة . واخيرا قلت له : «كفى ذلك يا سافيليتش ! لنتصالح . انا المذنب فى حقك ، ادرك ان الذنب يقع على . بالامس ابديت

حماقة ، واسأت اليك . اعدك بأن اتصرف فى المستقبل تصرفا اكثر تعقلا ، واطيعك . حسنا ، لا تغضب ، ولنتصالح» .

اجاب بتنهيدة عميقة :

— آه ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! انا غاضب على نفسى ، انا وحدى المذنب . كيف تركتك فى الحانة لوحدك ! ما العمل ؟ اغوانى الشيطان ، ففكرت فى زيارة امراة الشماس ، عرابتى . ذهبت الى بيتها وامضيت عندها وقتا طويلا . ما افظع ذلك ! . . كيف سأبدو فى عيون والديك ؟ ماذا يقولان لو يعرفان ان ابنهما يسكر ويقامر ؟

ولتهدئة سافيليتش المسكين قطعت له عهدا باننى لن انفق فلسا واحدا فى المستقبل دون موافقته . وهدأ شيئا فشيئا ، رغم انه ظل يدمدم مع نفسه بين الحين والآخر هازا رأسه : «مائة روبل ! وكأنها فلس او فلسان !»

اقتربت من المكان الذى اقصده . امتدت حولى رحاب حزينة تتخللها تلال ووهاد . وكان الثلج يغطى كل شىء . وغربت الشمس وسارت العربة فى طريق ضيقة ، والاصح على الاثر الذى شقته زلاقات الفلاحين . وفجأة اخذ الحوذى يحدق فى ناحية ، واخيرا ، خلع قبعته ، والتفت نحوى ، وقال :

— ايها السيد ، الا تأمر بالعودة ؟

— ولم ذاك ؟

— الجو لا يعول عليه : فالريح ترتفع رويدا ، وهى تذرو الثلج .

— وما وجه الخطر فى ذلك ؟

— الا تنظر هناك ؟ (واشار الحوذى الى الشرق بسوطه) .

— لا ارى غير سهب ابيض ، وسماء صافية .

— وهناك ، هناك هذه الغمامة .

وفى الحق لمحت فى طرف السماء غمامة بيضاء حسبتها فى البدء تلا بعيدا . وشرح لى الحوذى ان الغمامة نذير عاصفة ثلجية .

كنت قد سمعت عن العواصف الثلجية فى هذه المنطقة ، وعرفت انها كانت تغمر بالثلج قوافل كاملة من العربات . واشار سافيليتش بالعودة متفقا مع الحوذى بالرأى . الا ان الريح بدت لى غير شديدة ، واملت ان نصل الى المحطة القادمة فى الوقت المناسب ، وامرت ان تغذ العربة فى السير .

اطلق الحوذى العنان الا انه ظل يلقى ببصره صوب الشرق . وانطلقت الخيول فى عدو سريع . بينما كانت الريح تزداد شدة ساعة بعد ساعة ، وتحولت الغمامة الى سحابة بيضاء ارتفعت بتثاقل ، وتنامت شيئا فشيئا حتى غطت اقطار السماء . ونزل ثلج دقيق ، ثم تساقط فجأة ندفا . وصفرت الريح ، وتحولت الى عاصفة ثلجية . وفى لحظة واحدة التحمت السماء الداكنة بالبحر الثلجى . واختفى كل شىء . وصاح الحوذى : «انها العاصفة ، ايها السيد ، مصيبة !» . . .

اطللت من العربة . فلم ار غير ظلام متكاثف واعصار . وكانت الريح تعصف عصفا وحشيا حتى بدأت وكأنها روح حية ، وغطانى الثلج وغطى

سافيليتش ، وتحولت الخيول الى الخطو ، وما لبثت حتى توقفت . سألت الحوذى بنفاد صبر : «لماذا لا تتحرك ؟» اجاب ، وهو يترك مقعده : «وكيف اتحرك ؟ الله يعلم اين نحن الآن . الطريق لا يبين ، وحولنا ظلمات» . اخذت اشتمه ، والتزم سافيليتش جانبه . قال غاضبا : «لو سمعت كلامه لعدنا الى نزل ، وشربت الشاى ، ولنمت حتى الصباح ، حيث تكون العاصفة قد هدأت ، لواصلنا السفر . لم العجالة ؟ انحن ذاهبون الى عرس ؟» كان سافيليتش على حق ، ولا مجال لرد ما وقع . ظل الثلج ينثال . وارتفع كثيب منه عند العربة . وكانت الخيول واقفة مطأطئة الرؤوس ، مرتعدة بين الحين والآخر . وكان الحوذى يدور حول العربة ، ويصلح العدة تمضية للوقت . وكان سافيليتش يدمدم . تلفت فى كل الجهات ، مؤملا ان المح على الاقل امارة على مأوى او طريق ، الا اننى لم استطع ان اتبين غير دوامة العاصفة المدلهمة . . . وفجأة لمحت شيئا اسود . هتفت : «يا حوذى ! انظر ما هذا الذى يسود هناك ؟» اخذ الحوذى يتفرس . قال وهو يجلس فى مقعده : «الله يعلم ايها السيد ، لا هو بعربة ، ولا هو بشجرة ، ولكنه يتحرك . لا بد انه ذئب او انسان» .

امرت ان يتجه نحو الشىء الغامض ، الذى صار فى الحال يتحرك نحونا . وبعد دقيقتين اقتربنا من شخص .

صاح به الحوذى :

— هاى ، ايها الرجل الطيب ! خبرنا اتعرف اين الطريق ؟

اجاب عابر الطريق :

— الطريق هنا ، انا واقف على جادته الصلبة . ولكن ما الفائدة ؟

قلت له :

— اسمع ، ايها الرجل ، اتعرف انت هذه الناحية ؟ اتستطيع ان تدلنا على مكان نبيت فيه .

اجاب عابر الطريق :

— انا اعرف هذه الناحية ، والحمد لله . طرقتها ماشيا وجبتها راكبا ، ولكن انظر اى جو هو ، ستضل الطريق لا محالة . من الافضل البقاء هنا والانتظار حتى تهدأ العاصفة ، وتصفو السماء : عندئذ سنعرف الطريق بالنجوم .

وشجعتنى برودة اعصابه . فقررت ، بعد الاتكال على الله ، ان اقضى الليلة وسط السهب ، حين جلس عابر الطريق فجأة وبخفة على مقعد السائق ، وقال للحوذى : «حمدا لله على ان المنزل غير بعيد ، استدر الى اليمين ، وسر فى طريقك» .

سأل الحوذى فى غير ما رضى :

— ولماذا على ان اسير الى اليمين ؟ واين ترى الطريق ؟ اظن ان الخيول لا تعود لك ، ولا العدة تخصك فلا يهمك الا السفر . — ولاح لى الحوذى محقا . قلت : «لم تظن ان المنزل ليس ببعيد ؟» اجاب عابر الطريق : «لان الريح تهب من تلك الجهة ، وانا اشم رائحة دخان ، يعنى ان قرية على مقربة» . وادهشتنى رهافته ودقة حاسته . امرت الحوذى ان يسير . وسارت الخيول متثاقلة على الثلج العميق . وتقدمت العربة ببطء ، تارة تصعد على كومة ثلج ، وتارة تغوص فى منخفض ، وتقع

مرة على هذا الجانب ، واخرى على ذلك . فكانت تشبه سفينة تمخر عباب بحر هائج . وكان سافيليتش يتأوه مصطدما بجنبى بين الحين والآخر . اسبلت الستارة ، وتدثرت بالفروة ، وراودنى النعاس بعد ان هدهدتنى ترنيمة العاصفة وتمايل السير البطىء .

وحلمت حلما لم استطع ان انساه طوال حياتى ، وحتى الآن اجد فيه شيئا نبوئيا حين اقارنه بالظروف العجيبة التى مرت فى حياتى . ارجو ان يعذرنى القارىء ، لانه ، على الارجح ، يعرف من تجربته ان الانسان مجبول على الانسياق وراء الخرافات ، رغم ازدرائه التام لها .

كنت فى تلك الحالة الشعورية والنفسية التى يتراجع فيها الواقع امام الاحلام ، ويمتزج معها فى رؤى غامضة فى اوائل النوم . حلمت بأن العاصفة ما زالت تزمجر ، ونحن ما نزال تائهين فى الفضاء الثلجى . . . وفجأة لمحت بوابة ، ودخلت فناء ضيعتنا . واول ما خطر فى ذهنى هو ان اتفادى غضب ابى علىّ بسبب عودتى غير المرغوبة الى كنف الوالدين ، واعتبارها خروجا مقصودا عن طاعته . قفزت من العربة قلقا ، فرأيت امى تستقبلنى عند المدخل بهيئة من الحزن العميق . وتقول لى : «رويدك . ان اباك مريض ويوشك ان يموت ، ويريد ان يودعك» . واتبعها الى غرفة النوم وقد تملكنى الذعر . واجد الغرفة خافقة الضوء ، وعند السرير يقف اناس ، ذوو وجوه مفجوعة . اتقدم من السرير بهدوء . وترفع امى الستارة قليلا ، وتقول : «اندريه بتروفيتش ، ها هو بيتر قد وصل ؛ عاد بعد ان علم بمرضك ؛ فباركه» . ركعت على ركبتى ، وصوبت

عينى الى المريض . ما هذا ؟ رأيت بدلا من ابى فلاحا ذا لحية سوداء راقدا فى السرير ، ينظر الى نظرة مرحة . التفت الى امى مرتبكا قائلا لها : «ما يعنى هذا ؟ انه ليس ابى . فلماذا اطلب البركة من فلاح ؟» اجابت امى : «لا فرق يا بيتر انه ابوك فى العرس* فقبل يده ، ودعه يباركك . . .» . لم اوافق . عندئذ وثب الفلاح من السرير ، واختطف فأسا من وراء ظهره ، وراح يلوح بها فى كل الجهات . اردت ان اهرب . . . ولكنى لم استطع ، كانت الحجرة مملوءة بالجثث الميتة ، وارتطمت بجثة ، وانزلقت فى برك الدم . . . نادانى الفلاح الرهيب برقة قائلا : «لا تخف ، تقدم لبركتى . . .» واستولى الذعر والاضطراب علىّ . . . وفى تلك اللحظة استيقظت . كانت الخيول واقفة ، وسافيليتش يهز يدى ، ويقول : «اخرج ، يا سيد ، وصلنا» .

سألت وانا افرك عينى : الى اين وصلنا ؟

— الى النزل . اعاننا الرب ، ووقعنا على السياج رأسا . انزل ، يا سيد ، بسرعة لتتدفأ .

خرجت من العربة . كانت العاصفة ماضية فى عصفها ، ولكن شدتها قد خفت . كان الظلام شديد الحلكة . استقبلنا صاحب النزل عند الباب ، واضعا المصباح تحت طرف ردائه ، وقادنى الى غرفة جلوس صغيرة ولكنها نظيفة ، يضيؤها سراج . وقد علقت على الحائط بندقية ، وقبعة قوزاقية عالية .

كان صاحب النزل وهو قوزاقى الاصل من يايك ،

* شخص يقوم مقام الاب او الام للعروس او العريس اثناء العرس . (**المترجم** .)

رجلا فى نحو الستين من العمر ما زال نضرا خفيف الحركة . حمل سافيليتش الصندوق ورائى ، وطلب ان توقد النار ليحضر الشاى الذى لم اكن فى يوم من الايام احوج اليه منى الآن . وانصرف صاحب النزل لشغله .
سألت سافيليتش :

— اين الدليل ؟

اجابنى صوت من الاعلى : «هنا يا صاحب السيادة» .
رفعت بصرى الى الرفوف فوق الموقد ، ورأيت لحية سوداء وعينين لامعتين . «هل تجمدت ، يا اخ ؟» — «كيف لا اتجمد وانا فى هذا المعطف الخفيف ! كانت لدى فروة ، ولكن (لماذا اخفى عنك ؟) رهنتها البارحة عند بائع الخمر . لم اتصور البرد شديدا» . وفى هذه اللحظة دخل صاحب النزل يحمل سماورا يغلى . عرضت على الدليل ان يحتسى معنا قدحا من الشاى . نزل الفلاح من الرفوف فوق الموقد . فلاح لى مظهره رائعا : كان فى نحو الاربعين من العمر ، متوسط القامة ، نحيلا ، عريض المنكبين . وخط الشيب لحيته السوداء . وكانت عيناه الكبيرتان المتألقتان لا تفتآن تتحركان . وقد ارتسم على وجهه تعبير لطيف جدا ، ولكن فيه دهاء . وقد حلق شعره على شكل دائرة . وكان يرتدى معطفا فلاحيا مهلهلا وسروالا تتريا . قدمت له قدح الشاى . احتساه وتغضن وجهه . «يا صاحب السيادة ، اصنع لى معروفا ، واطلب لى قدحا من الخمر . فان الشاى ليس ما يشربه القوزاقى» . لبيت طلبه برضى . اخرج صاحب النزل من الخزانة قارورة وقدحا ، وتقدم منه ، ونظر فى وجهه ، وقال : «آه ، مرة اخرى انت فى ديارنا ! من اين جاء

بك الرب ؟» غمز دليل غمزة ذات دلالة ، واجاب بمثل سائر : «طرت الى المزرعة انقر القنب ، فرمتنى الجدة بحصاة ، واخطأتنى . كيف جماعتكم ؟» .
اجاب صاحب النزل متابعا هذا الحديث المجازى :

— جماعتنا ! صاروا يتنادون لصلاة المساء ، ولكن زوجة القس لا تسمح لان القس قد خرج ضيفا والشياطين تسرح فى المقبرة .

اعترض المتشرد :

— اسكت ، يا عم . سينزل المطر ، وينبت الفطر ، وتكون للفطر سلة . والآن (وهنا غمز مرة اخرى) خبئ الفأس ، فحارس الغابة فى المرصاد . يا صاحب السيادة ، نخب صحتك ! — وبهذه الكلمات تناول القدح ، ورسم علامة الصليب وشربه بجرعة واحدة . ثم انحنى لى ، وعاد الى الرفوف فوق الموقد .

آنذاك لم افهم شيئا من حديث اللصوص هذا . ولكننى حدست فيما بعد ان الامر متعلق بقضية فرقة يايك القوزاقية التى لم يكن قد مضى على قمعها آنذاك غير وقت قصير بعد عصيان عام ١٧٧٢ . كان سافيليتش يستمع وتقطيبة عدم الرضى مرتسمة على وجهه . وكان ينقل بصره بارتياب بين صاحب النزل وبين الدليل . كان النزل يقع فى معزل ، فى السهب ، بعيدا عن اية قرية ، وكان شديد الشبه بماوى للصوص . ولكن لم تكن فى اليد حيلة . وكان من المستحيل حتى التفكير فى مواصلة السير . وقد سلانى قلق سافيليتش كثيرا . وخلال ذلك تهيأت للنوم ، واضطجعت على مصطبة . وقرر سافيليتش ان يصعد

الى سطح الموقد . واستلقى صاحب النزل على الارض . وبعد قليل كان النزل كله فى شخير ، ونمت كالميت .

عندما استيقظت والضحى قد ارتفع من اليوم التالى ، رأيت العاصفة قد هدأت ، والشمس ساطعة ، والثلج يرقد بساطا يخطف الابصار فى السهب المترامـــى الاطراف . كانت الخيول مشدودة الى العربة . سددت النقود لصاحب النزل الذى تقاضانا اجرة معتدلة جدا حتى ان سافيليتش لم يماكسه ، ولم يماحك كما هى عادته ، وتبدد من رأسه كل ريب الامس كلية . استدعيت الدليل ، وشكرته على العون الذى اسداه لنا ، وامرت سافيليتش ان يعطيه نصف روبل للفودكا . تجهم سافيليتش ، وقال : «نصف روبل للفودكا ! على اى شىء ؟ لانك تفضلت عليه بنقله الى النزل بالعربة ؟ هذا شأنك ، يا سيد ، ليست لدينا فلوس زائدة . اذا اعطينا لكل من هب ودب ثمن فودكا فاننا انفسنا سنجوع قريبا» . لم استطع مجادلة سافيليتش ، فان النقود ، حسب تعهدى له ، تحت تصرفه الكلى . ولكننى قد شعرت بالاسى لاننى لم استطـــع رد الشكر لانسان انقذنا ، اذا لم يكن من مصيبة ، فمن وضع حرج جدا على اقل تقدير . قلت ببرود : «حسنا ، اذا كنت لا تعطيه نصف روبل فاعطه شيئا من ملابسى . فان ثيابه خفيفة جدا . اعطه معطفى من فراء الارنب» .

قال سافيليتش :

– ارجوك ، يا عزيزى بيتر اندريفتش ! لماذا تعطيه معطفك من فراء الارنب ، ان هذا الكلب سيبيعه فى اول خمارة وينفق ثمنه على الخمرة .

قال صاحبى المتشرد :

– ايها العجوز لا يهمك عندئذ ان انفقه على المخمرة ام لا . ان سيادته يخلع على معطفه وهذه هى ارادته الكريمة . وانت كخادم ليس من شأنك ان تجادل ، بل ان تطيع .

رد عليه سافيليتش بصوت غاضب :

– انت لا تخاف الله ، ايها اللص ! انت ترى انه ما يزال صبيا لا يفقه ، وتستغل بساطته لتنهبه وانت مسرور . وما حاجتك الى معطف السيد الصغير ؟ انه لا يصلح لكتفيك اللعينتين .

قلت لمربى :

– ارجو ان لا تتحذلق . اجلب الى المعطف حالا .

فتوجع سافيليتش :

– يا رب يا قدير ! ان المعطف جديد تقريبا ! وانت تهبه لا الى رجل طيب بل الى سكير حافى القدمين !

ومع ذلك فان معطف فراء الارنب قد جلب . واخذ الفلاح يقيسه . حقا ان المعطف الذى صار صغيرا على كان ضيقا عليه قليلا . الا انه استطاع لبسه على نحو ما ، بعد ان تفتق فى بعض خياطاته . وكاد سافيليتش يعول حين سمع تقطع الخيوط . وسر المتشرد بهديتى سرورا بالغا ، وودعنى حتى العربـــة ، وقال بانحناءة واطئة : «شكرا ، يا صاحب السيادة ! الله يجازيك على احسانك . لن انسى افضالك ما حييت» . وسار فى سبيله ، وواصلت السير ، غير ملتفت الى تكدر سافيليتش ، وسرعان ما نسيت عاصفة الامس ودليلى ، والمعطف من فراء الارنب .

بعد وصولى الى اورنبورغ توجهت الى الجنرال توا . رأيت رجلا مديد القامة ، الا ان الشيخوخة قد قوست ظهره . وكان شعره الطويل ابيض تماما ، وسترته العسكرية القديمة الناصلة اللون تجعله يشبه محاربا فى عهد آنا يوهانوفنا * ، وفى كلامه لكنة المانية قوية . قدمت له رسالة ابى . ولدى ذكر اسمه نظر الى نظرة سريعة ، وقال : «ما شاء الله ! منذ عهد غير طويل كان ابوك يبدو فى سنك . والآن انظر اى فتى اصبح له ! آه ، الزمن ، الزمن !» فض الرسالة ، واخذ يقرؤها بصوت خافض ، مبديا ملاحظاته . «حضرة السيد اندريه كارلوفيتش ، آمل ان تكون سيادتك» . . . ما هذا التضخيم ؟ لا يستحى ! طبعا ان الانضباط هو الامر الاول ، ولكن هل يكتب الى رفيق حميم بهذا الشكل ؟ «سيادتك لم تنس» . . اهم . . . «و . . . عندما . . . الفيلدمارشال الراحل مين . . . الحملة . . . كذلك . . . و . . . كارولينكا» آه ، صديق ! كيف لم ينس حتى الآن مخابثنا القديمة ؟ «والآن لندخل فى الموضوع . . . ابعث اليك ابنى الخامل» احم . . . «امسكه بقبضة حديدية» . . . ما هذه القبضة الحديدية ؟ لا بد انه مثل روسى . . . — وكرر ملتفتا الىّ : ما معنى «امسكه بقبضة حديدية» ؟

اجبته مبديا اكبر قدر من البراءة :

— يعنى عامله بلطف ، لا بصرامة مفرطة ، اعطه حرية اكثر ، امسكه بقبضة حديدية .

---

* امبراطورة روسيا فى ١٧٣٠ــ١٧٤٠ . (المترجم .)

— احم ، فاهم . . . «ولا تطلق له الحرية» . . . لا ، يبدو ان القبضة الحديدية تعنى شيئا آخر . . «مع هذه . . . جوازه» . . . اين هو ؟ نعم هو هنا . . . «ارجو الكتابة الى فوج سيمينوفسكى» . . . حسنا ، حسنا ، سينفذ كل شىء . . . «اسمح لى بان اعانقك دون كلفة . . . رفيقك وصديقك القديم» . اها ! اخيرا حزر . . الى آخره ، الى آخره . — ثم قال بعد ان اتم قراءة الرسالة ، ووضع جوازى فى ناحية : «سينفذ كل شىء . . . ستكون ضابطا منقولا الى فوج ك . . . ، ولكيلا تضيع الوقت سافر غدا الى قلعة بيلوغورسك ، حيث ستكون تحت امرة النقيب ميرونوف ، الانسان الطيب النزيه . هناك ستكون فى الخدمة الحقيقية ، وتتعلم الانضباط . لا شأن لك فى اورنبورغ ، فان العطالة مضرة بالشاب . واليوم ارجو التفضل لتناول الغداء فى بيتى .

فكرت فى سرى : «الامر يزداد صعوبة من ساعة الى اخرى . ما اشقانى من كونى قد سجلت رقيب حرس وانا فى بطن امى ! وتلك هى النتيجة : الى فوج ك . . . قلعة نائية على حدود السهوب القرغيزية — الكايستسكية ! . . .» تغديت على مائدة اندريه كارلوفيتش ، وكان معنا مرافقه العجوز . وقد ساد مائدته اقتصاد المانى صارم ، وفكرت ان الخوف من ان يرى احيانا ضيفا زائدا على مائدته العازبة كان جزءا من السبب الذى حمله على الاسراع فى ابعادى الى الحامية . وفى اليوم التالى ودعت الجنرال ، وسافرت الى مكان تعيينى .

الفصل الثالث

القلعة

نحن نعيش فى قلعة
طعامنا الخبز ، وشرابنا الماء ؛
وحين ياتى الاعداء المفترسون
الينا لياكلوا طعامنا
سنولم للضيوف وليمة
من قذائف المدافع .

(**اغنية للجنود .**)

الناس القدامى ، يا عزيزى .

(من كوميديا فونفيزين «**شاب نصف متعلم**» .)

تقع قلعة بيلوغورسك على بعد اربعين فرسخا من اورنبورغ . امتد الطريق بمحاذاة شاطئ نهر يايك الشديد الانحدار . لم يكن النهر قد تجمد بعد ، فكانت امواجه الرصاصية اللون كئيبة نحو الشطآن المتشابهة المغطاة بالثلج . ووراءها انبسطت سهوب قيرغيزيا . غرقت فى افكار حزينة فى معظمها . لم تكن الحياة فى حامية تستهوينى كثيرا . حاولت ان اتصور لنفسى النقيب ميرونوف رئيسى المقبل ، فتخيلته شيخا صارما غاضبا لا يعرف غير وظيفته ، ومستعدا لان يعتقلنى

على اقل هفوة ويطعمنى خبزا وماء . وفى غضون ذلك كان المساء قد اغسوسق . كنا نسير بسرعة كبيرة . سألت حوذى عربتى : «اما تزال القلعة بعيدة ؟» اجاب : «ليست بعيدة ، انها على مرأى البصر الآن» . نظرت فى جميع الجهات ، متوقعا ان اشاهد التحصينات المخيفة ، والابراج والاسوار ، الا اننى لم ار غير قرية صغيرة محاطة بسياج من جذوع الشجر . تكدست فى احدى ناحيتيها ثلاثة او اربعة اكداس من الدريس مغطاة بالثلج ، وارتفعت فى الناحية الاخرى طاحونة مائلة اجنحتها الليفية متهدلة بتراخ . سألت بدهشة : «اين القلعة اذن ؟» اجاب الحوذى وهو يشير الى القرية : «هذه هى» . وبهذه الكلمة دخلناها . رأيت عند البوابة مدفعا قديما من الحديد الصب . كانت الشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت واطئة ، ومعظم سقوفها من القش . امرت ان نتوجه الى الآمر ، وبعد دقيقة وقفت العربة امام بيت خشبى صغير اقيم فى مكان مرتفع ، قرب كنيسة خشبية ايضا .

لم يستقبلنى احد . سرت فى الرواق ، وفتحت باب الغرفة الامامية . كان عجوز مبتور الساق جالس على منضدة يرقع كوع سترته العسكرية الخضراء برقعة زرقاء . طلبت منه ان يبلغ الآمر بحضورى . اجاب العجوز المبتور الساق : «ادخل ، يا بنى ، ان جماعتنا فى البيت» . دخلت غرفة نظيفة مؤثثة على الطراز القديم . وضع فى احد اركانها صوان للاوانى ، وعلق على الجدار دبلوم تخرج ضابط وراء زجاجة محاطة باطار . وبالقرب منها ازدهت لوحات رخيصة تصور الاستيلاء على

كيستيرين واوتشاكوف ، وانتقاء خطيبة ، وتشييع قطة . وبالقرب من النافذة جلست عجوز ترتدى سترة مبطنة ، وتعتصب بمنديل . كانت تلف خيوطا كان عجوز ضئيل اعور فى سترة ضابط يمسكها على يديه المتباعدتين . سألتنى العجوز وهى ماضية فى عملها : «ما حاجتك ، يا بنى ؟» اجبت بأننى جئت للخدمة العسكرية ، ولاقدم نفسى الى حضرة الآمر تأدية لواجبى ، وبهذه الكلمة توجهت الى العجوز الاعور ، وقد ظننته الآمر ، الا ان ربة البيت العجوز قاطعت كلامى الذى خفظته سلفا ، قائلة : «ايفان كوزميتش ليس فى البيت ، ذهب ليزور الاب غيراسيم ، وعلى كل حال انا زوجته ، على الرحب والسعة . اجلس ، يا بنى» . ونادت الخادمة ، وامرتها بان تستدعى ضابط الصف . نظر العجوز الضئيل الى بعينه الواحدة فى فضول ، وقال : «هل تتكرم وتقول لى فى اى فوج خدمت ؟» ارضيت فضوله . فاستمر يسأل : «هل تتكرم وتقول لى لماذا نقلوك من الحرس الى حامية ؟» اجبته بأن هذه كانت ارادة رؤسائى . فقال السائل الملحاح : «الارجح بسبب تصرفات لا تليق بضابط الحرس» . فقالت له زوجة الآمر : «كفى ثرثرة . انت ترى ان الشاب تعبان من السفر ، وليس له مزاج للحديث معك . . . (مد يديك اكثر استقامة . . .) وانت ، يا بنى — واصلت كلامها تخاطبنى — لا تحزن اذا كانوا قد نقلوك الى مكاننا النائى . فلست بالاول ولا بالاخير . اصطبر وسيعجبك الامر . هذا هو شفابرين الكسى ايفانوفيتش نقل الينا منذ اربعة اعوام بسبب قتل . الله يعلم اى شيطان

وسوس له . ذهب خارج المدينة مع احد الضباط . واخذ كل واحد منهما سيفه . وراحا يتضاربان ، حتى طعن الكسى ايفانوفيتش الضابط ، وبحضور شاهدين ! فما العمل ؟ لا امان من الشيطان» .

وفى تلك اللحظة دخل ضابط الصف ، وهو قوزاقى شاب حسن القوام . فقالت له زوجة الآمر : «يا مكسيميتش ! اسكن السيد الضابط مسكنا ، وليكن اكثر نظافة» . اجاب ضابط الصف : «سمعا وطاعة ، يا فاسيليسا يغوروفنا . هل نسكن سيادته مع ايفان بوليجايف ؟» قالت زوجة الآمر : «لا تهرف ، يا مكسيميتش ، لا يوجد مكان عند بوليجايف ، ثم انه عراب ابنتى ، وهو لا ينسى اننا رؤساؤه . خذ السيد الضابط ، ما اسمك واسم ابيك ، يا ولدى ؟ بيتر اندرييفيتش ؟ خذ بيتر اندرييفيتش الى سيميون كوزوف . ان هذا المحتال اطلق حصانه فى مزرعتى . هل كل شىء على ما يرام ، يا مكسيميتش ؟

قال القوزاقى :

— كل شىء هادئ ، والحمد لله . لكن حادثا واحدا قد حدث ، وهو ان العريف برخوروف تشاجر فى الحمام مع اوستينيا نيغولينا على دلو من الماء الحار .

قالت زوجة الآمر للعجوز الاعور :

— يا ايفان ايغناتيفيتش حقق مع برخوروف واوستينيا ، واعرف ايهما على حق ، وايهما على باطل . ثم عاقب كليهما . والآن ، يا مكسيميتش ، اذهب بحراسة الله . يا بيتر اندريفيتش ، سياخذك مكسيميتش الى مسكنك .

انحنيت مودعا . قادنى ضابط الصف الى بيت يقع على شاطئ النهر المرتفع ، فى اقصى القلعة . كانت عائلة سيميون كوزوف تحتل نصف البيت ، بينما خصص النصف الآخر لى . وكان يتألف من حجرة واحدة ، نظيفة جدا مقسومة بحاجز الى قسمين . اخذ سافيليتش ينظم الحاجيات فيها ، واخذت انا انظر فى نافذة ضيقة ، حيث انداح امامى سهب كئيب ، وبعض البيوت القديمة تبدو الى جانب بينما كانت بعض الدجاجات تسرح فى الشارع . ونادت عجوز واقفة عند مدخل بيت وبيدها معلف على خنازير ردت عليها بقباع ودى . تلك هى الناحية التى كتب على ان اقضى شبابى فيها ! واستولى علىّ السأم ، فابتعدت عن النافذة ، ورقدت للنوم دون عشاء ، رغم الحاح سافيليتش الذى ظل يكرر بحزن عميق : «يا رب يا قدير ! لا يأكل شيئا ! ماذا ستقول السيدة امه اذا اصاب الهزال ابنها ؟»

ما كدت ارتدى ملابسى فى صباح اليوم التالى حتى فتح الباب ، ودخل على ضابط شاب قصير القامة اسمر الوجه على قدر واضح من القبح ، الا انه مفعم بالحيوية . وقال لى بالفرنسية : «اعذرنى على دخولى عليك بلا كلفة لاتعرف عليك . بالامس سمعت عن قدومك ، واستولت على رغبة شديدة فى رؤية وجه انسان اخيرا فلم اصطبر . ستفهم ذلك حين تعيش هنا بعض الوقت» . وحدست ان هذا هو الضابط الذى اخرج من الحرس بسبب المبارزة . تعارفنا فى الحال . كان شفابرين رجلا ذكيا . كان حديثه حادا ومشوقا . وصف لى بدعابة كبيرة عائلة الآمر ، ومجتمعه ، والاقليم الذى

ساقنى اليه القدر . وكنت اضحك من صميم القلب حين دخل على ذلك الرجل العاجز الذى كان يرقع سترته فى الحجرة الامامية من بيت الآمر . ودعانى باسم فاسيليسا يغوروفنا بان اتغدى معهم . وعرض شفابرين ان يرافقنى .

لدى اقترابنا من بيت الآمر رأينا فى الساحة الصغيرة حوالى عشرين رجلا من ذوى العاهات لهم ضفائر طويلة ، وقبعات مثلثة . وقد اصطفوا فى صف واحد بينما وقف الآمر فى المقدمة ، وهو رجل عجوز خفيف الحركة مديد القامة يرتدى طاقية ومبذلا صينيا . حين وقع بصره علينا اقبل نحونا ، وقال لى بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد الى امرته . وقفنا ننظر الى التدريب ، الا انه رجانا ان نذهب الى فاسيليسا يغوروفنا ، واعدا ايانا بان يأتى فى اثرنا . واضاف : «لا شىء هنا يستحق ان تشاهداه» .

استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا ببساطة وفرح ، وعاملتنى معاملة صاحب قديم . وراح العاجز وبالاشا يعدان المائدة . قالت زوجة الآمر : «صاحبى ايفان كوزميتش منهمك بالتدريب اليوم كثيرا ! باشا ، ادعى السيد الى الغداء . ولكن اين ماشا ؟» وفى تلك اللحظة دخلت فتاة فى نحو الثامنة عشرة من العمر ، مدورة الوجه ، موردة الوجنتين ، شعرها الاشقر الوضاء قد سرح بنعومة وراء اذنيها المتوهجتين . لم تعجبنى فى النظرة الاولى . فقد نظرت اليها بتحفظ ، ذلك لان شفابرين وصف لى ماشا ابنة الآمر كفتاة حمقاء تماما . جلست ماريا ايفانوفنا (ماشا) فى ركن ، واخذت تخيط .

وخلال ذلك قدم حساء الكرنب . ولما لم تر فاسيليسا يغورفنا زوجها ارسلت بالاشا فى طلبه مرة اخرى . «قولى للسيد ان الضيوف ينتظرون ، والحساء يبرد ، والتدريب لا يهرب والحمد لله ، فيما بعد سيكون له الوقت الكافى للصراخ» . وبعد قليل حضر الآمر يرافقه العجوز الاعور . فقالت له زوجته : «ما هذا ، يا عزيزى ؟ الطعام مصفوف على المائدة منذ مدة ، وانت لا تقبل ان تاتى» . اجاب ايفان كوزميتش : «انت ترين ، يا فاسيليسا يغوروفنا اننى كنت مشغولا بالخدمة ، كنت ادرب الجنود» . فردت زوجته : «كفى ، هذا مجرد كلام ان تدرب الجنود ، فلا هم صالحون للخدمة العسكرية ، ولا انت عارف جوهرها . الاجدر بك ان تجلس فى البيت ، وتصلى للرب . ايها الضيوف ، ارجو ان تتفضلوا الى المائدة» .

جلسنا الى الغداء . لم تسكت فاسيليسا يغورفنا دقيقة واحدة ، وامطرتنى الاسئلة : من هما والداى ، وهل هما حيان ، واين يعيشان ، وما هى ثروتهما ؟ ولما سمعت ان والدى يملك ثلثمائة نفس من الفلاحين الاقنان ، قالت : «ما شاء الله ! ما زال فى الدنيا اناس اثرياء ، اما نحن ، يا بنى ، فليس لنا غير نفس واحدة هى الفتاة بالاشا ، ولكن حياتنا تسير رويدا رويدا ، والحمد لله . ليس لنا غير مصيبة واحدة ، وهى ان ماشا فى سن الزواج ، واى مهر نملك لها ؟ مشط ومكنسة ، وثلاثة كوبيكات (غفرانك يا رب !) تذهب بها الى الحمام . لطيف لو وجدنا لها رجلا طيبا ، والا فستظل عانسا طوال عمرها» . حدجت ماريا ايفانوفنا ،

ورايتها مضرجة بحمرة الخجل ، بل ان قطرات الدموع نزلت على صحنها . اشفقت عليها ، فاسرعت فى تغيير الحديث . قلت فى غير ما رابطة : «سمعت ان الباشكيريين يستعدون للهجوم على قلعتكم» . سأل ايفان كوزميتش : «ممن سمعت ذلك يا ولدى ؟» اجبت : «قيل لى ذلك فى اورنبورغ» . قال الآمر : «اقاويل ! لم نسمع هنا اى شىء منذ زمن طويل . الباشكيريون شعب اصيب بالفزع ، والقيرغيزيون اخذوا درسا . ولا اظنهم يهاجموننا ، وان هاجمونا فسأرهبهم رهبة تجعلنى رخى البال عشر سنين بعدها» . فتابعت قولى مخاطبا زوجة الآمر : «وانت الا تخافين من البقاء فى قلعة معرضة لمثل هذه المخاطر ؟» اجابت : «تعودت ، يا بنى . مضت عشرون عاما على نقلنا من الفوج الى هنا ، واعوذ بالله ، كم كنت اخاف من هؤلاء الملاعين ! كنت ما ان المح قبعاتهم من فراء الثعلب ، واسمع زعيقهم ، حتى يتجمد قلبى ، قسما بالله ! والآن تعودت حتى صرت لا ابارح مكانى حين يبلغوننا بأن هؤلاء الاشرار يحومون حول القلعة» .

قال شفابرين بعظمة :

– فاسيليسا يغوروفنا سيدة شجاعة . وايفان كوزميتش يمكن ان يشهد على ذلك .

قال ايفان كوزميتش :

– اسمع ، يا فتى . ان هذه المرأة ثابتة الجنان .

سألت :

– هل ماريا ايفانوفنا جريئة ايضا مثلك ؟

اجابت امها :

— تسأل هل ماشا جريئة ؟ لا ، ان ماشا جبانة . انها حتى الآن لا تستطيع ان تسمع طلقة من بندقية ، ما ان تسمعها حتى ترتعد فرائصها . قبل عامين حين خطر ببال ايفان كوزميتش ان يطلق من مدفعنا تكريما لعيد ميلادى كادت ابنتى ان تفارق الحياة من شدة الخوف . ومنذ ذلك الحين لم نطلق النار من المدفع الملعون .

نهضنا من وراء المائدة . ذهب الآمر وزوجته ليناما القيلولة . وذهبت انا الى شفابرين ، حيث قضيت معه المساء كله .

الفصل الرابع

المبارزة

— حسنا ، خذ اهبتك
ما هى لحظة واطعن بطنك !

(من كوميديا «غرباء الاطوار» **لكنياجنين** .)

مضت بضعة اسابيع ، وصارت حياتى فى قلعة بيلوغورسك محتملة لى بل ومريحة . وصرت استقبل فى بيت الآمر كقريب لهم . كان الزوج والزوجة شخصين محترمين للغاية . كان ايفان كوزميتش ، وهو ابن جندى ، رجلا غير متعلم ، بسيطا ، الا انه شريف للغاية ، وطيب القلب . وكانت زوجته توجهه ، وكان ذلك يلائم ما طبع عليه من التراخى . وكانت فاسيليسا يغوروفنا تنظر الى شؤون الخدمة العسكرية كما تنظر الى شؤونها المنزلية ، وتدير القلعة على النحو الذى تدير به منزلها . وسرعان ما تخلت ماريا ايفانوفنا عن خجلها فى حضورى . وتم التعارف بيننا . فوجدت فيها فتاة متعلقة ورقيقة المشاعر . ودون ان ادرى رأيت نفسى متعلقا بهذه العائلة الطيبة ، وحتى بايفان ايغناتيفيتش ، ضابط الحامية الاعور الذى زعم شفابرين

انه على علاقة محرمة بفاسيليسا يغورفنا ، وهو امر لم يكن له ظل من الصحة ، الا ان شفابرين كان لا يقلق لذلك .

اعطيت لى رتبة ضابط . ولم تكن خدمتى مرهقة . فلم تكن فى هذه القلعـــة المحروسة بعنايـــة الله استعراضات ولا تدريبات ، ولا حراسات . كان الآمر ، برغبته الخاصة ، يدرب جنوده احيانا ، الا انه لم يستطع بعد ان يعلمهم جميعا اين هى الجهة اليسرى ، واين اليمنى ، رغم ان الكثير منهم كان يرسم علامة الصليب على نفسه قبل كل استدارة حرزا له فى الوقوع فى الخطأ . كان لدى شفابرين بعض الكتب الفرنسية . اخذت اطالعها ، وتولد فى نفسى ميل الى الادب . فكنت فى الصباح اقرأ ، واتمرن على الترجمة ، وانظم الشعر احيانا . وكنت اتناول طعام الغداء كل يوم تقريبا على مائدة الآمر ، حيث كنت اقضى فى العادة بقية النهار ، وحيث يأتى فى المساء الاب غيراسيم مع زوجته اكولينا بامفيلوفنا ناقلة الانباء فى المنطقة كلها . وطبيعى اننى كنت التقى بشفابرين كل يوم ، الا ان المحادثة معه كانت تفقد طلاوتها يوما بعد يوم . وضقت كثيرا بنكاته المستمرة حول عائلـــة الآمر ، ولا سيما الملاحظات اللاذعة عن ماريا ايفانوفنا . ولم يكن فى القلعة مجتمع آخر ، غير اننى لم اكن ارغب فى مجتمع آخر .

ولم يضطرب الباشكيريون رغم التنبؤات . وساد الهدوء حول قلعتنـــــا . الا ان السلام قد تعكر فجأة بمشاحنة .

ذكرت سابقا اننى اخذت انشغل فى الادب . وكانت

محاولاتى ، بالنسبة لذلك الوقت ، طيبة . وقد اثنى عليها الكسندر بتروفيتش سماروكوف * ثناء عاطرا بعد بضعة اعوام . نجحت ذات مرة فى كتابة اغنية كنت راضيا عنها . ومعروف ان الناظمين يبحثون فى بعض الاحيان عن مستمع متعاطف بحجة الرغبة فى البحث عن النصائح . وهكذا استنسخت اغنيتى ، وحملتها الى شفابرين الذى كان المقتدر الوحيد فى القلعة كلها على تقييم الشعر . بعد مقدمة قصيرة اخرجت كراستى الصغيرة من جيبى ، وقرأت له الابيات التالية :

ادمر فكرتى عن الحب
واحاول ان انسى الحلوة
وبتفادى ماشا
اريد ان انال الحرية !
الا ان العيون التى اسرتنى
تتراءى لى على الدوام ؛
عصفت بروحى
وحطمت هدوئى .
اشفقى ، يا ماشا ، على روحى
وقد عرفت آلامى
وترين ضيقى
واسرك لى .

— ما رأيك فى هذا ؟

سألت شفابرين ذلك متوقعا ثناء استحقه بالتأكيد . الا ان شفابرين السمح فى العادة اعلن لاسفى الشديد بلهجة قاطعة ان اغنيتى ركيكة . سألته كاتما انزعاجى :

* كاتب صحفى ومسرحى روسى عاش فى القرن الثامن عشر . (**الناشر** .)

— ولم ذاك ؟
اجاب :
— لان هذه الاشعار جديرة بان ينظمها معلمــي فاسيلي كيريلوفيتش تريدياكوفسكي * ، وهي تذكرني كثيرا بمثانيه الغرامية .

وهنا اخذ مني الكراسة ، واخذ يحلل بلا رحمة كل بيت ، وكل كلمة ساخرا مني الذع سخرية . لم اتحمل فانتزعت كراستي من يديه ، وقلت انني لن اريه بعد اليوم شيئا من اشعاري . وضحك شفابرين من هذا الوعيد ايضا . وقال : «سنرى هل ستفي بكلمتك . ان حاجة الشعراء الى مستمع ضرورية كحاجة ايفان كوزميتش الى قارورة من الفودكا قبل الغداء . ومن ماشا هذه التي تعلن لها هواك المشبوب ، وتعاستك في الحب ؟ العلها ماريا ايفانوفنا ؟» .

اجبته متجهما :
— لا يعنيك من تكون ماشا هذه . انا لا اطلب رأيك ، ولا تخميناتك .

فاستمر شفابرين يقول مثيرا انزعاجي اكثر فاكثر :
— اها ! شاعر مغرور ، وعاشق متواضع . ولكن نصيحة صديق : اذا اردت نجاحا فأنا انصحك بان تتوسل اليها بغير الاغاني .
— ماذا يعني هذا ، يا سيد ؟ ارجو توضيحا .
— بكل سرور . هذا يعني اذا كنت راغبا في ان

* شاعر ومترجم روسي عاش في القرن الثامن عشر . كانت قصائده كثيرا ما تثير سخرية معاصريه . (**الناشر .**)

تأتيك ماشا ميرونوفا عند هبوط الظلام ، فاهدها زوجا من الاقراط بدلا من الاشعار الرقيقة .

فار دمي . فسألته كاظما غيظي بصعوبة :
— ولماذا ترى فيها هذا الرأي ؟
اجاب بسخرية سامة :
— لانني اعرف بالتجربة خلقها وعادتها .
صرخت به كالمجنون :
— انت تكذب ، ايها الوقح . انت تكذب بأشد الاكاذيب صلافة .

وتغيرت ملامح وجه شفابرين . قال وهو يضغط على يدي :
— لن يمر ذلك بدون شيء . انا ادعوك للمبارزة .
— في اي وقت تشاء !

اجبت بذلك مسرورا . كنت في تلك اللحظة مستعدا لان امزقه .

توجهت في الحال الى ايفان ايغناتيفيتش ، فوجدته والابرة في يديه . كان ، بتكليف من زوجة الآمر ، ينظم الفطر في خيط ليجفف ويخزن للشتاء . قال حين رآني : «بيتر اندريفيتش ! يا مرحبا ! كيف بعثك الله الينا ؟ في اي امر ، اذا سمحت وقلت ؟» . شرحت له بكلمات موجزة انني تخاصمت مع الكسي ايفانوفيتش ، وانا ارجوه ، اي ارجـــو ايفان ايغناتيفيتش ، ان يكون شاهدي . اصغى ايفان ايغناتيفيتش الي بانتباه ، مبحلقا فيّ بعينه الوحيدة . وقال لي : «انت تقول انك تريد ان تطعن الكسي ايفانوفيتش ، وتريد ان اكون شاهدا على ذلك ؟ هكذا ؟ اود ان اسأل» .

— بالضبط .

— ارجوك ، يا بيتر اندريفيتش ! اية نية نويت ! تشاتمت مع الكسى ايفانوفيتش ؟ ليست مصيبة كبيرة ! الشتائم لا تقتل احدا . اذا كان قد شتمك فاشتمه . واذا كان قد صفعك فأصفعه على اذنه ، مرتين وثلاثا . وتفرقا . وسنصالحكما فيما بعد . فهل لى ان أسأل ما وجه الخير فى ان يقتل الانسان قريبه ؟ قد يكون من الخير ان تقتل الكسى ايفانوفيتش ، سامحه الله ، فانا لا اميل اليه . ولكن ماذا لو قتلك ؟ اى شىء سيكون ذلك ؟ من سيكون الاحمق المغرر به ؟ قل لى بربك .

ولم يزحزحنى نقاش هذا الضابط المتبصر . وبقيت ثابتا على ما نويت عليه . قال ايفان ايغناتيفيتش : «كما تريد . افعل ما تراه مناسباً . ولكن لماذا اكون شاهدا هنا ؟ بأية مناسبة ؟ هل لى ان أسأل ما وجه العجب فى ان يتقاتل الناس ؟ لقد تقاتلت مع السويديين والاتراك ، والحمد لله ، ورأيت كل شىء» .

واخذت بطريقة ما اوضح له مهمة الشاهد ، الا ان ايفان ايغناتيفيتش لم يستطع ان يفهمنى . قال : «كما تريد . اذا كان على ان اتدخل فى هذا الامر فاننى لا محالة ذاهب الى ايفان كوزميتش لاخبره حسب ما يقتضى الواجب العسكرى بأن فى قلعتنا تحاك جناية مخالفة لمصلحة الدولة ، فلعل السيد الآمر سينوى اتخاذ الاجراءات اللازمة . . .»

فزعت ، واخذت ارجو ايفان ايغناتيفيتش الا يبلغ الآمر شيئا ، واقنعته بعد جهد جهيد ، فاعطانى عهدا ، وقررت تركه وسبيله .

قضيت المساء ، على عادتى ، فى بيت الآمر . بذلت جهدى لابدو مرحا خلى البال ، لكيلا اثير ادنى شك ، واتحاشى الاسئلة المتعبة ، ولكننى اعترف بأننى لم اكن املك رباطة الجاش التى كان يفخر بها معظم اولائك الذين يجدون انفسهم فى موضع مثل موضعى . عمدت فى ذلك المساء الى اظهار الرقة والعذوبة . وقد اعجبتنى ماريا ايفانوفنا اكثر من المعتاد . فان التفكير باننى ربما اراها لآخر مرة جعلها تبدو لعينى فى غلالة من الجاذبية . وجاء شفابرين ايضا . انتحيت به ناحية ، وابلغته بحديثى مع ايفان ايغناتيفيتش . فقال لى بجفاف : «لا حاجة لنا الى شهود . سندبر امرنا بدونهم» . واتفقنا على ان نتبارز وراء اكداس الدريس القريبة من القلعة ، وان نكون هناك فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . كنا نتحدث بمودة على ما يبدو ، حتى ان ايفان ايغناتيفيتش اطلق لسانه فى الحديث فرحا ، وقال لى فى هيئة راضية : «نعم ما فعلتما . فان مصالحة رديئة خير من مشاحنة حسنة . ولتكن هذه المصالحة غير نزيهة ولكنها سليمة» .

قالت زوجة الآمر التى كانت تستخير الورق فى ركن من الغرفة :

— ماذا قلت ، يا ايفان ايغناتيفيتش . انا لم اسمع جيدا .

لاحظ ايفان ايغناتيفيتش علائم الضيق علىّ ، وتذكر عهده لى ، فارتبك ، ولم يدر بماذا يجيب . فخفف شفابرين لنجدته قائلا :

— ايفان ايغناتيفيتش يبارك مصالحتنا .

– ومع من تشاحنت ، يا بنى ؟
– تبادلنا كلمات خشنة انا وبيتر اندريفيتش .
– وعلى اى شىء ؟
– على تفاهة فارغة ، على اغنية ، يا فاسيليسا يغوروفنا .
– وجدا ما يتشاحنان عليه ! على اغنية ! ولكن كيف حدث ذلك ؟
– كان الامر على النحو التالى : قبل مدة قصيرة نظم بيتر اندريفيتش اغنية ، واليوم غناها لى ، فوردت على لسانى اغنيتى المفضلة :

يا ابنة الآمر
لا تتنزهى فى منتصف الليل . . .

فحصل سوء تفاهم . وغضب بيتر اندريفيتش ، ولكنه ادرك فيما بعد ان لكل امرئ الحق فى ان يغنى اغنيته وبذلك انفض الامر .

كادت وقاحة شفابرين تخرجنى عن اطوارى ، الا ان احدا سواى لم يفهم غمزاته الفظة ، وعلى اقل تقدير لم يولها احد اهتماما . وتحول الحديث من الاغنيات الى ناظمى الاشعار ، فلاحظ الآمر انهم جميعا اناس متحللون ، وسكيرون مدمنون ، ونصحنى بود ان اترك نظم الاشعار ، لانه امر يتعارض مع الخدمة العسكرية ، ولا يؤدى الى خير .

لم احتمل وجود شفابرين . فودعت الآمر وعائلته بعد وقت قصير . وحينما وصلت الى البيت عاينت

سيفى ، وجربت نهايته ، واويت الى فراشى ، بعد ان امرت سافيليتش بان يوقظنى فى الساعة السابعة .

فى الوقت المحدد فى اليوم التالى كنت واقفا وراء اكداس الدريس انتظر خصمى . وسرعان ما جاء هو ايضا . وقال لى : «ينبغى ان نسرع ، فقد يجدوننا» . خلعنا سترتينا العسكريتين ، وبقينا فى صدارينا ، وانتضينا سيفينا . وفى تلك اللحظة ظهر ايفان ايغناتيفيتش فجأة من وراء كدس ومعه خمسة من ذوى العاهات . وطلب ان نذهب الى الآمر . اطعناه منزعجين ، واحاط الجنود بنا ، وسرنا الى القلعة فى اثر ايفان ايغناتيفيتش ، الذى قادنا بهيئة منتصرة ، ماشيا بمهابة مذهلة .

دخلنا بيت الامر . فتح ايفان ايغناتيفيتش الباب هاتفا بضخامة : «جئت بهما !» استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا قائلة : «آه يا رب ، ما يعنى هذا ؟ كيف ؟ وكيت ؟ فى قلعتنا محاولة قتل ! يا ايفان كوزميتش ، اعتقلهما حالا ! بيتر اندريفيتش ! الكسى ايفانوفيتش اخلعا سيفيكما ، هاتياهما ، هاتياهما : يا بالاشكا ، خذى هذين السيفين الى المستودع . يا بيتر اندريفيتش ! لم اتوقع ذلك منك . الا تستحى ؟ قد يأتى ذلك من الكسى ايفانوفيتش الذى اخرج من الحرس بسبب قتله انسانا ، وهو لا يؤمن بالله . اما انت ؟ كيف تتصرف هذا التصرف ؟»

وافق ايفان كوزميتش زوجته تمام الموافقة وقال : «ان فاسيليسا يغورفنا على حق . المبارزات ممنوعة رسميا فى قانون الجيش» . وخلال ذلك اخذت بالاشكا

سيفينا منا ، وحملتهما الى المستودع . ولم اتمالك نفسى فضحكت . وبقى شفابرين محافظا على رزانته . قال لزوجة الآمر : «مع كل احترامى لك لا يسعنى الا ان اقول ان من العبث ان تقلقى نفسك فى محاكمتنا . اتركى ذلك لايفان كوزميتش ، فذلك هو شأنه» . وقالت زوجة الامر : «آه ، يا بنى ! اليس الزوج والزوجة روحا واحدة وجسما واحدا ؟ يا ايفان كوزميتش ! ماذا تنتظر ؟ اسجنهما فورا فى مكانين مختلفين ، على الخبز والماء ، حتى يتخليا عن حماقتهما . وليفرض عليهما الاب غيراسيم العقاب لكى يقدما صلاة الغفران للرب ويعترفا باخطائهما امام الناس» .

لم يعرف ايفان كوزميتش بماذا يحكم . كانت ماريا ايفانوفنا شديدة الشحوب تماما . ثم هدأت العاصفة شيئا فشيئا ؛ وسكنت زوجة الامر ، وحملتنا على ان يقبل احدنا الآخر . ردت بالاشكا الينا سيفينا . وخرجنا من بيت الآمر متصالحين فى الظاهر . رافقنا ايفان ايغناتيفيتش . قلت له غاضبا : «الم تستح من الوشاية بنا الى الآمر بعد ان قطعت لى عهدا بالا تفعل ذلك ؟» قال : «والله العظيم لم اقل ذلك لايفان كوزميتش . ولكن فاسيليسا يغوروفنا هى التى استخرجت كل شىء منى . وهى التى امرت بكل شىء دون علم الآمر . على العموم نحمد الله على ان كل شىء قد انتهى هذه النهاية» . وبهذه الكلمة انعطف الى بيته ، وبقيت وشفابرين وحدنا . قلت له : «لا يمكن ان تنتهى قضيتنا بهذا» . اجاب شفابرين : «بالطبع ، ستدفع بدمك جزاء كلامك السليط علىّ ؛ ولكنهم سيظلون

يراقبوننا . يجب ان نتظاهر بالمصالحة بضعة ايام . الى اللقاء !» . وافترقنا وكأن شيئا لم يحدث .

عندما عدت الى بيت الامر ، جلست ، على عادتى ، قرب ماريا ايفانوفنا . كان ايفان كوزميتش متغيبا عن البيت . وكانت فاسيليسا يغوروفنا مشغولة بشؤون المنزل . اخذنا نتحدث بصوت خفيض . عاتبتنى ماريا ايفانوفنا برقة على الانزعاج الذى سببته للجميع بتخاصمى مع شفابرين . قالت : «تجمدت خوفا حين قالوا لنا انكما تنويان المبارزة بالسيف . ما اغرب الرجال ! انهم مستعدون ، بسبب كلمة سينسونها بعد اسبوع حتما ، ان يتقاتلوا ، ويضحوا ليس بحياتهم فقط ، بل وبراحة اولئك الذين . . . ولكنى واثقة من انك لم تكن البادئ فى الخصام . المذنب هو الكسى ايفانوفيتش حتما» .

— ولماذا تظنين ذلك ، يا ماريا ايفانوفنا ؟

— هكذا . . . انه شديد التهكم ! انا لا احب الكسى ايفانوفيتش . انفر منه كثيرا . ولكن الغريب اننى لا اريد ابدا ان اكون دون اعجابه . ان ذلك يثير قلقى وفزعى .

— وماذا تظنين ، يا ماريا ايفانوفنا ؟ هل هو معجب بك ام لا ؟

ارتبكت ماريا ايفانوفنا ، واحمرت وقالت :

— يبدو لى . . اتخيل انه معجب بى .

— ولماذا يخيل لك ذلك ؟

— لانه خطبنى .

— خطبك ! هل فعل ذلك ؟ ومتى ؟

— فى العام الماضى . قبل شهرين من قدومك .

— ولم توافقى ؟

— كما ترى . بالطبع ان الكسى ايفانوفيتش رجل ذكى ، ومن عائلة طيبة ، ويملك ثروة ؛ ولكننى كلما فكرت بأنه سيتحتم على ان اقبله امام الناس عند الزواج فى الكنيسة اقول لنفسى : لن يكون ذلك ! مهما يكن من الشيء !

فتحت كلمات ماريا ايفانوفنا عينى ، واوضحت لى الكثير . وفهمت لماذا كان شفابرين يلاحقها على الدوام بذلك الكلام السليط . والارجح انه لاحظ ميل احدنا الى الآخر ، وسعى الى تنفير احدنا من الآخر . وبدت لى الكلمات التى سببت خصامنا اكثر بذاءة ، حين رايت فيها كذبا متعمدا بدلا من السخرية الفظة الوقحة . وقويت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح البذىء اللسان ، فاخذت انتظر الفرصة المواتية بنفاد صبر .

ولم يطل انتظارى . فى اليوم التالى ، بينما كنت انظم قصيدة حزينة ، واقضم القلم فى انتظار الوزن ، دق شفابرين نافذة حجرتى . تركت القلم ، وتناولت السيف ، وخرجت اليه . قال شفابرين لى : «ولم التأجيل ؟ لا احد يراقبنا . لنخرج الى النهر . ولن يراقبنا احد هناك» . سرنا صامتين . وهبطنا فى درب شديد الانحدار ، ووقفنا عند النهر تماما ، وانتضينا سيفينا . كان شفابرين احذق منى ، الا اننى اقوى منه واكثر جرأة ، وقد استفدت من دروس قليلة فى المبارزة اعطانيها المسيو بوبريه الذى كان جنديا فى يوم من الايام . ولم يتوقع شفابرين ان يجد فى شخصي خصما

خطيرا جدا . امضينا وقتا طويلا دون ان يستطيع احدنا ان ينال الآخر بأذى ، واخيرا وقد لاحظت ان شفابرين اخذ يضعف ، اخذت اهاجمه بقوة ، وطاردته الى النهر تقريبا . وفجأة سمعت اسمى بصوت عال . ادرت بصرى ، ورايت سافيليتش راكضا نحوى على الدرب المنحدر . . . وفى تلك اللحظة احسست بوخزة قوية فى الصدر اسفل كتفى الايمن ، وسقطت مغشيا علىّ .

الفصل الخامس

حب

ايتها الفتاة الجميلة !
لا تتزوجى فى وقت مبكر !
استشيرى ، يا فتاة ، اباك وامك ،
اباك وامك ، والاسرة والعشيرة !
اجمعى ، يا فتاة ، العقل والحجا ،
العقل والحجا والمهر .
(اغنية شعبية .)

انت تنسيننى اذا وجدت افضل منى ،
وتذكريننى اذا وجدت اسوأ منى .

(اغنية شعبية .)

بعد ان افقت على نفسى بقيت وقتا طويلا غير قادر على الاستذكار ، وغير فاهم ما حصل لى . وجدت نفسى مستلقيا على السرير فى حجرة غريبة على ، شاعرا بوهن شديد . وكان سافيليتش واقفا امامى وبيده شمعة . حل شخص ، بحذر ، الضمادات التى شد بها صدرى وكتفى . واخذت افكارى تصفو قليلا . تذكرت مبارزتى ، وحدست بأننى جريح . وفى تلك اللحظة صر الباب . وصدر صوت هامس جعلنى ارتجف : «ماذا ؟ كيف

حالته ؟» اجاب سافيليتش متحسرا : «ما زال فى وضعه السابق ، ما زال فى غيبوبته منذ خمسة ايام» . اردت ان التفت الا اننى لم استطع . جاهدت ونطقت : «اين انا ؟ من هنا ؟» اقتربت ماريا ايفانوفنا من سريرى ، وانحنت علىّ وقالت : «كيف تجد نفسك ؟» اجبت بصوت واهن : «حمدا لله . اهذا انت ، يا ماريا ايفانوفنا ؟ خبرينى . . .» ولم استطع ان استمر فى الكلام فسكت . تاوه سافيليتش ، وارتسم الفرح على وجهه . قال مكررا : «صحا ! صحا ! المجد لك ، ايها العلى ، آوه ، يا بيتر اندريفيتش يا عزيزى ، افزعتنى ! اتظنها سهلة ؟ خمسة ايام ! . .» قاطعته ماريا ايفانوفنا بقولها : «لا تتكلم معه كثيرا ، يا سافيليتش . انه ما يزال ضعيفا» . وخرجت ، واغلقت الباب بهدوء . اضطربت افكارى . اذن ، فانا فى بيت الآمر . دخلت ماريا ايفانوفنا علىّ . اردت ان اسأل سافيليتش بعض الاسئلة ، الا ان هذا العجوز هز رأسه ، وسد اذنيه . اغمضت عينى متضايقا ، وسرعان ما غمرنى النوم .

وعندما صحوت ناديت سافيليتش ، وبدلا من ان اراه رأيت امامى ماريا ايفانوفنا . حيانى صوتها الملائكى . وانا لا استطيع وصف الشعور العذب الذى تملكنى فى تلك اللحظة . امسكت يدها ، والتصقت بها مبللا اياها بدموع الحنان . لم تنزعها ماشا عنى . . . وفجاة مست شفتاها خدى ، واحسست بقبلتها الحارة الغضة . وسرت النار فى جسدى . قلت لها : «يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا الطيبة . كونى زوجتى ، واقبلى ان تسعدينى» . افاقت على نفسها ، وقالت ساحبة يدها

من بين يدى : «اهدأ بحـــق الرب . انت ما تزال فى خطر ، وقد ينكأ الجرح . حافظ على نفسك ، من اجلى على الاقل» . بهذه الكلمة خرجت تاركـــة اياى فى فرح نشوان . احيتنى السعادة . انها ستكون لى ! انها تحبنى ! وملكت هذه الفكرة كل كيانى .

ومنذ ذلك الحين رحت اتحسن بمرور الوقت . وكان حلاق الفوج يعالجنى ، لان القلعة خالية من اى مطبب آخر . والحمد لله على انــــه لم يتحذلق فى تطبيبى . وعجل شبابى والطبيعة من شفائى . وكانـت عائلة الآمر كلها تعتنى بى . ولم تفارقنى ماريــــا ايفانوفنا . وطبيعى اننى انتهزت اول فرصة فاكملت مفاتحتى التى قطعت . اصغت ماريا ايفانوفنا الىّ بصبر اكثر . ثم اعترفت دون اية مواربة بميل قلبهـا الىّ ، وقالت ان والديها سيكونان فرحين بسعادتها واضافت : «ولكن فكر جيدا هل سيكون ثمة اعتراض من جانـــب والديك ؟»

وفكرت . لم اشك فى رقة امى ، ولكننى ، وانــا العارف بخلق وعقلية ابى ، احسست بأن حبى لن يؤثر فيه كثيرا ، وانه سيعتبره نزوة شباب . واعترفـت بذلك لماريا ايفانوفنا بصفاء قلب ، الا اننى قررت ان ارسل الى ابى رسالة منمقة ، طالبا فيها مباركـــة الوالدين . واطلعت ماريا ايفانوفنا على الرسالة فوجدتها مقنعة جدا ومؤثرة ، حتى لم تشك فى ان يكون التوفيق من نصيبها ، واستسلمت ماريا ايفانوفنا لمشاعر قلبهـا الرقيق بكل وثوق الشباب والحب .

تصالحت مع شفابرين فى الايام الاولى من شفائى .

وقد قال لى ايفان كوزميتش مؤنبا اياى على المبارزة : «آه ، يا بيتر اندريفيتش ! كان يجب على ان اعتقلك ولكنك نلت عقابك بدون ذلك ، اما الكسى ايفانوفيتش فهو سجين فى مخزن الحبوب ، تحت الحراسة ، وسيفه محجوز بقفل عند فاسيليسا يغوروفنا . دعه يتروى فى الامر ويحس بالندم» . وكنت اسعد حظا من ان اضمر فى قلبى شعور الضغن فاخذت اطلب الشفاعـة لشفابرين من الامر الطيب القلب ، فقرر بموافقة زوجته الافراج عنه . وجاء شفابرين الىّ معلنا عن عميق اسفه على ما حدث بيننا ، واعترف بأن الذنب برمته يقع عليه ، ورجانى ان انسى الماضى . ولما كنت غير حقود بطبعى ، فقد غفرت له من كل قلبى مشاحنتنا والجرح الذى اصابنى به . وقد رأيت فى افترائه اسى عزة اهينت ، وحـب رفض ، وبررت بخلق سمح تصرف خصمى التعيس .

وسرعان ما شفيت ، واستطعت الانتقال الى مسكنى . وانتظرت بلهفة جوابا على رسالتى المرسلة ، دون ان اجرؤ على الامل ، ومحاولا فى الوقت ذاته خنق الهواجس الحزينة . ولم اكن قد فاتحت فاسيليسا يغوروفنا ولا زوجها بالامر ؛ ولكن لا اظن ان طلبى سيكون مفاجأة لهما . فلم احاول انا ولا ماريا ايفانوفنا اخفاء مشاعرنا عنهما ، وكنا واثقين مسبقا من موافقتهما .

واخيرا دخل سافيليتش علىّ ذات صباح يحمل فى يده رسالة . اختطفتها منه باضطراب . كان العنوان مكتوبا بخط ابى . فهيأنى ذلك لامر خطير ، لان الرسائل كانت تكتبها لى امى فى العادة ، وكان هو يذيلها ببعض السطور . قضيــت وقتــا طويلا لا اجرؤ عـــلى فض

المظروف ، معيدا قراءة العنوان المهيب : «الى ولدى بيتر اندريفيتش غرينيف ، ولاية اورنبورغ ، قلعة بيلوغورسك» . وحاولت ان احدس عن طريق الخط الحالة النفسية التى كتبت فيها الرسالة ، واخيرا قررت ان افض الرسالة ، وعرفت من السطور الاولى ان القضية كلها خابت خيبة لعينة . وكان محتوى الرسالة كالآتى :

«ولدى بيتر ! تلقينا فى الخامس عشر من هذا الشهر رسالتك التى تطلب فيها مباركتنا الابوية وموافقتنا على الزواج من ماريا ايفانوفنا ، ابنة ميرونوف . ليس فى نيتى ان امنحك مباركتى ولا موافقتى ، وفضلا عن ذلك انوى ان اعاقبك على نزواتك كما يعاقب الصبى ، رغم رتبتك كضابط ، لانك برهنت على انك غير أهل لحمل السيف الذى وهب لك للدفاع عن الوطن لا للمبارزة مع الطائشين من امثالك . سأكتب الى اندريه كارلوفيتش فورا راجيا اياه ان ينقلك من قلعة بيلوغورسك ، الى مكان ابعد يفرغ الحماقة من عقلك . مرضت امك غما حين سمعت بمبارزتك وبجرحك ، وهى الآن طريحة الفراش . ماذا سيكون منك ؟ ادعو الله ان يهديك ، رغم اننى لا اجرؤ على الامل فى ان يشملك برحمته الواسعة .

ابوك أ . غ .»

اثارت قراءة الرسالة مشاعر مختلفة فى نفسى . فان العبارات القاسية التى اغدقها ابى جرحتنى جرحا بليغا .

وبدا لى الاستخفاف الذى ذكر به ماريا ايفانوفنا غير لائق البتة ، وغير عادل . وافزعتنى فكرة نقلى من قلعة بيلوغورسك ؛ ولكن اشد ما غمنى هو نبأ مرض امى . سخطت على سافيليتش ، وانا لا اشك فى انه هو الذى ابلغ والدى بنبأ المبارزة . ذرعت حجرتى الضيقة جيئة وذهابا ، وتوقفت امامه ، وقلت له بعد ان القيت عليه نظرة متوعدة : «الظاهر انك لم تكتف بأن اجرح بسببك ، وان اظل شهرا كاملا وانا على شفا القبر ، فتريد ان تقتل امى ايضا» . وكأنما نزلت بسافيليتش صاعقة . قال وهو يوشك ان يجهش : «يا سيدى ، ما هذا الكلام ؟ انا السبب فى جرحك ! الله يعلم اننى ركضت لاحميك بصدرى من سيف الكسى ايفانوفيتش ! الا ان الشيخوخة اللعينة منعتنى . ثم ماذا فعلت انا لامك ؟» اجبت : «ماذا فعلت ؟ من الذى طلب اليك ان تكتب علىّ الوشايات ؟ هل وضعوك جاسوسا علىّ ؟» اجاب سافيليتش والدموع فى عينيه : «انا ؟ كتبت عليك وشايات ؟ يا رب السماء ! اقرأ ما يكتبه السيد الىّ ، وسترى هل وشيت بك» . واخرج رسالة من جيبه ، وقرأ ما يلى :

«من العار عليك ، ايها الكلب الهرم ، ان تتغافل عن اوامرى المشددة ، ولا تبلغنى عن ابنى بيتر اندريفيتش ، حتى يضطر الغرباء الى اخبارى عن حماقاته . ابهذه الصورة تنفذ واجبك وتصدع بأمر سيدك ؟ سأرسلك ، ايها الكلب الهرم ، لترعى الخنازير عقابا على اخفائك الحقيقة وتغاضيك عن الشاب .. آمرك عند

تسلمك هذه الرسالة ان تكتب لى فورا عن صحته ، وعما نمى الىّ من تماثله للشفاء ، وعن موضع جرحه بالضبط ، وهل عولج معالجة طبية» .

كان واضحا ان سافيليتش غير ملوم ازائى ، واننى قد اخطأت فى اهانته بتعنيفى وشكى . طلبت منه المعذرة ، الا ان العجوز لم يجد فيها سلوانا . فقد كان يكرر : «الى هنا وصلت بى الحال ؟ اكافأ بذلك من اسيادى ؟ انا الكلب الهرم ، وراعى الخنازير ، وانا السبب فى جرحك ايضا ؟ لا ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! لست انا بل ذاك المسيو الملعون هو الملوم فى كل ذلك . هو الذى علمك الطعن باسياخ حديدية والتوثب ، وكأنك بالطعن والتوثب تستطيع ان تحمى نفسك من انسان مؤذ ! ما كانت الحاجة تقتضى استخدام مسيو ، انفاق الفلوس بلا جدوى !» .

ولكن من جشم نفسه عناء ابلاغ ابى عن سلوكى ؟ الجنرال ؟ الا انه لم يكن يهتم كثيرا بى على ما يبدو ، ولم يجد ايفان كوزميتش ضرورة فى تبليغه عن المبارزة . وغرقت فى تخميناتى . ووقعت شبهاتى على شفابرين . فهو الوحيد الذى كانت له مصلحة فى تبليغ قد يؤدى الى ابعادى عن القلعة ، وفصلى عن عائلة الآمر . ذهبت اخبر ماريا ايفانوفنا بكل شىء . لقيتها عند مدخل البيت . فقالت حين رأتنى : «ماذا حصل لك ؟ ما اشد شحوبك !» اجبت : «انتهى كل شىء !» وقدمت لها رسالة ابى . وشحبت هى ايضا . وحين

اتمت قراءة الرسالة اعادتها الى بيد مرتجفة ، وقالت بصوت مرتعش : «يبدو ان القدر ليس بجانبى . . . فان والديك لا يريداننى فى عائلتهما . كل شىء بارادة الله ! يعلم احسن منا بما هو خير لنا . ولا حيلة فى ذلك ، يا بيتر اندريفيتش ، فكن انت سعيدا على الاقل . . .» . صحت وامسكت يدها : «لن يحدث هذا ! انت تحبيننى ، وانا مستعد لكل شىء . لنذهب ونلق بانفسنا على اقدام ابويك . فانهما شخصان بسيطان ، وليسا من المفترين القساة . . . سيباركاننا ، وسنتزوج . . . وانا واثق من اننا بعد مرور الزمن سنقنع ابى ، وستكون امى بجانبى . وسيسامحنى الوالد . . .» اجابت ماشا : «لا ، يا بيتر اندريفيتش ، انا لا اتزوجك بدون مباركة والديك ، لن تسعد بدون مباركتهما . لنخضع لارادة الرب – وليباركك الله فى زواجك ممن كتب لك الزواج منها ، وفى حبك لفتاة اخرى . فانا اصلى لكما . . .» وهنا انخرطت فى البكاء ، وانصرفت عنى . اردت ان ادخل الغرفة عليها ، ولكننى احسست باننى غير قادر على السيطرة على نفسى ، فعدت الى البيت .

جلست غارقا فى تفكير عميق ، واذا بسافيليتش يقطع علىّ تاملاتى . قال وهو يقدم ورقة مكتوبة : «هذه ، يا سيد ، وانظر هل انا الواشى بسيدى ، والساعى الى الشقاق بين الابن وابيه» . تناولت الورقة من يده . فاذا هى جواب سافيليتش على الرسالة التى تسلمها . وهذه هى كلمة بكلمة :

«جناب السيد اندريه بتروفيتش ، ابانا الرحيم !

تلقيت رسالتكم الكريمة التى ابديتم فيها سخطكم علىّ ، انا عبدكم ، لان من العار الا انفذ اوامر سادتى . لست بالكلب الهرم ، بل خادمكم الوفى اطيع اوامر سادتى ، وقد خدمتكم بحماس دائما وقضيت حياتى معكم حتى ابيض شعرى . لم اكتب لكم عن جرح بيتر اندريفيتش خشية ان اخيفكم دون فائدة ، وقد سمعت ان السيدة امنا افدوتيا فاسيليفنا قد وقعت مريضة من شدة الفزع . سأصلى للرب ليمنحها الصحة . جرح بيتر اندريفيتش فى الصدر تحت عظم الكتف الايمن مباشرة ، وعمق جرحه حوالى سلامية ونصف . كان يرقد فى بيت الآمر ، وقد نقلناه اليه من شاطىء النهر ، وعالجه حلاق القلعة ستيبان بارامونوف ، وبيتر اندريفيتش معافى الآن ، والحمد لله ، وليس عندى ما اكتبه عنه غير الاخبار الحسنة . سمعت ان الضباط راضون عنه ، وهو عند فاسيليسا يغوروفنا بمثابة ابنها . اما ان تحصل له تلك الحادثة غير المتوقعة فلكل شاب هفوة ، فان الحصان يكبو وهو ذى اربع قوائم . اما ما كتبتم من انكم سترسلوننى ارعى الخنازير ، فان ذلك رهن بارادتكم كأسياد . وانحنى لكم عبدا .

عبدكم الامين

ارخيب سافيليف» .

ما كان بوسعى الا ان ابتسم عدة مرات وانا اقرأ رسالة العجوز الطيب . ولم اكن فى حالة تمكننى من الرد

على ابى ، اما لتطمين امى فقد بدت لى رسالة سافيليتش صالحة لذلك .

ومنذ ذلك الحين تغير وضعى . كفت ماريا ايفانوفنا عن التكلم معى تقريبا ، وراحت تتفادانى بمختلف الاعذار . واصبح بيت الآمر غريبا علىّ . وشيئا فشيئا تعلمت ملازمة مسكنى وحيدا . وقد لامتنى فاسيليسا يغوروفنا على ذلك فى بادىء الامر ، الا انها تركتنى وشأنى بعد ان رأت اصرارى . وصرت لا ارى ايفان كوزميتش الا حين تقتضى الخدمة العسكرية ذلك . ونادرا ما كنت التقى بشفابرين ، وبدون ما رغبة ، لا سيما وقد لاحظت انه يضمر لى كرها ، وذلك ما اكد لى شكوكى . واصبحت حياتى لا تطاق . وانغمرت فى افكار سوداوية كانت تغذيها الوحدة والفراغ . وكان حبى يتأجج فى العزلة ، ويصبح رهقا علىّ اكثر فاكثر . وفقدت الرغبة فى القراءة والادب . وخارت عزيمتى . وخشيت ان افقد عقلى ، او انغمس فى الفجور . الا ان احداثا غير متوقعة تركت اثرها على مجمل حياتى ، بعثت فى نفسى هزة شديدة نافعة .

الفصل السادس

جماعة بوغاتشوف

اسمعوا ، يا اولاد
الى ما سنرويه ، نحن الشيوخ .
(اغنية .)

قبل ان ابدأ برواية الاحداث الغريبة التى شهدتها ، ينبغى ان اقول بعض الكلمات عن وضع ولاية اورنبورغ فى اواخر عام ١٧٧٣ .

كان يسكن هذه الولاية الواسعة الغنية عدد كبير من الشعوب نصف المتوحشة التى لم تعترف بسيادة الحكام الروس الا منذ عهد قريب . وكانت قلاقلها المتكررة ، وعدم تعودها على القوانين والحياة المدنية ، واستخفافها وقساوتها تتطلب من جانب الحكومة رقابة دائبة لالزامها على الطاعة . اقيمت القلاع فى الاماكن التى اقرت بأنها صالحة ، واسكنت فى الغالب بالقوزاق القاطنين على ضفاف نهر يايك منذ زمن طويل . الا ان القوزاق من منطقة نهر يايك الذين عينوا للمحافظة على الهدوء والامن فى هذه الناحية كانوا فى بعض الاوقات رعايا مضطربين خطرين بالنسبة للحكومة . وفى عام ١٧٧٢ حصل اضطراب فى بلدتهم الرئيسية . كان مبعثه التدابير المشددة التى اتخذها الجنرال تراوبنبرغ لاخضاع

القوات للطاعة الواجبة . فادى ذلك الى قتل تراوبنبرغ بشكل وحشى ، وادخال تبديلات تعسفية فى جهاز الادارة ، وفى آخر الامر اخمد العصيان بالرصاص والعقوبات الصارمة .

وقد حدث ذلك قبل وصولى الى قلعة بيلوغورسك بامد قصير . كان كل شيء هادئا او يبدو كذلك . ان الرؤساء صدقوا فى كثير من الخفة بالندم الزائف الذى اظهره العصاة الماكرون الذين كانوا يضمرون الحقد ، ويتحينون الفرصة المؤاتية لاستئناف الاخلال بالنظام .

ولاعد الى قصتى .

فى احدى الامسيات (كان ذلك فى بداية تشرين الاول عام ١٧٧٣) بينما كنت جالسا فى مسكنى وحيدا استمع لعويل ريح الخريف ، وانظر من النافذة الى السحب المتراكضة حاجبة القمر جاؤوا يستدعوننى باسم الآمر . فتوجهت اليه فى الحال . وقد وجدت عند الآمر شفابرين وايفان ايغناتيفيتش وضابط الصف القوزاقى . ولم تكن فى الحجرة فاسيليسا يغوروفنا ولا ماريا ايفانوفنا . رد الآمر على تحيتى بادى القلق . واغلق الباب ، وطلب الى الجميع ان يجلسوا ما عدا ضابط الصف الذى كان واقفا عند الباب . واخرج الآمر ورقة من جيبه ، وقال لنا : «يا حضرات الضباط ، هناك خبر هام ! اسمعوا ماذا يكتب الجنرال» . ولبس نظارته ، وقرأ ما يلى :

«الى السيد آمر قلعة بيلوغورسكايا
النقيب ميرونوف
سري

احيطكم علما بأن القوزاقى من منطقـــة نهر الدون والخارج على الطائفة اميليان بوغاتشوف الهارب مـــن السجن قد جمع شرذمة من الاشرار مبديا وقاحة شنيعة بانتحاله اسم الامبراطور الراحل بطرس الثالث ، واثار اضطرابات فى قرى منطقة يايك ، واستولى وعاث بعدة قلاع ، مقترفا فى كل مكان اعمال النهب والقتل . وبناء على ذلك اتخذوا ، يا حضرة النقيب ، حال تسلمكم هذه الرسالة التدابير اللازمة لدحر هذا الشرير والدعـــى المذكور اعلاه ، والقضاء عليه كليا ، ان امكن ، اذا تطاول على القلعة التى عهد بها الى عنايتكم» .

قال الآمر وهو يخلع النظارة ، ويطوى الورقة :

— اتخذوا التدابير اللازمة ! ما اسهل ان يقال ذلك . ان هذا الجانى قوى ، على ما يبدو ، وليس لدينا غير مائة وثلاثين شخصا ، غير حاسبين القوزاق الذين لا يؤمل منهم كثيرا ، ولا تحسب ذلك مساسا بك ، يـا ماكسيميتش . (وابتسم ضابط الصف) . ومع ذلك فلا مفر من ذلك يا حضرات الضباط ! كونوا مستعدين ، واقيموا الدوريات ، والحراسة الليلية ، وفى حالـة الجهوم اغلقوا البوابة ، واخرجوا الجنود . وانت يـا ماكسيميتش راقب اصحابك القوزاق بشدة . ويجب ان يعاين المدفع ، وينظف جيدا ، والاهم ان تكتموا كل ذلك منعا من ان يعرف احد فى القلعـــة قبل الاوان .

واذن لنا ايفان كوزميتش بالانصراف بعد فراغه من هذه الاوامر . خرجت مع شفابرين مناقشا ما سمعناه . سألته : «بم سينتهي ذلك حسب رايك ؟» اجاب : «الله

يعلم . سنرى ، اما الآن فلا ارى شيئا مهما . اذا . . .» واخذ يفكر ، وراح فى وجومه يصفر لحنا فرنسيا .

ورغم كل تحوطاتنا انتشر نبأ ظهور بوغاتشوف فى القلعة كلها . ما كان ايفان كوزميتش ليبوح بسر مـــن اسرار الخدمة ابدا ، رغم احترامه الشديد لزوجته . وهكذا حين تلقى رسالة الجنرال تخلص من فاسيليسا يغوروفنا بطريقة حاذقة زاعما لها ان الاب غيراسيم تلقى من اورنبورغ اخباراً عجيبة يخفيها بشدة . فرغبت فاسيليسا يغوروفنا فى ان تزور زوجـــة القس حالا واصطحبت ماشا حسب نصيحة ايفان كوزميتش دفعـــا للسام من ان تكون وحدها .

وعندما صار ايفان كوزميتش لوحده تماما ارسل فى طلبنا ، واغلق على بالاشكا حجرة المؤونة مخافــة ان تسمعنا .

عادت فاسيليســا يغوروفنـــا الى البيـــت دون ان تستطيع استخراج شيء من زوجة القس ، وعرفت ان فى غيابها عقد اجتماع عند ايفان كوزميتش ، وان بالاشكا كانت محجوزة . وحدست ان زوجها قد خدعها ، فعقدت له استجوابا . الا ان ايفان كوزميتش كان متهيئـــا للهجوم . فلم يضطرب قط وراح يرد بنشاط على عقيلته الفضولية : «انت ترين ، يا عزيزتى ، ان نساءنا عنّ لهن ان يستخدمن القش فى تشغيل المواقد ، ولما كان ذلك قد يؤدى الى بلية ، فقد اصدرت امرا مشددا بأن تتحول النساء الى استخدام الاغصان المقطوعة بدلا من القش» . فسألت زوجة الآمر : «ولماذا قفلت الباب على بالاشكا ؟ ولماذا حبست الفتاة المسكينة فى حجرة المؤونة

الى ان عدنا ؟» ولم يكن ايفان كوزميتش متهيئا لهذا السؤال ، فتلعثم ، وتمتم بشيء سخيف جدا . وفطنت فاسيليسا يغوروفنا الى خبث زوجها ، الا انها ، وهي العارفة بانها لن تستطيع ان تستخرج منه شيئا ، كفت عن اسئلتها ، وحولت الموضوع الى الخيار المملح الذى اعدته اكولينا بامفيلوفنا بطريقة خاصة مختلفة تماما . ظلت فاسيليسا يغوروفنا طوال الليل غير قادرة ان تنام ، ولم تستطع ان تحزر ما كان فى راس زوجها مما لا يجوز ان تعرفه .

ولدى عودتها من القداس فى اليوم التالى رات ايفان ايغناتيفيتش يخرج من فوهة المدفع خرقا وحجارة ونجارة ، وكعابا ، وانواعا عديدة من الاوساخ التى حشرها الاطفال فيه . ففكرت زوجة الآمر مع نفسها : «ماذا يمكن ان تعنى هذه الاستعدادات الحربية ؟ العلهم يتوقعون هجوما من القرغيزيين ؟ ولكن ما الذى حمل ايفان كوزميتش على اخفاء هذه السفاسف عنى ؟» ونادت ايفان ايغناتيفيتش بتصميم قوى على ان تنتزع منه السر الذى اثار فضولها النسوى .

ابدت فاسيليسكا يغوروفنا له بعض الملاحظات الخاصة بشؤون البيت ، مثلما يبدأ القاضى تحقيقه باسئلة جانبية ليصرف انتباه المستجوب فى البداية . ثم لزمت الصمت بضع دقائق ، وارسلت حسرة عميقة ، وقالت وهى تهز رأسها : «يا الهى ! انظر اية انباء هذه ! ماذا سيحصل من ذلك ؟» .

اجاب ايفان ايغناتيفيتش :

— لا يحدث شيء ، يا سيدة ، ولكن الله رحيم .

عندنا الكفاية من الجنود ، والكثير من البارود ، وقد نظفت المدفع . ونأمل ان نصد بوغاتشوف . من كان الله فى عونه فلا غالب له !

سألت زوجة الآمر :

— ومن بوغاتشوف هذا ؟

وهنا فطن ايفان ايغناتيفيتش الى انه انطلق فى كلامه ، وصمت . ولكن الاوان قد فات . اجبرته فاسيليسا يغوروفنا على ان يعترف بكل شيء بعد ان تعهدت له بالا تبوح بذلك لاحد .

وفت فاسيليسا يغوروفنا بوعدها فلم تبح بذلك الا لزوجة القس وحدها ، والسبب فى ذلك ان بقرتها تعودت ان تسرح فى السهب ، وقد يختطفها الاشرار .

بعد وقت قصير صار الجميع يتحدثون عن بوغاتشوف . وتعددت الروايات . وبعث الآمر بضابط الصف ليستطلع كل شيء وبدقة فى جميع القرى والقلاع المجاورة . وعاد ضابط الصف بعد يومين ، واعلن انه راى عديدا من النيران فى السهب ، على بعد ستين فرسخا من القلعة ، وسمع من الباشكيريين ان قوة لا مثيل لها تزحف ، وعلى كل حال لم يستطع ان يقول شيئا ملموسا لانه خاف ان يتقدم ابعد .

ولوحظت قلاقل غير اعتيادية بين القوزاق فى القلعة ؛ فقد تجمهروا جماعات فى جميع الشوارع ، وتحادثوا فيما بينهم باصوات خافتة ، وكانوا يتفرقون حين يرون فارسا او جنديا من الحامية . وبثت العيون والارصاد بينهم وجاء يولاى ، وهو كالميكى سابق اعتنق المسيحية ، الى الآمر بنبأ هام ، وهو ان اقوال ضابط الصف كانت

كاذبة ، فان هذا القوزاقى الماكر اعلن لرفاقه بعد عودته ، انه زار المتمردين ، وقابل رئيسهم نفسه ، فسمح له هذا بتقبيل يده ، وتحدث معه طويلا . فاسرع الآمر بحجز ضابط الصف ، وعين يولاى فى مكانه . وقد استقبل القوزاق هذا الخبر باستياء واضح ، وصاروا يتذمرون علنا ، حتى ان ايفان ايغناتيفيتش ، منفذ اوامر الآمر ، سمع باذنيه قولهم : «ستتندم على ذلك ، يا فار الحامية !» فعزم الآمر على ان يستجوب محجوزه فى نفس اليوم ؛ الا ان ضابط الصف كان قد فر من المحجز ، بمساعدة مريديه ، على ما يبدو .

ثم ان حدثا جديدا زاد من قلق الآمر . فقد اعتقل باشكيريا ومعه منشورات مثيرة . وفكر الآمر ، فى ضوء هذا الحادث ، بان يجمع ضباطه من جديد ، ولاجل ذلك اراد ان يبعد فاسيليسا يغورفنا مرة اخرى بعذر مقبول . ولكن لما كان ايفان كوزميتش رجلا مستقيما للغاية ، ومنصفا فلم يجد وسيلة اخرى غير الوسيلة التى استخدمها من قبل . فقال لها وهو يتنحنح : «اسمعى ، يا فاسيليسا يغورفنا ، يقال ان الاب غيراسيم تلقى من المدينة . . .» فقاطعته زوجته : «كفاك كذبا ، يا ايفان كوزميتش . انت تريد ان تعقد اجتماعا ، وتتحدثوا عن اميليان بوغاتشوف فى غيابى . ولكن ذلك لن ينطلى على !» بحلق ايفان كوزميتش عينيه ، وقال : «اذا كنت يا عزيزتى تعرفين كل شىء ، فلك ان تبقى ، سنتحدث بحضورك» . فاجابته : «ذلك هو الصواب ، يا عزيزى ، فان الخداع لا يليق بك . ارسل فى طلب الضباط» .

واجتمعنا من جديد . قرا لنا ايفان كوزميتش

بحضور زوجته نداء لبوغاتشوف كتبه قوزاقى نصف امى لا محالة . وقد اعلن قاطع الطريق فيه عن عزمه على الزحف على قلعتنا دون ابطاء ، ودعا القوزاق والجنود الى الانضمام الى عصابته ، وحث الضباط على عدم المقاومة ، متوعدا اياهم بالقتل فى حالة الرفض . وكان النداء مكتوبا بعبارات خشنة ، ولكنها قوية ، ولا بد انه سيترك تأثيرا خطيرا على عقول بسطاء الناس .

هتفت زوجة الآمر :

— يا له من محتال ! ما اجسر ما يقترحه علينا ! ان نخرج لاستقباله ، ونضع راياتنا على قدميه ! يا ابن الكلب ! ولكن كيف لا يعرف اننا فى الخدمة منذ اربعين عاما ، وقد بلونا كل شىء والحمد لله ؟ احقا يوجد فى الدنيا ضباط يمكن ان يطيعوا قاطع الطريق هذا ؟

اجاب ايفان كوزميتش :

— لا اظن ذلك . ولكننى سمعت ان الشرير استولى على قلاع كثيرة .

وقال شفابرين :

— يبدو انه قوى فى واقع الحال .

قال الآمر :

— والآن سنعرف قوته الحقيقية . يا فاسيليسا يغوروفنا اعطينى مفتاح الشونة . وانت ، يا ايفان ايغناتيفيتش اجلب الباشكيرى ، وابلغ يولاى بان يأتى بالسياط الى هنا .

قالت زوجة الآمر وقد نهضت من مكانها :

— قف ، يا ايفان كوزميتش . دعنى ابعد ماشا الى

مكان ما ، خارج البيت ، والا فانها ستسمع الصراخ ويصيبها الذعر . وانا ايضا ، لا اميل الى التحقيق ، والحق يقال . مع السلامة .

كان التعذيب فى الزمان القديم عميق الجذور فى عادات التحقيق القضائى ، حتى ان المرسوم المبارك الصادر بالتخلى عنه بقى زمنا طويلا غير مطبق . كانوا يظنون ان انتزاع الاعتراف من المجرم بجرمه كان ضروريا لفضحه كليا ، وهذه فكرة ليست فقط خاطئة بل وتنافى الفكر القضائى السليم منافاة تامة ، ذلك لانه اذا كان انكار المتهم لا يؤخذ دليلا على براءته ، فان اعترافه من باب اولى ، لا يمكن ان يقوم دليلا على جرمه . بل وفى بعض الاحيان كنت اسمع قضاة من الشيوخ يأسفون على التخلى عن هذه العادة الوحشية . فى زماننا لم يكن احد من القضاة ولا من المتهمين يشك فى ضرورة التعذيب . ولهذا فان امر الآمر لم يثر دهشة احد منا ، ولم يقلقه . ذهب ايفان ايغناتيفيتش ليجلب الباشكيرى ، المحجوز فى الشونة ، ومفتاح الشونة عند زوجة الآمر . وبعد عدة دقائق جيئ بالمحجوز الى الغرفة الامامية . فطلب الآمر ان يؤتى به اليه .

تخطى الباشكيرى العتبة بصعوبة (فقد كان مصفد القدمين) ، وخلع قبعته العالية ، ووقف عند الباب . نظرت اليه وجفلت . لن انسى هذا الانسان ما حييت . كان يبدو فى السبعين من العمر . وكان بلا انف ولا اذنين . وقد حلق شعره ، وبرزت بعض الشعرات البيض فى موضع اللحية ، وكان قصير القامة ، نحيلا ، محدودبا ، الا ان عينيه الضيقتين ما تزالان تقدحان

نارا . قال الآمر وقد عرف من وصماته بأنه واحد من المتمردين الذين عوقبوا فى عام ١٧٤١ : «اها ! يبدو انك ، ايها الذئب العجوز ، قد وقعت فى مصائدنا من قبل ، ليست هذه اول مرة تتمرد فيها ، ما دامت جمجمتك قد سويت هذه التسوية الناعمة . تقدم ، وقل من بعث بك ؟»

صمت الباشكيرى العجوز ، ونظر الى الآمر بخواء كلى . فاستمر ايفان كوزميتش يقول : «لماذا انت صامت ؟ ام انت لا تفهم الروسية مطلقا ؟ يا يولاى ، اسأله بلغتكم من ارسله الى قلعتنا ؟»

اعاد يولاى سؤال ايفان كوزميتش باللغة التترية ، الا ان الباشكيرى نظر اليه نفس النظرة السابقة ، ولم يجب بكلمة واحدة .

قال الامر :

— طيب ، سأضطرك الى الكلام . يا اولاد ، اخلعوا رداءه المخطط الابله ، واضربوه على ظهره . ابنِ شطارتك معه يا يولاى !

اخذ اثنان من مشوهى الحرب يجردان الباشكيرى ، ولاح القلق على اسارير وجه البائس . نظر فى كل الجهات ، مثل حيوان اصطاده اطفال . وحين رفع احد المشوهين يديه ، ووضعهما قرب رقبته ، ورفع العجوز على كتفيه وتناول يولاى السوط ولوح به ، انّ الباشكيرى بصوت واهن متوسل ، وفتح فمه وهو ينود براسه ، واذا بقطعة لحم صغيرة تتحرك داخل الفم بدلا من اللسان .

عندما اتذكر ان ذلك حدث فى زمانى ، وان العمر

قد امتد بى الآن الى العهد السمح للامبراطور الكسندر الاول * لا يسعنى الا ان ادهش للنجاحات السريعة فى التنوير ، وانتشار اصول حب الانسان . ايها الشاب ! ان تقع مذكراتى فى يديك تذكر ان احسن التغيرات وارسخها هى تلك التى تنتج عن تحسين الاخلاق دون اية هزات عنيفة .

وصعقنا جميعا . قال الآمر : «حسنا ، يبدو اننا لن نحصل منه على فائدة . يا يولاى ، اعد الباشكيرى الى الشونة . اما نحن ، ايها السادة ، فلنواصل الحديث» .

اخذنا نناقش وضعنا ، واذا بفاسيليسا يغوروفنا تدخل علينا الحجرة فجأة لاهثة الانفاس مضطربة اضطرابا بالغا .

سألها الآمر ذاهلا :

– ماذا حصل لك ؟

اجابت فاسليسا يغوروفنا :

– بلية ، يا رب ! استولوا على قلعة نيجنى اوزرسك صباح اليوم . عاد عامل الاب غيراسيم منها الساعة . وقد شاهد كيف استولوا عليها . شنقوا الآمر وجميع الضباط . واسروا كافة الجنود . بين لحظة واخرى سيصل الاشرار الى هنا .

صعقت بالنبأ الجديد بشدة . فقد كنت اعرف آمر قلعة نيجنى اوزرسك ، وهو شاب هادئ متواضع ، كان قد مر بنا قبل شهرين قادما من اورنبورغ مع زوجته

* يصف بوشكين عهد حكم هذا الامبراطور بالسمح سخرية به . (**الناشر** .)

الشابة ، ونزل عند ايفان كوزميتش . وكانت قلعة نيجنى اوزرسك تقع على بعد خمسة وعشرين فرسخا من قلعتنا . فلا بد ان يكون هجوم بوغاتشوف علينا ايضا متوقعا بين لحظة واخرى . وتمثلت فى نفسى مصير ماريا ايفانوفنا ، فجمد قلبى .

قلت للآمر :

– اسمع ، يا ايفان كوزميتش ! ان واجبنا الدفاع عن القلعة حتى آخر نفس ، ذلك امر لا يحتاج الى جدال . ولكن ينبغى التفكير بسلامة النساء . ارسلهن الى اورنبورغ اذا كان الطريق اليها ما يزال مفتوحا ، او الى قلعة بعيدة اكثر امانا لا يستطيع الاشرار الوصول اليها .

التفت ايفان كوزميتش الى زوجته وقال لها :

– يا عزيزتى ، امكن ان نرسلكما حقا الى مكان بعيد حتى نتغلب على العصاة ؟

قالت زوجة الآمر :

– هراء ! اين تلك القلعة التى لا يصل اليها الرصاص ؟ وما الذى يجعل قلعتنا غير مأمونة ؟ ها نحن نقضى سنتنا الثانية والعشرين فيها والحمد لله . ورأينا الباشكيريين والقيرغيزيين ، وسنصمد لبوغاتشوف ، على ما اظن !

فرد ايفان كوزميتش قائلا :

– ابقى ، يا عزيزتى ، اذا كنت تثقين بقلعتنا . ولكن ماذا نفعل مع ماشا ؟ حسن لو نصمد او نثبت حتى تأتى النجدة ، ولكن ماذا سيكون لو استولى الاشرار على القلعة ؟

– عندئذ . . .

وهنا تلعثمت فاسيليسا يغوروفنا وصمتت . وكان يبدو عليها قلق بالغ .
استمر الآمر وقد لاحظ ان كلماته قد تركت اثرها ربما للمرة الاولى فى حياته :
— لا ، يا فاسيليسا يغوروفنا . لا حاجة الى ان تبقى ماشا هنا . لنرسلها الى عرابتها فى اورنبورغ ، فان القوات والمدافع فيها كافية ، والاسوار من الحجارة . وانت ايضا انصحك بالسفر معها . لن تقيك شيخوختك مما قد يجرى لك ، اذا استولوا على القلعة بغارة .
قالت زوجة الآمر :
— حسنا ، لنرسل ماشا . اما انا فلن اغادر مهما الحفت بالطلب . لا حاجة لى فى شيخوختى ان افارقك ، وابحث عن قبر منفرد فى ارض غريبة . عشنا سوية ، وسنموت سوية .
قال الآمر :
— ليكن . ولكن ينبغى ان نسرع . اذهبى وجهزى ماشا للسفر . سنرسلها فى فجر الغد ، وسنرسل معها حارسا ، رغم عدم وجود رجال زائدين عن الحاجة عندنا . ولكن اين ماشا ؟
اجابت زوجة الآمر :
— عند اكولينا بامفيلوفنا . كاد يغمى عليها حين سمعت بالاستيلاء على نيجنى اوزرسك ، وانا اخاف ان تقع مريضة . يا ربى القدير الى اين بلغ الامر بنا !
انصرفت فاسيليسا يغوروفنا لتدبر امر سفر ابنتها . واستمر الحديث فى حجرة الآمر ، الا اننى لم اعد اتدخل فيه ، ولم الق اليه اذنا . جاءت ماريا

ايفانوفنا عند العشاء شاحبة وفى عينيها آثار البكاء . تعشينا صامتين ، وتركنا المائدة فى وقت اقصر من المعتاد ، وتوادعنا مع جميع افراد العائلة ، وانصرفنا الى بيوتنا . الا اننى نسيت سيفى تعمدا ، وعدت لآخذه . خامرنى احساس بأننى سأجد ماريا ايفانوفنا وحدها . وهذا ما حدث ، فقد استقبلتنى عند الباب ، وسلمتنى السيف ، وقالت لى دامعة العينين : «وداعا ، يا بيتر اندريفيتش ! انهم يرسلوننى الى اورنبورغ . ارجو لك السلامة والسعادة . قد يمن الله علينا بأن نلتقى مرة اخرى ، اذا لم . . .» وانفجرت باكية . طوقتها بذراعى ، وقلت : «وداعا ، يا ملاكى ، وداعا يا عزيزتى ، وودادى ! ثقى ان آخر فكرة لى ، وآخر دعاء سيكونان عنك ، مهما حدث من شيء !» اجهشت ماشا ، والتصقت بصدرى . فقبلتها بحرارة ، وخرجت من الحجرة مسرعا .

الفصل السابع

الغارة

راسى ، يا راسى ،
يا راس الجندى !
قضيت فى الخدمة
ثلاثة وثلاثين عاما
لم تفز فيها ، يا راسى ،
بمكسب ولا بفرحة ،
ولا بكلمة عنك طيبة ،
ولا برتبة عالية !
بل كسبت يا راسى
عمودين عاليين ،
عليهما عارضة من خشب الدلب
تتدلى منها الشوطة حريرية .
(اغنية شعبية .)

فى تلك الليلة لم انم ، ولم اخلع ملابسى .. عقدت العزم على ان اتوجه فى الفجر الى بوابة القلعة حيث ستخرج ماريا ايفانوفنا ، واودعها الوداع الاخير . احسست بتغير عظيم يطرأ على نفسى : وكان الانفعال فى روحى اخف علىّ بكثير من الجزع الذى انتابنى قبل وقت قصير . واختلط الم الفراق فى نفسى بآمال غامضة ولكنها حلوة ، وتوقع عجول للمخاطر ، ومشاعر عزة نفس

نبيلة . وانقضى الليل بسرعة . وكدت على وشك الخروج من البيت حين فتح الباب ، وظهر عريف يحمل نبأ خروج القوزاق من قلعتنا ليلا بعد ان اخذوا معهم قسرا يولاى ، وذكر العريف ان اناسا مجهولين يطوفون حول القلعة . وفكرت بأن ماريا ايفانوفنا ربما لا تلحق فى الخروج ، فافزعتنى هذه الفكرة ، واصدرت للعريف بعض التعليمات على عجل ، وانطلقت الى بيت الآمر فى الحال .

كانت الدنيا قد تنورت . ركضت فى الشارع حتى سمعت من ينادينى . فتوقفت . قال ايفان ايغناتيفيتش ، وقد لحق بى : «الى اين ؟ ايفان كوزميتش على السور ، وقد ارسلنى لاستدعيك . وصل بوغاتشوف» . سألته واجف القلب : «هل سافرت ماريا ايفانوفنا ؟» اجاب ايفان ايغناتيفيتش : «لم تلحق ، قطع الطريق الى اورنبورغ . والقلعة محاصرة . الوضع سيئ» .

سرنا الى السور ، وهو مرتفع كونته الطبيعة وقوى بسياج خشبى . راينا سكان القلعة كلهم قد تجمهروا عليه . كانت الحامية متهيئة للقتال ، وقد نقل المدفع الى السور فى العشية . وكان الآمر يروح ويجىء امام صف الجنود القليلى العدد . فان دنو الخطر قد مد هذا المحارب القديم بنشاط غير اعتيادى . وفى السهب على مسافة غير بعيدة من القلعة كان يتحرك زهاء عشرين فارسا . وكانوا قوزاقا على ما يبدو ، الا ان بعض البشكيريين كانوا بينهم ، يمكن التعرف عليهم بسهولة من قبعاتهم من فراء الوشق ، ومن كنائنهم . طاف الآمر بجنوده قائلا لهم : «يا ابنائى ، لنثبت اليوم فى سبيل امنا الامبراطورة ، ولنظهر للدنيا كلها اننا مقدامون

حافظون للايمان التى اقسمناها !» ابدى الجنود حماسهم بصوت عال . كان شفابرين يقف الى جانبى ، وينظر الى العدو متفرسا . لاحظ المتراكضون فى السهب حركة فى القلعة ، فاجتمعوا فى كوكبة واخذوا يتحدثون فيما بينهم . اوعز الآمر لايفان ايغناتيفيتش بأن يوجه المدفع الى حشدهم ، ووضع الفتيلة فى المدفع بنفسه . فصفرت القذيفة وطارت فوقهم دون ان تلحق بهم اذى . تفرق الفرسان ، وتواروا عن الانظار حالا . وخلا السهب .

فى تلك اللحظة ظهرت فاسيليسا يغوروفنا على السور تصحبها ماشا التى لم ترد ان تفارقها . قالت زوجة الآمر : «كيف تجرى المعركة ؟ اين العدو ؟» اجاب ايفان كوزميتش : «العدو غير بعيد . وسيكون كل شىء على ما يرام ان شاء الله . هل انت خائفة ، يا ماشا ؟» ردت ماريا ايفانوفنا : «لا ، يا بابا فوجودى فى البيت وحيدة يفزعنى اكثر» . وهنا رمقتنى ، واكرهت نفسها على الابتسام . ضغطت على مقبض سيفى عفويا ، وقد تذكرت اننى تسلمته من يديها البارحة ، وكأنما لاحمى به محبوبتى . وتأجج قلبى . وتصورت نفسى فارسا . وتعطشت لاثبات استحقاقى لثقتها ، واخذت انتظر اللحظة الحاسمة بنفاد صبر .

فى اثناء ذلك ظهرت وراء المرتفع الواقع على بعد نصف فرسخ من القلعة تجمعات جديدة من الخيالة ، وسرعان ما انزرع السهب بعدد كبير من المسلحين بالرماح والاقواس والنبال . بينما سار بينهم فارس على حصان ابيض فى قفطان احمر يمسك فى يده سيفا مجردا . كان ذلك بوغاتشوف نفسه . توقف ، واحاطوا به ، وبناء على امره على ما يبدو ، خرج اربعة فرسان منطلقين

باقصى ما تستطيع خيولهم نحو قلعتنا ، ولما اقتربوا عرفنا فيهم خونتنا . كان احدهم يرفع ورقة بالقرب من قبعته ، الآخر يحمل رأس يولاى على طرف رمحه . وقذفه الينا عبر السياج . وقع رأس الكالميكى المسكين عند قدمى الآمر . وصرخ الخونة : «لا تطلقوا النار ، واخرجوا الى القيصر ، انه هنا !»

صاح ايفان كوزميتش : «سأريكم ! يا اولاد ، اطلقوا النار !» وراح جنودنا يطلقون الرصاص . ترنح القوزاقى الذى كان يحمل الرسالة ، وهوى من فرسه ، وعاد الآخرون يرقلون من حيث اتوا . القيت نظرة على ماريا ايفانوفنا . كانت وكأنها فى غيبوبة ، وقد صعقها منظر راس يولاى المدمى . استدعى الآمر العريف ، وامره ان يأخذ الورقة من يد القوزاقى القتيل . خرج العريف الى السهب ، وعاد يسوق فرس القتيل من رسنه . وسلم الآمر الرسالة . قرأها ايفان كوزميتش فى سره ، ثم مزقها مزقا . وخلال ذلك كان العصاة على ما يبدو يستعدون للقتال . وبعد وقت قصير اخذ الرصاص يئز قرب آذاننا ، وانغرست بعض السهام فى الارض وفى السياج قربنا . قال الآمر : «فاسيليسا يغوروفنا ! لا مكان للنساء هنا . خذى ماشا ، فان الفتاة ما بين الموت والحياة» .

كانت فاسيليسا يغوروفنا منكمشة تحت الرصاص ، فالقت نظرة الى السهب الذى سرت فيه حركة كبيرة ، ثم التفتت الى زوجها ، وقالت له : «ايفان كوزميتش ، الموت والحياة بيد الله . بارك ماشا . يا ماشا ، اقتربى من ابيك» .

تقدمت ماشا من ايفان كوزميتش شاحبة مرتعشة ، وانحنت الى الارض . رسم الآمر العجوز علامة الصليب عليها ثلاث مرات ، ثم رفعها وقبلها ، وقال لها بصوت متغير : «لتكن السعادة من نصيبك ، يا ماشا . صلى للرب ولن يتخلى عنك . واذا وجدت زوجا طيبا فانا ادعو الله لكما بالحب والوفاق . عيشا مثلما عشنا نحن ، فاسيليسا يغوروفنا وانا . والآن ، وداعا ، ابعديها بسرعة ، يا فاسيليسا يغوروفنا» . (ارتمت ماشا على عنقه ، وانتحبت) وبكت زوجة الآمر ، وقالت : «لنتعانق نحن ايضا وليقبل احدنا الآخر . وداعا ، يا زوجى ايفان كوزميتش . سامحنى اذا كنت قد كدرتك فى شىء !» عانق الآمر زوجته العجوز ، وقال :«وداعا ، وداعا ، يا عزيزتى ! والآن ، كفى . اذهبا ، اذهبا الى البيت . واذا لحقت البسى ماشا ملابس بسيطة» . وغادرت زوجة الآمر وابنتها . نظرت فى اثر ماريا ايفانوفنا ، والتفتت هى ، واحنت راسها لى . وفى تلك اللحظة توجه ايفان كوزميتش الينا ، وكان كل انتباهه متركزا على العدو . كان العصاة يحومون بالقرب من رئيسهم ، وفجأة اخذوا يترجلون عن خيولهم . قال الآمر : «اثبتوا الآن بقوة . ستبدأ الغارة . . .» وفى تلك اللحظة صدر زعيق رهيب وصيحات ؛ وجاء العصاة راكضين نحو القلعة . عبئ مدفعنا بقذيفة . وتركهم الآمر الى اقرب مسافة واشعل الفتيل ثانية ، فاذا بالقذيفة تسقط فى وسط الحشد تماما . تشتت العصاة فى كلا الجانبين متراجعين . ووقف رئيسهم وحده الى الامام . . . كان يلوح بسيفه ، ويحرضهم بحماس ، على ما يبدو . . . وفى الحال عاد

الصياح والزعيق اللذان هدآ للحظة . قال الآمر : «والآن ، يا فتيان ، افتحوا البوابة ، واقرعوا الطبل ! يا فتيان ، الى الامام ، ورائى الى الهجوم !»

فى لمحة واحدة كان الآمر وايفان ايغناتيفيتش وانا وراء سور القلعة . الا ان الحامية المتخوفة لم تتحرك . صاح ايفان كوزميتش : «لماذا انتم واقفون ، يا اولادى ؟ الموت هو الموت : هذه هى الخدمة !» فى تلك اللحظة وصل المتمردون الينا ، واقتحموا القلعة . صمت الطبل ؛ والقى جنود الحامية السلاح . القيت ارضا ، الا اننى نهضت ، ودخلت مع المتمردين القلعة . كان الآمر قد جرح فى راسه ، وكان واقفا وسط جمهرة من الاشرار الذين كانوا يطلبون منه المفاتيح . انطلقت لنجدته ، فامسك بى بعض القوزاق الاقوياء وشدونى بالاحزمة قائلين : «ستنالون جزاءكم ، بسبب عدم خضوعكم !» جرونا فى الشوارع . كان الاهالى قد خرجوا من بيوتهم يحملون الخبز والملح . وفجأة صاحوا فى الحشد ان القيصر فى الساحة ينتظر الاسرى ، ويتقبل يمين الولاء . هرع الناس الى الساحة ، وقادونا الى هناك ايضا .

كان بوغاتشوف يجلس على مقعد وثير نصب فى مدخل بيت الآمر . كان يرتدى قفطانا قوزاقيا احمر مطرزا باشرطة مذهبة . وكانت قبعته العالية من فراء السمور والمزينة بشرابات ذهبية منكسة على عينيه اللامعتين . وبدا وجهه مالوفا لى . كان العمد القوزاقيون يحيطون به ، والاب غيراسيم وقف عند المدخل شاحبا مرتعشا ، والصليب فى يده . بدا وكأنه فى صمته يتوسل اليه ان يرأف بالضحايا المقبلين . نصبت مشنقة

فى الساحة على عجل . عندما وصلنا ابعد الباشكيريون الناس ، وقدمونا الى بوغاتشوف . هدأ قرع الجرس . وساد صمت عميق . سأل الدعى : «من الآمر ؟» خرج ضابط الصف من الحشد ، واشار الى ايفان كوزميتش . نظر بوغاتشوف الى العجوز نظرة متوعدة ، وقال له : «كيف جرأت على مقاومتى ، وانا قيصرك ؟»واجاب بصوت قوى : «لست قيصرى ، بل انت لص ودعى ، فأسمع قولى !» تجهم بوغاتشوف عبوسا ولوح بمنديل ابيض . امسك بعض القوزاق بالنقيب العجوز ، وجروه الى المشنقة . كان الباشكيرى المشوه الذى استجوبناه يوم امس راكبا فوق عارضة المشنقة . وكان يمسك بيده حبلا . وما هى دقيقة حتى رأيت ايفان كوزميتش المسكين معلقا فى الهواء . وبعد ذلك ساقوا ايفان ايغناتيفيتش الى بوغاتشوف . فقال له بوغاتشوف : «احلف يمين الولاء للقيصر بيتر فيودوروفيتش !» فأجاب ايفان ايغناتيفيتش مرددا كلمات آمره : «لست قيصرى . انت ، ياعم ، لص ودعى !» لوح بوغاتشوف ثانية بالمنديل الابيض ، فشنق الملازم الطيب بالقرب من رئيسه العجوز .

وجاء دورى . نظرت الى بوغاتشوف بجرأة ، مستعدا لترداد جواب رفيقى العظيمين . عندئذ رأيت ، على دهشة منى لا توصف ، شفابرين بين العمد المتمردين وقد حلق رأسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان القوزاقى . اقترب شفابرين من بوغاتشوف وهمس فى اذنه بعض الكلمات . قال بوغاتشوف وقد اعرض عنى «اشنقوه !» وضعوا الانشوطة فى عنقى ، واخذت اقرأ

الصلاة فى سرى ، رافعا الى الرب ندامة صادقة على كل خطاياى ، داعيا اياه ان يحفظ جميع القريبين من قلبى . سحبونى تحت المشنقة . وراح السفاكون يقولون لى مكررين : «لا تخف ، لا تخف» ربما عن رغبة حقيقية فى تشجيعى . واذا بى اسمع صرخة فجأة : «انتظروا ، يا ملاعين ! على رسلكم ! . . .» وتوقف السفاحون . ونظرت ، فاذا بى ارى سافيليتش مرتميا على قدمى بوغاتشوف . وراح هذا المربى المسكين يقول له : «مولاى العزيز ! ما حاجتك الى ان تقتل سيدا صغير السن ؟ اطلقه ، وسيعطونك فدية عنه ، مر بشنقى انا العجوز للعظة وبث الرعب !» ارسل بوغاتشوف اشارة ، ففكوا الانشوطة عنى فى الحال ، وتركونى . وقالوا لى : «ان مولانا يرأف بك» . فى تلك اللحظة لا استطيع ان اقول ان خلاصى قد سرنى ، ولكن لا اقول اننى قد اسفت عليه . كانت مشاعرى غامضة تماما . قادونى مرة اخرى الى الدعى ، وجعلونى اركع امامه . مد بوغاتشوف نحوى يده المعروقة . وقال الذين بالقرب منى : «قبل يده !» ولكن كنت افضل افظع اعدام على هذا التحقير السافل . همس سافيليتش وهو واقف ورائى يدفعنى : «يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! لا تعاند ! ماذا يكلفك ذاك ؟ ابصق ، وقبل الشر . . . (تفو !) قبل يده» . ولم اتحرك . انزل بوغاتشوف يده ، بعد ان قال بابتسامة ساخرة : «سيادته فقد عقله من الفرح . انهضوه !» انهضونى ، وتركونى وشأنى . اخذت اتابع فصول الكوميديا الفظيعة .

اخذ الاهالى يقسمون يمين الولاء . كانوا يتقدمون

واحدا وراء الآخر ، ويقبلـــون الصليب ، وينحنون للدعى . وكان جنود الحامية يقفون هناك ايضا . كان خياط السرية يقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم ، ويدنون من يد بوغاتشوف ، نافضين عنهم الشعر ، فيعلن هذا مغفرته ، ويقبلهم فى شرذمته . وقد استمر كل ذلك حوالى ثلاث ساعات . واخيرا نهض بوغاتشوف من المقعد ، وترك مدخل البيت يرافقه عمده . قادوا له جوادا ابيض ، مزينا بعدة غنية . رفعه قوزاقيان من تحت ابطه واجلساه على السرج . واعلن للاب غيراسيم بأنه سيتناول طعام الغداء على مائدته . وفى تلك اللحظة ارتفعت صيحة نسائية . كان بعض الشقاة يجرون الى المدخل فاسيليسا يغوروفنا ، شعثاء الشعر ، مجردة من الثياب . كان احد هؤلاء قد ارتدى سترتها المبطنة ، بينما كان الآخرون يجرون الوسائـــد والنضائـــد والصناديق ، وعدة الشاى ، والملابس ، وكل امتعة البيت . صاحت العجوز المسكينـــة : «يا اعزائى ! اطلقونى ، يا ابنائى ، خذونى الى ايفان كوزميتش» ، وفجأة وقع بصرها على المشنقة ، وتعرفت على زوجها . صاحت فى هلع : «ايها الاشرار ! ماذا فعلتم به ؟ يا ضيائى ، يا ايفان كوزميتش ، ايها الراس المحارب الشجاع ، لم تنل منك حراب البروسيين ولا رصاص الترك ، لم تصرع فى معركة نزيهة ، بل قتلك مجرم هارب !» قال بوغاتشوف : «اسكتوا الساحرة العجوز !» وفى هذه اللحظة ضرب قوزاقى راسها بالسيف ، فوقعت صريعة على درجات المدخل . وتحرك بوغاتشوف ، وانطلق الناس فى اثره .

الفصل الثامن

ضيف غير مدعو

ضيف غير مدعو اسوأ من تترى * .
(مثل .)

خلت الساحة . وكنت لما ازل ملازما مكانى ، غير قادر على تنظيم افكارى ، التى اثارتها مشاهد فظيعة جدا .

واشد ما كان يعذبنى هو جهلى بمصير ماريـــا ايفانوفنا . اين هى ؟ وماذا حصل لها ؟ وهل لحقت ان تختفى ؟ وهل المكان الذى اختفت فيه مأمون ؟ . . دخلت بيت الآمر تفعمنى افكار مقلقة . . . كان كل شىء فارغا . المقاعـــد ، والمناضد والصناديق محطمة ، والاوانى مهشمة ، وكل شىء قد نهب . ركضت مرتقيا الدرج الصغير المؤدى الى الطابق الثانى ، ولاول مرة فى حياتى دخلت غرفة ماريا ايفانوفنا . رأيت سريرها الذى عاث به اللصوص ، وكانت الخزانة مكسورة ومنهوبة ، وكان السراج ما يزال مشتعلا امام دولاب الايقونات المنهوبة . كما سلمت المرآة الصغيرة المعلقة بين نافذتين . . . اين هى ربة هذا الخدر الوادع العفيف ؟ ومضت فى ذهنى فكرة رهيبة : فقد تصورتها بين ايدى

* يعود هذا المثل الى عهد نير التتر فى روسيا (القرن ١٢–١٥) . (الناشر .)

الشقاة . . . وانكمش قلبي . . . بكيت بكاء مرا ، هاتفا باسم محبوبتي بصوت عال . . . وفي تلك اللحظة سمعت حركة خفيفة ، واذا ببالاشا تخرج من وراء الخزانة ممتقعة الوجه ، مرتجفة . قالت وهي ترفع ذراعيها :

— آه ، يا بيتر اندريفيتش ! اي يوم هذا ! ويا للهول ! . .

سألتها متلهفا :

— وماريا ايفانوفنا ؟ ماذا جرى لماريا ايفانوفنا ؟

اجابت بالاشا :

— الآنسة حية ، وهي مختبئـــة عند اكولينـــا بامفيلوفنا .

صحت في ذعر :

— في بيت القس ! يا رب ! ولكن بوغاتشوف هناك ! . .

خرجت من الحجرة مسرعا ، وما هي الا لمحة حتى كنت في الشارع ، وركضت الى منزل القس لا الوي على شيء ، ولا اشعر بشيء . كانت الصيحات ، والقهقهات ، والاغاني تسمع من هناك . . . كان بوغاتشوف يولم مع اصحابه . وكانت بالاشـــا قد جاءت في اثري ، فارسلتها لتدعو اكولينا بامفيلوفنا في السر . وبعد دقيقة خرجت زوجة القس لرؤيتي في الرواق وفي يدها قارورة فارغة . سألتها بقلق لا يوصف :

— بحق الرب ! اين ماريا ايفانوفنا ؟

اجابت زوجة القس :

— انها ، عزيزتـــي ، راقدة في سريري ، وراء الحاجز . كادت ان تنزل نازلة ، ولكن كل شيء مر

19*

بسلام ، حمدا لله . ما كاد الشرير يجلس للطعام ، حتى افاقت فتاتي المسكينة ، وتأوهت ! . . وكاد يغمى عليّ . سمع الشرير التأوه ، فسألني : «من يتأوه عندك ، يا عجوز ؟» فانحنيت للص وقلت له : «انها ابنة اخي ، يا مولاي ، وقعت مريضة ، وهي طريحة الفراش منذ اسبوع» . — «وهل ابنة اخيك شابة ؟» — «شابة ، يا مولاي» . — «اريني ابنة اخيك ، يا عجوز» . وانعصر قلبي ، ولكن لم تكن في اليد حيلة . «تفضل ، يا مولاي ، ولكن الفتاة لا تقدر على النهوض والمثول بين يديك» — «لا بأس ، يا عجوز ، سأذهب بنفسي ، والقي نظرة» . اترى ، اجتاز الملعون الحاجز ! سحب الستارة ، ونظر بعينيه الكاسرتين . ولم يحدث شيء . . . نجانا الله ! هل تصدق انني وزوجي تهيأنا لموت الشهادة . ومن حسن الحظ انها ، عزيزتي ، لم تتعرف عليه . يا رب القدرة ، عشنا لنرى هذا اليوم المشهود ! ما ابشع ذاك ! ايفان كوزميتش المسكين ! من كان يظن ! . . وفاسيليسا يغوروفنا ؟ وايفان ايغناتيفيتش ؟ لاي شيء شنقوه ؟ . . كيف رأفوا بك ؟ واي شقي شفابرين الكسي ايفانوفيتش هذا ؟ انه حلق رأسه في دائرة ، وهو الآن يولم معهم هنا ! لا شك في انه ماكر . ما ان تحدثت عن ابنة اخي حتى نظر الي نظرة جارحة كالسكين ، صدقني . ولكنه لم يش ، شكرا له ولو على ذلك . — وفي تلك اللحظة صدرت صيحات الضيوف السكارى ، وصوت الاب غيراسيم . كان الضيـــوف يطالبون بالشراب ، فاذا القس ينادي زوجته . واضطربت زوجة القس ، وقالت : «اذهب الى بيتـــك ، يـــا بيتـــر

اندريفيتش . لا وقت لى لاتحدث اليك . الاشرار يعربدون ويشربون . والاحسن الا يراك احد من السكارى . وداعا ، يا بيتر اندريفيتش . ليحصل ما يحصل . لا اظن الله يتخلى عنا .

وانصرفت زوجة القس . وتوجهت انا الى مسكنى ، وقد هدأت قليلا . ولدى مرورى فى الساحة رأيت بعض الباشكيريين يجتمعون قرب المشنقة يخلعون الاحذية من ارجل المشنوقين . كبحت بجهد سورة حنقى ، شاعرا بأن تدخلى لا يجدى فتيلا . وكان الشقاة يتراكضون فى جنبات القلعة ، ناهبين بيوت الضباط . وفى كل مكان صيحات المتمردين السكارى . وصلت الى البيت فاستقبلنى سافيليتش عند العتبة . صاح حين رآنى : «حمدا لله ! ظننت ان الاشرار قبضوا عليك ثانية . يا عزيزى بيتر اندريفيتش اتصدق ؟ الجناة نهبوا كل شىء عندنا : الثياب ، والمفارش ، والامتعة ، والاوانى . ولم يبقوا شيئا . لا بأس ، الحمد لله انهم تركوك حيا . هل عرفت من رئيسهم ، يا سيد ؟»

— لا ، لم اعرفه . من هو ؟

— كيف لم تعرفه ، يا عزيزى ؟ هل نسيت ذلك السكير الذى احتال على معطفك من فراء الارنب فى النزل ؟ كان جديدا كليا ، الا ان هذا الحيوان فتقه حين لبسه !

ودهشت . حقا ان الشبه بين بوغاتشوف ودليلى ذاك كان مذهلا . فايقنت ان بوغاتشوف والدليل شخص واحد . وفهمت السبب فى الرأفة التى شملنى بها . فما كان بوسعى الا ان اتعجب من تشابك الظروف : معطف

صبى اهديته الى متشرد انقذنى من حبل المشنقة ، وسكير كان يترنح بين الحانات استطاع ان يحاصر القلاع ويهز الدولة !

سأل سافيليتش غير مبدل عاداته :

— الا تريد ان تأكل ؟ لا يوجد شىء فى البيت ، سأذهب لابحث عن شىء ، واطعمك بشكل ما .

عندما بقيت وحدى غرقت فى تأملات . ماذا يجب على ان افعل ؟ ان البقاء فى القلعة وهى تحت سيطرة الشرير او مسايرة عصابته لم يكن يليق بضابط . لقد كان واجبى يقتضينى ان اذهب الى حيث يمكن ان تكون لخدمتى لما تزل فائدة لوطنى فى الظروف الحرجة الراهنة . . . الا ان الحب كان يدعونى بقوة الى ان ابقى بجانب ماريا ايفانوفنا ، وان اكون حاميها وحارسها . ورغم اننى كنت اتوقع تبديلا عاجلا مؤكدا فى الظروف ، الا اننى لم استطع الا ان ارتجف حين اتصور خطورة وضعها .

قطع تأملاتى وصول واحد من القوزاق جاء يعلن ان «القيصر العظيم يطلب مثولك بين يديه» . فسألته وانا مستعد لاطاعته : «اين هو ؟» . اجاب القوزاقى : «فى بيت الآمر . بعد الغداء توجه مولانا الى الحمام ، وهو الآن يستريح . يبدو من كل شىء ، يا صاحب السيادة ، انه شخصية رفيعة المقام : فقد اكل فى الغداء خنوصين محمصين ، واخذ حمام بخار حارا جدا ، لم يستطع حتى تاراس كورتشكين ان يتحمله ، فسلم الليفة الى فومكا بيكبايف وعاد الى حاله بعد ان صب على جسده الكثير من الماء البارد . وباختصار كل الدلائل تشير الى

عظمته . . . ويقال انه اظهر اثناء الحمام علائم القيصرية المرسومة على صدره . فى احد الجانبين نسر ذو راسين بحجم خمسة كوبيكات ، وفى الجانب الآخر صورته » .

لم ار ضرورة لمناقشة القوزاقى فى رايه ، فتوجهت معه الى بيت الآمر ، متصورا مسبقا ملاقاتى لبوغاتشوف ، محاولا ان احزر ما تنتهى اليه . والقارئ يستطيع بسهولة ان يتصور اننى لم اكن بارد الاعصاب تماما .

كان المساء يهبط حين وصلت الى بيت الآمر . كانت المشنقة بضحيتها تسود سوادا فظيعا . وكانت جثة زوجة الآمر ما تزال ملقاة تحت مدخل البيت حيث كان قوزاقيان يحرسان . دخل القوزاقى الذى كان معى الى البيت ليبلغ بمجيئى ، وعاد فى الحال ، وقادنى الى الحجرة التى كنت فى الامس قد تواعدت فيها مع ماريا ايفانوفنا بحنان .

وظهر امامى مشهد غير اعتيادى : فقد رايت بوغاتشوف ونحو عشرة من العمد القوزاقيين جالسين وراء مائدة مغطاة بمفرش ، ومثقلة بالقوارير والاقداح . كانوا يرتدون القبعات والقمصان الملونة ، وقد وهجتهم الخمرة ، وجعلت خدودهم حمرا ، وعيونهم لامعة . ولم يكن شفابرين بينهم ، ولا ضابط صفنا ، ذانكم الشخصان حديثا العهد بالخيانة . قال بوغاتشوف حين رآنى : «اها ، يا صاحب السيادة ! اهلا وسهلا . تفضل بالجلوس» . وتراصّ الندماء . فجلست صامتا عند حافة المائدة . صب لى جارى القوزاقى الشاب الممشوق الوسيم قدحا من النبيذ البسيط لم امسسه .

اخذت اجيل البصر بالمجتمعين فى فضول . كان بوغاتشوف يتصدر المكان مرتفقا المائدة ، ساندا لحيته السوداء بقبضته العريضة . كانت تقاطيع وجهه سليمة ، ولطيفة كثيرا ، ولم تكن تنم عن شراسة . كان كثيرا ما يخاطب رجلا فى نحو الخمسين من العمر ، مناديا اياه مرة بالكونت ، ومرة بتيموفيتش ، واحيانا يسميه بمناداته : يا عمى . كانوا جميعا يتعاملون فيما بينهم كرفاق ، ولم يبدو اى تعظيم خاص لرئيسهم . جرى الحديث على غارة الصباح ، وعن نجاح الانتفاضة ، وعن العمليات المقبلة . تباهى كل فرد ، مقترحا آراءه ، وكان يتجادل مع بوغاتشوف بطلاقة . وفى هذا المجلس الحربى الغريب تقرر الزحف على اورنبورغ : وهو اندفاع جرئ كاد يتوج بنجاح فاجع . وحدد اليوم التالى موعدا للزحف . قال بوغاتشوف : «والآن ، يا اخوان ، لنغن قبل النوم اغنيتى المحبوبة . يا تشوماكوف ! ابدأ !» وبدأ جارى يغنى بصوت رقيق اغنية حزينة من اغانى ساحبى السفن ، وانضم الجميع اليه :

لا تضجى ، ايتها الغابة الخضراء ،
ولا تعيقى الفتى الطيب عن التفكير .
فى صباح الغد سامثل امام قاض رهيب ،
هو القيصر نفسه .
سيسالنى مولاى القيصر :
خبرنى ايها الفتى ابن الفلاح ،
من كان شركاؤك فى السطو والسرقة ،
وهل كان رفاقك كثيرين ؟
ساجيب مولاى القيصر المؤمن ،
واخبره بكل الحقيقة ،

قائلا ان رفاقى كانوا اربعة :
كان الليل الحالك رفيقى الاول ،
والثانى سكينى الفولاذى ،
والثالث جوادى المطيع ،
والرابع قوسى المشدود .
وكان نثارى سهاما صلبة .
وسيجيبنى مولاى القيصر المؤمن :
مرحى لك ، ايها الفتى ابن الفلاح :
قدير انت فى السطو ، قدير فى الجواب !
وساجازيك على ذلك
بقصر عال فى سهب :
خشبتان قائمتان
عليهما عارضة .

من المتعذر ان اصف التأثير الذى تركته فى نفسى هذه الاغنية الشعبية البسيطة عن المشنقة يغنيها اناس حكم عليهم بأن يشنقوا . ان وجوههم العنيفة ، واصواتهم المنسقة ، ومسحة الجزع التى اضفوا على الكلمات القوية التعبير فى اصلها ، كل ذلك قد هز نفسى برهبة شاعرية .

شرب الضيوف القدح الاخير ، ونهضوا من وراء المائدة ، وتوادعوا مع برغاتشوف . اردت ان احذو حذوهم ، الا ان بوغاتشوف قال لى : «اجلس ، اريد ان اتحدث معك» . وبقينا وحدنا .

استمر صمتنا المشترك عدة دقائق . كان بوغاتشوف يتفرس فىّ ، مقلصا بين الحين والآخر عينه اليسرى فى تعبير مدهش عن المكر والسخرية . واخيرا ضحك وبمرح طليق جدا حتى اخذت اضحك وانا انظر اليه دون ان اعرف السبب . وقال لى :

— يا صاحب السيادة ! قل الحقيقة ، هل جبنت حين القى فتيانى الحبل على رقبتك ؟ اظن ان الفزع جعلك ترى النجوم فى الضحى . . لو لا خادمك لكنت الآن تتدلى من العارضة . لقد عرفت المتذمر الهرم فى الحال . ولكن هل كنت تظن ، يا صاحب السيادة ، ان الرجل الذى قادك الى النزل كان القيصر العظيم بعينه ؟ (وهنا اكتسى وجهه بهيئة العظمة والغموض ، وتابع قوله) انت مذنب نحوى ذنبا عظيما ، ولكننى عفوت عنك جزاء معروفك ، لانك قدمت لى خدمة ايام كنت مضطرا الى الاختفاء عن اعدائى . سترى الكثير ! ساجازيك حين احصل على ملكى ! هل تعدنى بأن تخدمنى بحماس ؟

وبدا لى سؤال المحتال وجرأته فكهين جدا حتى لم استطع الا ان اضحك .

سأل متعبسا :

— ما الذى يضحكك ؟ ام انك لا تصدق باننى القيصر العظيم ؟ اجب بصراحة .

ارتبكت . لم اكن اقدر على ان اعترف بأن هذا المتشرد قيصر : فان ذلك سيكون خورا لا يغتفر . كما ان تسميته بالمحتال فى وجهه قد يعرضنى الى الوقوع فى ايدى القتلة . ان ما كنت مستعدا له وانا تحت المشنقة امام انظار الناس جميعا ، فى السورة الاولى من الغيظ بدا لى الآن تبجحا لا فائدة منه . وترددت . وكان بوغاتشوف ينتظر ردى جهم الاسارير . واخيرا (وانا حتى الآن اتذكر تلك اللحظة برضى نفسى) انتصر شعور الواجب فى نفسى على الضعف البشرى .

اجبت بوغاتشوف : «اسمع . سأقول لك الحقيقة كلها . قدر بنفسك هل استطيع انا الاعتراف بك قيصرا ؟ انت رجل ذكى ، وسترى بنفسك اننى اخادعك» .

– ومن انا ، حسب رأيك ؟

– الله اعلم بك ، ولكن مهما تكن انت فانك تلعب لعبة خطيرة .

نظر بوغاتشوف الى نظرة سريعة وقال : «اذن ، فانت لا تصدق بأننى القيصر بيتر فيودوروفيتش ؟ حسنا . الا تعترف بأن الفوز للجسور ؟ الم يفز غريشكا اوتريبيف* بالقيصر فى الزمان القديم ؟ لك الحرية فى ان تظن بى ما تريد ، ولكن لا تتخل عنى . ما الذى يهمك فيما لا يعنيك ؟ لا فرق من تخدم . اخدمنى باخلاص وصدق ، وسأجازيك بان اجعلك فيلدمارشالا واميرا . فما رأيك ؟

اجبته بتصميم :

– لا . انا نبيل فى الاصل ، وقد اقسمت يمين الولاء للامبراطورة . لا استطيع ان اخدمك . دعنى اسافر الى اورنبورغ اذا كنت تريد لى الخير حقا .

فكر بوغاتشوف . وقال : «هل تعدنى ، اذا تركتك تذهب ، بألا تقف ضدى على اقل تقدير ؟» .

اجبته :

– وكيف استطيع ان اعدك بذلك ؟ انت تعرف اننى مسير لا مخير . اذا امرونى بأن اقف ضدك سأقف ، ولا خيار لى فى ذلك . انت الآن رئيس ، وتطلب الطاعة من رجالك . فماذا سيكون اذا رفضت ان اخدم حيث يحتاجون الى خدمتى ؟ ان راسى تحت سلطتك ، فاذا اطلقتنى قلت شكرا ، واذا شنقتنى كان الله قاضيك . اما انا فقد قلت لك الحقيقة .

اذهلت صراحتى بوغاتشوف . قال لى بضربة على كتفى : «وليكن ذاك . عقابى صارم وعفوى سموح . اذهب الى حيث تشاء ، وافعل ما تريد . تعال فى الغد لتوديعى . والآن اذهب لتنام ، فان النعاس اخذ يطبق علىّ» .

تركت بوغاتشوف ، وخرجت الى الشارع . كان الليل ساجيا وشديد البرودة . وكان القمر والنجوم تتألق ساطعة فى السماء ، مضيئة الساحة والمشنقة . وكان كل شىء فى القلعة ساكنا وداكنا . وكانت الحانة وحدها مضاءة ، تصدر منها صيحات المتأخرين فى القصف واللهو . القيت نظرة على بيت القس . كانت الصفاقات والبوابة مغلقة . وكل شىء فيه قد هدأ .

وصلت الى مسكنى فوجدت سافيليتش فى قلق شديد على غيابى . افرحه نبأ اطلاق سراحى فرحا لا يوصف . قال وهو يرسم علامة الصليب : «المجد لك ، يا رب القدرة ! سنترك القلعة عند الفجر ، ونسير فى الدنيا الواسعة . اعددت لك بعض الطعام . فكل يا عزيزى ، ونم حتى الصباح قرير العين» .

تبعت نصيحته ، فتعشيت بشهية كبيرة ، ونمت على الارض العارية متعبا فى الروح والجسد .

* الدعى الذى ادعى بانه ديميترى ابن القيصر ايفان الرهيب . كان ديميترى الزائف هذا دمية بايدى المتدخلين البولونيين ، وقد استولى على العرش الروسى خلال ١١ شهرا (١٦٠٥–١٦٠٦) . (الناشر .)

الفصل التاسع

الفراق

ما اطيب اللحظة
التى عرفتك فيها
يا جميلتى !
وما اشقى فراقى لك
وكأنه فراق الروح .
(من اغنية «الفراق» **لخيراسكوف** .)

ايقظنى قرع الطبل فى الصباح الباكر . ذهبت الى مكان التجمع ، فرأيت حشود بوغاتشوف مصطفة بالقرب من المشنقة ، حيث ما زالت ضحيتا الامس معلقتين . كان القوزاق راكبين الخيول ، والجنود يحملون البنادق ، والرايات ترفرف . وقد شدت الى العربات بعض المدافع . عرفت من بينها مدفعنا . وكان جميع الاهالى مجتمعين هناك فى انتظار الدعى . وعند مدخل بيت الآمر كان احد القوزاق يمسك مقود جواد ابيض رائع من نسل قيرغيزى . بحثت ببصرى عن جثة زوجة الآمر . فرأيتها قد جرت قليلا فى ناحية ، وغطيت بحصيرة من الليف . واخيرا خرج بوغاتشوف من الرواق . فخلع الناس قبعاتهم . توقف بوغاتشوف على مدخل البيت ،

وسلم على الجميع . قدم له احد العمد كيسا من النقود النحاسية ، فاخذ يرميها حفنات . اندفع الناس لالتقاطها متصايحين . ولم يسلموا من اذى . احاط ببوغاتشوف الرؤساء من اعوانه . وكان بينهم شفابرين . والتقت نظراتنا . استطاع ان يقرأ فى نظرتى الازدراء ، فتنكب عنى مظهرا ضغنا صريحا ، وهزءا متكلفا . لمحنى بوغاتشوف بين الجمع فهز رأسه لى يدعونى اليه . قال لى : «اسمع ، سافر الساعة الى اورنبورغ وابلغ عنى الوالى وجميع الجنرالات بأن ينتظرونى هناك بعد اسبوع . انصحهم بان يستقبلونى بحب الابناء لابيهم وبالطاعة ، والا فسينتظرهم عقاب صارم . سفرة ميمونة ، يا صاحب السيادة ! — ثم التفت الى الناس وقال مشيرا الى شفابرين — يا ابنائى ، هذا آمركم الجديد ، فاطيعوه فى كل شيء ، وسيكون مسؤولا امامى عنكم وعن القلعة» . اصغيت الى هذه الكلمات مذعورا . اصبح شفابرين صاحب الامر فى القلعة ، وصارت ماريا ايفانوفنا تحت سلطته ! الله يعلم ماذا سيحصل لها ! ترك بوغاتشوف مدخل البيت . فقدموا له الجواد . قفز الى السرج بخفة غير منتظر القوزاقيين اللذين ارادا ان يعيناه .

وفى تلك اللحظة رأيت خادمى سافيليتش يخرج من الحشد ، ويتقدم من بوغاتشوف ، ويقدم له ورقة . لم استطع ان احزر الى ما سيؤول ذلك . سأله بوغاتشوف بعظمة : «ما هذا ؟» اجاب سافيليتش : «اقرأ ، وسترى» . تناول بوغاتشوف الورقة ، وتمعن فيها طويلا بهيئة معتبرة . وقال فى النهاية : «ما هذه الكتابة

الرديئة ؟ ان عينينا الوضاءتين لا تستطيعان فك خربشتها . اين كبير الامناء ؟»

ركض شاب فى سترة عريف نحو بوغاتشوف بسرعة . فقال له الدعى وهو يناوله الورقة : «اقرأها بصوت عال» . وتملكنى فضول بالغ لمعرفة ما عنّ للمربى ان يكتبه لبوغاتشوف . اخذ كبير الامناء يقرأ ما يلى بصوت عال ، متهجيا المقاطع :

– «مبذلان احدهما قطنى والثانى حريرى مخطط ، سعر كليهما ستة روبلات» .

قال بوغاتشوف متجهما :

– ما يعنى هذا !

اجاب سافيليتش فى هدوء :

– مره ان يواصل القراءة .

واصل كبير الامناء القراءة :

– «سترة عسكرية من الجوخ الاخضر الناعم بسبعة روبلات .

سروال ابيض من الجوخ بخمسة روبلات .

اثنا عشر قميصا من الكتان الهولندى باكمام بعشرة روبلات .

حقيبة لعدة الشاى بروبلين ونصف . . .»

قطع بوغاتشوف القراءة بقوله :

– ما هذا الهراء ؟ ما علاقتى بالحقائب والسراويل ذات الاكمام ؟

تنحنح سافيليتش ، واخذ يشرح :

– هذه اذا تفضلت وسمحت ، قائمة بأمتعة السيد التى نهبها الاشرار . . .

سأل بوغاتشوف بلهجة متوعدة :

– من هؤلاء الاشرار ؟

اجاب سافيليتش :

– ارجو المعذرة : زلة لسان . اشرار او غير اشرار ، الا ان فتيانك نبشوا ونهبوا . لا تغضب ، حتى الحصان يكبو وهو ذو قوائم اربع . مره ان يقرأها حتى النهاية .

امر بوغاتشوف بأن يقراها حتى النهاية .

فاستمر كبير الامناء فى القراءة :

– «دثار قطنى ، وآخر من التفتة المخلوطة بالقطن باربعة روبلات .

معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزى ، ٤٠ روبلا .

معطف آخر صغير من فراء الارنب وهب لحضرتك فى النزل ، ١٥ روبلا» .

صاح بوغاتشوف وقد برقت عيناه غيظا :

– ما هذا ايضا !

اعترف باننى خفت على مربى المسكين . هم مرة اخرى بان يشرح الامر . الا ان بوغاتشوف قاطعه صائحا ، وهو يختطف الورقة من يد كبير الامناء ، ويقذفها فى وجه سافيليتش : «كيف جرات على التطاول علىّ بهذه السفاسف ؟ ايها العجوز الاحمق ! نهبوها ! فما المصيبة فى ذلك ؟ ثم يجب ان تدعو الله لى ولفتيانى طوال عمرك ، ايها المتذمر الهرم ، لاننا لم نشنقك وسيدك ، هنا ، مع الذين خرجوا على طاعتى . . . معطف من فراء الارنب ! سأريك المعطف !

هل تعرف اننى سآمر بسلخ جلدك حيا لاصنع منه معطفا ؟»

اجاب سافيليتش :

— كما تريد ، ولكننى رجل مأمور ومسؤول عن امتعة السيد .

كان بوغاتشوف ، على ما يبدو ، فى نوبة من السماحة .

استدار ، وسار فى طريقه دون ان ينطق بكلمة اخرى . وسار شفابرين والعمد وراءه . خرجت العصابة من القلعة فى نظام . وسار الناس يودعون بوغاتشوف بقيت فى الساحة مع سافيليتش . كان مربى يمسك قائمته فى يديه ، وينظر فيها بأسى عميق .

رآنى على وفاق حسن مع بوغاتشوف ففكر ان يجنى منه فائدة ؛ الا ان مسعاه لم ينجح . رحت الومه على هذا الحماس الذى جاء فى غير محله ، ولم استطع ان امنع نفسى من الضحك . اجاب سافيليتش : «اضحك ، يا سيد ، اضحك . لكن عندما نحتاج الى الامتعة من جديد ، فسنرى هل ذلك مضحك ام لا» .

هرعت الى بيت القس لأرى ماريا ايفانوفنا . استقبلتنى زوجة القس بنبأ مؤلم . فى الليل اصيبت ماريا ايفانوفنا بحمى شديدة . وهى الآن ترقد فى غيبوبة وهذيان الحمى . قادتنى زوجة القس الى حجرتها . اقتربت من سريرها بهدوء . فرأيت على وجهها تغيرا صعقنى . لم تعرفنى المريضة . وقفت امامها طويلا ، غير مستمع الى الاب غيراسيم ، ولا الى زوجته الطيبة اللذين جاهدا ، على ما يبدو ، لادخال

الطمأنينة الى قلبى . كانت تقلقنى افكار كئيبة . وترعبنى حالة اليتيمة المسكينة ، المتروكة بين المتمردين الاشرار دون حماية مضافا الى ذلك عجزى . وكان شفابرين اكثر ما يعذب تصورى . فقد كان فى مقدوره ان يقدم على كل شىء ، وقد خول السلطة من الدعى ، وصار المتحكم فى القلعة ، حيث تركت فتاة تعيسة غرضا بريئا لكراهيته . ماذا ينبغى ان افعل ؟ كيف اساعدها ؟ وكيف اخلص من يد الشرير ؟ لم تبق الا وسيلة واحدة : فعزمت على التوجه فى هذه الساعة الى اورنبورغ ، بغية التعجيل فى تحرير قلعة بيلوغورسك ، والعمل عليه بقدر الامكان . تواعدت مع القس ومع اكولينا بامفيلوفنا ، واوصيتهما بأن يرعيا تلك التى قد اعتبرتها زوجتى . تناولت يد الفتاة المسكينة ، وقبلتها ناثرا عليها دموعى . قالت لى زوجة القس وهى تودعنى : «وداعا يا بيتر اندريفيتش . آمل ان نلتقى فى وقت افضل . لا تنسانا ، واكثر من الكتابة الينا . الآن ليس لماريا ايفانوفنا المسكينة غيرك سلوى وحاميا» .

خرجت الى الساحة ، وتوقفت دقيقة ونظرت الى المشنقة ، وانحنيت لها ، وغادرت القلعة ، وسرت فى الطريق الى اورنبورغ يصحبنى سافيليتش الذى لم يبارحنى .

سرت مشغولا بافكارى ، واذا بى اسمع كركبة حصان ورائى . التفت فرأيت قوزاقيا يعدو من القلعة ويمسك جوادا باشكيريا آخر من مقوده ، ويومىء الى من بعيد . توقفت ، وبعد قليل عرفت انه ضابط

صفنا . عندما وصل قفز من حصانه ، وقال وهو يقدم لى مقود الحصان الآخر : «يا صاحب السيادة ! ان مولانا يهبك حصانا وفروة من على كتفه (كانت فروة خروف مربوطة فى السرج) ، واضاف متلعثما : «وثمة شىء آخر . انه يهبك نصف روبل . . . ولكننى اضعته فى الطريق ، اعذرنى بسماحة نفسك» . نظر سافيليتش اليه ، وتذمر : «اضاعه فى الطريق : ما هذا الذى يرن فى صدر ثوبـــك ؟ يا معدوم الضمير !» فرد ضابط الصف دون ان يرتبك البتة : «ما هذا الذى يرن فى صدر ثوبى ؟ سامحك الله ، يا شيـــخ ! هذا رنين اللجام ، لا نصف الروبل» . قلت قاطعـــا الجدل : «حسنا ، اشكر لى من ارسلك . اما نصف الروبل الذى اضعته فحاول ان تعثر عليه فى طريق عودتك ، وخذه واشرب به الفودكا» . اجاب وهو يدير حصانـــه : «ممتن جدا ، يا صاحب السيادة ! سأدعو الله لـــك طوال عمرى» . وبعد هذه الكلمات عدا راجعا ، واضعا احدى يديه على صدر ثوبه ، وبعد دقيقة اختفى عن البصر . ارتديت الفروة ، وامتطيـــت الجواد بعد ان اركبت سافيليتش ورائى . قال العجوز : «اترى ان تقديمى الشكوى لذلك المحتال لم يذهب هباء . استحى اللص رغم ان الكديش الباشكيرى الهزيـــل وفروة الخروف لا يساويان نصف ما سرقه اولئك المحتالون منا وما وهبته له . ولكن كل شىء سينفع . حتى شعرة من جلد خنزير» .

الفصل العاشر

حصار المدينة

بعد ان استولى على الغياض والجبال ،
القى على المدينة نظرة من شاهق ، كالنسر .
وامر باقامة سد وراء المعسكر
لتخبأ المدافع وراءه ، وفى الليل تصوب الى المدينة .
(**خيراسكوف** .)

عندما اقتربنا من اورنبورغ رأينا جمعا مـــن المحكومين المقيدين ذوى الرؤوس الحليقة ، والوجوه التى شوهتها مقارض السفاكين . كانوا يعملون تحت مراقبة جنود الحامية المشوهين . كان بعضهم يحملون على عربات صغيرة الفضلات التى كانت تملأ خندقـا . وآخرون يحفرون الارض بالارفاش . وعلى السد كان عمال الحجارة يجلبون الآجر ، ويرممون سور المدينة . اوقفنا الحارس عند بوابة المدينة وطلب جوازينا . مـا ان عرف الرقيب بأننى قادم من قلعة بيلوغورســـك حتى قادنى الى بيت الجنرال رأسا .

لقيته فى الحديقة . كان يتفقد اشجار التفاح التى عرتها انفاس الخريف ، ويغطيها بالقش الدافىء حريصا عليها يساعده فى ذلك بستانى عجوز . كان وجـــه

الجنرال يشع طمأنينة وعافية وطيبة قلب . سر بمقدمي ، وشرع يسأل عن الاحداث المرعبة التى شهدتها . قصصت عليه كل شيء . اصغى الىّ العجوز بانتباه وخلال ذلك كان يقطع الاغصان اليابسة . وعندما انتهيت من روايتى الفاجعة قال : «مسكين ميرونوف ! يؤسفنى مصرعه . لقد كان ضابطا مقداما . وكانت مدام ميرونوف سيدة نبيلة ، وماهرة فى تخليل الفطر ! وكيف ماشا ابنة الآمر ؟» اجبته بأنها بقيت فى القلعة تحت رعاية زوجة القس . ردد الجنرال : «اى ، اى ، اى ! هذا سيىء ، سيىء جدا . لا يمكن الاعتماد ابدا على سلوك اللصوص . ماذا سيكون من امر هذه الفتاة المسكينة ؟» اجبت بأن قلعة بيلوغروسك غير بعيدة ، ومن الارجح ان فخامته سيسرع فى ارسال القوات لتحرير اهاليها المساكين . هز الجنرال راسه فى تشكك . وقال : «سنرى ، سنرى ، سيكون لنا الوقت للتحدث عن ذلك . ارجو التفضل لتناول الشاى عندى : اليوم سيعقد مجلس حربى فى بيتى . وفى وسعك ان تدلى لنا بمعلومات دقيقة عن هذا الصعلوك بوغاتشوف ، وعن قواته . والآن اذهب لتنال بعض الراحة» .

ذهبت الى المسكن الذى خصص لى ، حيث وجدت سافيليتش منشغلا فى تنظيمه ، واخذت انتظر بنفاد صبر الوقت المحدد . والقارئ يستطيع ان يتصور بسهولة اننى لم اتوان عن حضور مجلس لا بد ان يكون له تأثير كبير فى مصيرى . فى الساعة المحددة كنت عند الجنرال .

وجدت عنده احد موظفى المدينة هو ، على ما اذكر

مدير الجمارك ، وهو رجل عجوز سمين مورد الخدين يرتدى قفطانا من الحرير المقصب . شرع يسألنى عن مصير ايفان كوزميتش الذى سماه عراب اولاده ، وكان لا يفتأ يقطع كلامى بأسئلة اضافية ، وملاحظات تهذيبية اذا لم تكن قد اظهرته بمظهر رجل عليم فى الشؤون العسكرية ، فانها ، على اقل تقدير ، نمت عن نفاذ بصيرة ونباهة فطرية . وخلال ذلك كان المدعوون الآخرون قد حضروا ولم يكن بينهم عسكرى آخر غير الجنرال نفسه . وعندما جلس الجميع ووزعت عليهم اقداح الشاى عرض الجنرال وضع الامور بوضوح شديد واطناب . واستمر يقول : «الآن ، ايها السادة ، ينبغى ان نقرر كيف يجب ان نتصرف مع العصاة ، وهل نتخذ طريقة **الهجوم** ام **الدفاع** ؟ فان لكل واحدة من هاتين الطريقتين منافعها ومضارها . وطريقة الهجوم تتيح املا اكبر فى دحر سريع للعدو ، بينما طريقة الدفاع اوثق واكثر ضمانا . . . والآن لنبدأ بجمع الاصوات حسب الطريقة القانونية ، اى ان نبدأ من ذوى الرتب الصغيرة بيننا» . وهنا التفت الىّ الجنرال وسألنى : «ايها السيد الملازم ، ارجو التفضل بابداء رايك» .

نهضت ، ووصفت بكلمات مختصرة بوغاتشوف وعصابته فى بادئ الامر ، ثم قلت مؤكدا ان الدعى لا يملك القدرة على مقاومة السلاح النظامى .

استقبل الضيوف رأيى بسلبية واضحة . وقد وجدوا فيه تهور شاب وجسارته . وارتفع لغط ، وسمعت بوضوح كلمة «حدث غر» يتفوه بها احدهم

بصوت خفيض . التفت الى الجنرال ، وقال مبتسما : «ايها السيد الملازم ! فى العادة تكون الاصوات الاولى فى المجالس العسكرية لصالح العمليات الهجومية ، وهذا امر مشروع . والآن لنواصل جمع الاصوات . السيد الملاحظ ! قل لنا رأيك !»

اسرع العجوز ذو القفطان المقصب بافراغ بقية قدحه الثالث المطعم بكمية كبيرة من الروم ، واجاب الجنرال : «لا اعتقد ، يا صاحب الفخامة ، بضرورة الاخذ بطريقة الهجوم او الدفاع» .

اعترض الجنرال مندهشا :

— وكيف ذلك ، يا حضرة الملاحظ ؟ لا توجد فى التكتيك الحربى غير طريقتين : الهجومية والدفاعية . . .

— جربوا طريقة الارشاء .

— إخ —إخ — إخ ! رأيك معقول جدا ! فان التكتيك الحربى يبيح طرق الارشاء ، وسنستفيد من نصيحتك . ربما سنضع مبلغ سبعين روبلا وحتى مائة من المخصصات السرية مكافأة لكل من يأتينا برأس الصعلوك . . .

فبادر مدير الجمارك يقول :

— سأكون خروفا قيرغيزيا اذا لم يسلم هؤلاء اللصوص رئيسهم مشدود اليدين والرجلين .

رد الجنرال :

— سنفكر بذلك ونتحدث مرة اخرى . وعلى كل حال يجب ان نتخذ تدابير عسكرية تحسبا لكل طارئ . ايها السادة ، قدموا آراءكم ، حسب التسلسل القانونى .

وظهر ان جميع الآراء تخالف رأيى . فقد تحدث جميع الموظفين مبلغين عن عدم اطمئنانهم الى القوات ، وعدم وثوقهم فى النجاح ، وعن الحذر وما شابه ذلك . ورأى الجميع ان البقاء تحت حماية المدافع ، وراء السور الحجرى القوى ، اصوب من الخروج الى الارض الفضاء، لنجرب حظنا فى السلاح . وعندما فرغ الجنرال من سماع كل الآراء اخيرا ، نفض الرماد من غليونه ، والقى الكلمة التالية :

— ايها السادة ! يجب ان اعلن لكم اننى من جانبى متفق تمام الاتفاق مع رأى السيد الملازم ، لان رأيه مستند الى جميع اصول التكتيك الحربى السليم الذى يفضل دائما تقريبا الحركات الهجومية على الحركات الدفاعية .

وهنا توقف ، واخذ يحشو غليونه . وشعرت بأن كبريائى قد انتصرت ، فنظرت بأنفة الى الموظفين الذين كانوا يتهامسون فيما بينهم مظهرين الامتعاض والقلق .

اطلق الجنرال نفثة كثيفة من دخان التبغ مع زفير عميق ، وقال :

— ولكننى ، يا سادة ، لا اجرؤ على ان آخذ على عاتقى مسؤولية عظيمة حتى يكون الامر متعلقا بسلامة الاقاليم التى وضعتها مولاتى جلالة الامبراطورة الموقرة فى عهدتى . ولهذا فسآخذ بغالبية الآراء التى اقرت بأن اصوب وآمن طريق هو التحصن داخل المدينة فى انتظار الحصار ، وصد العدو بقوة المدفعية و(فى حالة الامكان) باشتباكات محدودة ايضا .

نظر الموظفون الىّ بدورهم نظرات ساخرة . وانفض المجلس . ولم استطع ان امنع نفسى من الاسف على ضعف هذا المحارب المحترم الذى قرر خلافا لاقتناعه الشخصى ان يأخذ برأى اناس جهلة غير مجربين .

بعد انقضاء عدة ايام على هذا المجلس المشهود عرفنا ان بوغاتشوف قد اقترب من اورنبورغ بارا بوعده . شاهدت قوة المتمردين من اعلى سور المدينة . وبدا لى ان عددهم قد ازداد عشر مرات منذ الغارة الاخيرة التى شهدتها . وكانت معهم المدفعية التى اخذها بوغاتشوف من القلاع الصغيرة التى احتلها . وطاف فى ذهنى قرار المجلس العسكرى فتنبأت بحصار طويل الاجل داخل اسوار اورنبورغ ، وكدت ابكى من الاسى .

لا اريد ان اصف حصار اورنبورغ فهو من اختصاص المؤرخ ، ولا يخص مذكرات عائلية . بل اقول باختصار ان هذا الحصار كان ، بسبب تراخى القيادة المحلية ، وبالا على الاهالى الذين عانوا الجوع ومختلف الويلات . فى وسع المرء ان يتصور بسهولة ان الحياة فى اورنبورغ كانت لا تطاق الى اقصى حد . فكان الجميع ينتظرون بجزع حكم القدر عليهم ، ويتوجعون من غلاء الاسعار الذى كان فظيعا فى الواقع . اعتاد الاهالى على القنابل المتطايرة الى افنية دورهم ، وحتى هجمات بوغاتشوف لم تعد تثير اهتمام العامة . ضجرت ضجرا قاتلا . ومضى الزمن . ولم اتلق رسائل من قلعة بيلوغورسك . فقد كانت جميع الطرق مقطوعة . ولم اعد احتمل الافتراق عن ماريا ايفانوفنا . وعذبنى جهلى بمصيرها . وكان ركوب الحصان سلوتى الوحيدة . فقد تكرم بوغاتشوف علىّ

بحصان جيد كنت اقاسمه طعامى الشحيح ، واخرج به كل يوم خارج المدينة اتبادل اطلاق الرصاص مع فرسان بوغاتشوف . وكانت الغلبة فى هذه المناوشات عادة من نصيب هؤلاء الاشرار الشباع ، السكارى ، الممتطين خيولا جيدة . وكانت فرقة الخيالة نصف الجائعة فى المدينة لا تستطيع التغلب عليهم . وكان مشاتنا الجائعون يخرجون فى بعض الاحيان الى الميدان ، الا ان الثلج العميق كان يعيق عملهم بنجاح ضد فرسان العدو المبعثرين . وكانت مدفعيتنا تهدر عبثا من فوق السور ، اما فى الحقل فقد كانت تتعصى ولا تستطيع حراكا بسبب هزال الخيول التى تجرها . تلك هى صورة عملياتنا الحربية ! وهذا ما سماه موظفو اورنبورغ بالحذر والتبصر !

ذات مرة افلحنا بطريقة ما فى تفريق ومطاردة حشد كثيف جدا ، والتقيت بقوزاقى تخلف عن زملائه ، وتهيأت لضربه بسيفى التركى ، واذا به يخلع قبعته فجاة ، ويهتف :

– مرحبا ، يا بيتر اندريفيتش ! كيف انت ، حفظك الله ؟

نظرت اليه فعرفت انه ضابط صفنا . سررت به سرورا بالغا . قلت له :

– مرحبا ، يا مكسيميتش . هل مضى وقت طويل على خروجك من قلعة بيلوغورسك ؟

– لا ، يا سيد بيتر اندريفيتش . بالامس فقط . وانا احمل لك رسالة .

هتفت وقد تأجج كيانى كله انفعالا :

– اين هى ؟
اجاب مكسيميتش واضعا يده على صدره :
– معى . وعدت بالاشا ان اوصلها اليك بطريقة ما .

وقدم لى ورقة مطوية . وولى مخبا على فرسه فى الحال . بسطت الورقة ، وقرات السطور التالية بلهفة :

«قضى الله ان افقد ابى وامى فجاة . وليس لى فى الدنيا لا اقارب ، ولا حام . وانا الجا اليك عارفة بأنك كنت دائما ترجو لى الخير ، وبأنك مستعد لاعانة كل انسان . ادعو الله ان تصلك هذه الرسالة بطريقة ما ! فقد وعد مكسيميتش بان يوصلها لك . سمعت بالاشا من مكسيميتش ايضا انه كثيرا ما يراك من بعيد فى المناوشات ، وانك لا تحافظ على نفسك ، ولا تفكر بالذين يدعون الرب لحفظك والدموع فى عيونهم . لزمت فراش المرض طويلا ، وعندما تماثلت الى الشفاء اجبر الكسى ايفانوفيتش الذى احتل مكان ابى فى آمرية القلعة الاب غيراسيم على ان يسلمنى له بعد ان هدده ببوغاتشوف . وانا الآن اعيش فى بيتنا تحت الحراسة . والكسى ايفانوفيتش يلح علىّ بالزواج منه . ويقول انه انقذ حياتى لانه لم يكشف عن خداع اوكولينا بامفيلوفنا التى زعمت للاشرار بأننى ابنة اخيها . اما انا فالموت اخف علىّ من ان اكون زوجة لرجل من مثل الكسى ايفانوفيتش . انه يعاملنى معاملة قاسية جدا ، ويتوعدنى بارسالى الى معسكر الدعى اذا لم اغير فكرى ، واوافق . وعندئذ سيكون مصيرى مثل مصير

ليزافيتا خارلوفا المخطوفة . رجوت الكسى ايفانوفيتش ان يمهلنى لافكر فى الامر . فوافق على ان ينتظر ثلاثة ايام اخرى ، واذا لم اتزوجه بعدها فلن يراف بى . عزيزى بيتر اندريفيتش ! انت الحامى الوحيد لى ، فدافع عنى ، انا المسكينة . اطلب الى الجنرال وجميع امراء الوحدات بأن يرسلوا لنا نجدة فى اقرب وقت ممكن ، وتعال انت ايضا ، اذا امكنك ذلك . وساظل مطيعة لك . اليتيمة المسكينة

ماريا ميرونوفا» .

كدت افقد صوابى حين فرغت من قراءة الرسالة . انطلقت فى المدينة هامزا جوادى المسكين بلا رافة . وفى الطريق قلبت فى ذهنى مختلف الافكار لانقاذ الفتاة المسكينة . ولم استقر على واحدة . فى المدينة توجهت راسا الى بيت الجنرال ، ودخلت عليه راكضا .

كان الجنرال يذرع الغرفة جيئة وذهوبا مدخنا غليونه المصنوع من معدن خاص . وحين رآنى توقف . والراجح ان منظرى قد اذهله فأستفسر باهتمام عن سبب قدومى العجول هذا . قلت له :

– يا صاحب الفخامة ، الجأ اليك كما يلجأ الابن الى والده . بحق الرب لا ترفض رجائى : فان الامر يتعلق بسعادة حياتى كلها .

سأل العجوز مندهشا :

– ما هو الامر ، يا بنى ؟ ماذا فى وسعى ان افعل لك ؟ تكلم .

– يا صاحب الفخامة ضعنى على راس سرية من

الجنود وخمسين من القوزاق ، واتركنى احرر قلعة بيلوغورسك .

حدق الجنرال فى متفرسا ، ظانا ، فى الغالب ، اننى قد جننت (وهو كان فى ذلك مجانبا للصواب تقريبا) .

قال الجنرال اخيرا :

– كيف هذا ؟ تحرر قلعة بيلوغورسك ؟

اجبت بحماس :

– اتعهد لك بأن انجح شرط ان تأذن لى .

قال الجنرال هازا رأسه :

– لا ، ايها الشاب . على هذه المسافة الطويلة يستطيع العدو بسهولة ان يقطع عليكم الاتصال بالنقطة الاستراتيجية الرئيسية ، وينتصر عليكم انتصارا تاما . والاتصال المقطوع . . .

وفزعت وانا اراه منجذبا فى مناقشات عسكرية ، فاسرعت اقاطعه قائلا :

– ابنة الآمر ميرونوف كتبت لى رسالة تطلب فيها النجدة . شفابرين يجبرها على الزواج منه .

– حقا ؟ اوه ، ان شفابرين هذا Schelm * كبير ، اذا وقع فى قبضتى امرت بمحاكمته خلال اربع وعشرين ساعة ، وسنعدمه رميا بالرصاص على سور القلعة ! ولكن ينبغى التزام الصبر الآن . . .

صحت خارجا عن اطوارى :

– التزام الصبر ! وهو خلال ذلك يتزوج ماريا ايفانوفنا ! . .

* محتال . (بالالمانية .)

فرد الجنرال :

– اوه ! ليست هذه بلية . الافضل لها فى الوقت الحاضر ان تكون زوجة شفابرين . فقد يكون حاميا لها ، وعندما نعدمه ستجد لها خطابا كثيرين بحمد الله . فان الارامل الحلوات لا يبقين بلا ازواج ، اى اريد ان اقول ان الارملة تلقى زوجا اسرع من الفتاة .

قلت فى جنون :

– افضل الموت على ان اتركها لشفابرين !

قال العجوز :

– با ، با ، با ، با ! الآن افهم . الظاهر انك تعشق ماريا ايفانوفنا . آوه ، هذا شىء آخر ! مسكين انت ! ومع ذلك لا استطيع ان اعطيك سرية من الجنود وخمسين قوزاقيا . فان هذه الحملة لن تكون معقولة . ولا استطيع ان اتحمل مسؤوليتها .

نكست راسى ، وتملكنى الياس . وفجاة خطرت فكرة فى راسى . والقارئ سيرى جوهر هذه الفكرة فى الفصل التالى ، على حد ما يقوله الروائيون القدامى .

الفصل الحادى عشر

قرية العصاة

عندئذ شبع الاسد ،
ورغم طبعه الضارى ،
سال برقة :
«لماذا اتيت فى عرينى ؟»
(ا. **سوماروكوف** * .)

تركت الجنرال واسرعت الى مسكنى . قابلنى سافيليتش بعتابه المعتاد «كأنك تجد لذة فى مصاولة اللصوص السكارى ! اهذا عمل السادة ؟ لعبة خطرة ستسلمك الى الهلاك بلا سبب . لو كنت تحارب الاتراك او السويديين فذلك شىء آخر ، اما هذا فلا اعرف ما هو» .

قطعت كلامه بسؤال : كم مجموع ما عندى من النقود ؟ اجاب بلهجة راضية مرضية : «ما فيه الكفاية . رغم ان اللصوص نبشوا كل شىء الا اننى استطعت ان اخفى شيئا» . وبهذه الكلمة اخرج من جيبه كيسا طويلا محاكا ، مملوءا بالنقود الفضية . قلت له :

* هذا الشعر من نظم بوشكين ، ولكنه نسبه الى سوماروكوف . (**الناشر** .)

«حسنا ، يا سافيليتش ، اعطنى الآن نصف ما عندك ، وخذ البقية لك . انا ذاهب الى قلعة بيلوغورسك» .

قال المربى الطيب مرتجف الصوت :

— يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! اتق الله ، كيف يمكنك السفر فى وقت يقطع فيه اللصوص كل الطرق ! اشفق على والديك على الاقل ، اذا كنت لا تشفق على نفسك . ما حاجتك الى السفر ؟ ولماذا ؟ انتظر قليلا ، فستاتى القوات ، وتقتنص اللصوص ، وعندئذ اذهب الى حيث تشاء من الجهات الاربع .

الا اننى عزمت عزمى القاطع . رددت على العجوز :

— جدالك فات اوانه . يجب ان اسافر ، ولا استطيع الا ان اسافر . فلا تأس ، يا سافيليتش ، فالله رحيم ، ومن الممكن ان نلتقى . فلا تخجل ، ولا تبخل على نفسك . اشتر ما تحتاج اليه ، ولو بثلاثة اضعاف . فانا اهبك هذه النقود . واذا لم اعد خلال ثلاثة ايام . . .

قاطعنى سافيليتش :

— ما هذا ، يا سيد ؟ اسمح لك بالسفر وحدك ! لا تطلب ذلك حتى فى الحلم . اذا كنت قد عزمت على السفر ، فانا ذاهب وراءك ولو مشيا ، ولكن لن اتركك . لن ابقى بدونك وراء سور حجرى ! وهل فقدت عقلى لافعل ذلك ؟ كما تريد ، يا سيد ، ولكن لن اتخلى عنك .

وعرفت ان الجدل مع سافيليتش لا يجدى نفعا . فسمحت له بالتهيؤ للسفر . وبعد نصف ساعة جلست على جوادى النجيب ، بينما امتطى سافيليتش كديشا

نحيفا اعرج اعطاه احد اهالى المدينة بلا ثمن ، وقد اعوزه المال لاطعامه . ذهبنا الى بوابة المدينة ، وسمح لنا الحرس بالسفر ، فخرجنا من اورنبورغ .

بدأ الظلام يهبط . كان طريقى يمتد على مقربة من قرية بيردسك ، مأوى انصار بوغاتشوف . كان الثلج قد ازال معالم هذا الطريق المستقيم ولكن آثار سنابك الخيل كانت ترى فى السهب كله متجددة كل يوم . وكنت انطلق عدوا ، وكان سافيليتش ورائى لا يكاد يلحق بى ، هاتفا بين آونة واخرى : «اقلل السير ، يا سيد ، بحق الرب . كديشى اللعين لا يستطيع ان يلحق بشيطانك الطويل القوائم . ما هذه العجالة ؟ لسنا ذاهبين الى وليمة ، وقد تنتظرنا فأس . . . بيتر اندريفيتش . . عزيزى بيتر اندريفيتش ! لا تدعنى اموت من القلق ! يا رب القدرة ، سيهلـــك ابن الاسياد !»

وبعد قليل لمعت اضواء بيردسك . اقتربنا من الوهاد التى هى بمثابة تحصينات طبيعية لهذه القرية . ولم يتأخر سافيليتش عنى ، مستمرا بتوسلاتـــه المتشكية . كنت آمل ان اتخطى القرية بسلامة ، واذا بى ارى امامى فى الظلمة زهاء خمسة فلاحين مسلحين بالهروات . كان هؤلاء الحراس الاماميين لهذه القرية البوغاتشوفية . صاحوا بنا . كنت لا اعرف كلمة السر فأردت ان امر بهم صامتا . الا انهم احاطوا بى فى الحال ، وقبض احدهـــم على لجام فرسى . امتشقت الحسام ، وهويت به على رأس الرجل ، الا ان القبعة انقذته . ومع ذلك فقد ترنح ، واطلق اللجام من يده .

واضطرب الآخرون ، وتشتتوا . انتهزت هذه اللحظة ، وهمزت جوادى ، وعدوت مرقلا .

كان من الممكن ان ينجينى جنح الليل المقترب ، الا اننى التفت فجأة ، فلم ار سافيليتش ورائى . ان العجوز المسكين لم يستطع ان يهرب من اللصوص بكديشه الاعرج . فماذا افعل ؟ انتظرته بضع دقائق ثم تأكدت بأنهم قد قبضوا عليه . استدرت بحصانى ، وسرت لانقاذه .

حين وصلت الى الوهدة سمعت ضجيجا وصوت صاحبى سافيليتش . اسرعت فى السير ، وما هى الا لحظة حتى رأيت نفسى من جديد بين الفلاحين الحراس الذين اوقفونى قبل دقائق . وكان سافيليتش بينهم . كانوا يجرون العجوز من فوق كديشه ، ويتهيأون لشد وثاقه . سرهـــم مقدمى . فاندفعوا نحوى مرسلين الصيحات ، وبلمحة عين انزلونى من الحصان . واعلن احدهم لنا ، وهو كبيرهم على ما يبدو ، بأنه سيقودنا الى القيصر فى الحال . واضاف : «مولانا حر فى ان يأمر بشنقكم الآن ، ام الانتظار حتى بزوغ الفجر» . لم اقاوم . وحذا سافيليتش حذوى ، وساقنا الحراس فى موكب ظافر .

سرنا عبر الوهدة ، ودخلنا القرية . كانت الانوار قد اضيئت فى كل البيوت ، والضجيج والصيحات تأتى من كل مكان . رأيت فى الشارع عددا كبيرا مـــن الناس ، الا ان احدا لم يلحظنا بسبب الظلام ، ولم يعرف بأننى ضابط من اورنبورغ . قادونا رأسا الى بيت يقع فى زاوية عند مفترق طريق ، وضعت قرب بابه

بضعة براميل من الخمر ، ومدفعان . قال احد الفلاحين : «هذا هو القصر . سيبلغ عنكما حالا» . ودخل البيت . القيت نظرة على سافيليتش . كان هذا العجوز يرسم علامة الصليب ، ويتلو دعاء فى سره . انتظرت طويلا حتى عاد الفلاح اخيرا ، وقال لى : «ادخل . مولانا امر بادخال الضابط» .

دخلت البيت ، او القصر ، كما سماه الفلاحون . كان مضاء بشمعتين من الشحم ، وجدرانه مغطاة بورق مذهب ، بينما كان كل شىء فيه مثلما هو فى اى بيت اعتيادى : المصاطب ، والمنضدة ، ومغسلة الايدى على حبل ، والفوطة معلقة بمسمار ، ومقبض الاوانى فى ركن ، وخشبة طويلة صفت عليها القدور . كان بوغاتشوف جالسا تحت الايقونات ، فى قفطان احمر ، وقبعة عالية ، متخوصرا بعظمة . وقد وقف بالقرب منه عدد من كبار رفاقه ، يلوح عليهم خضوع زائف . كان يبدو ان نبأ قدوم ضابط من اورنبورغ قد اثار فضول المتمردين الشديد ، فاستعدوا للقائى باحتفال . عرفنى بوغاتشوف من النظرة الاولى . فاذا بعظمته الزائفة تختفى فجأة ، ويقول بادى الحيوية : «آ ، سيادتك ! كيف حالك ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟» اجبت بأننى كنت خارجا فى شأن من شؤونى ، وان رجاله قد اوقفونى . فسألنى : «فى اى شأن ؟» لم اعرف بماذا اجيبه . فظن بوغاتشوف باننى لا اريد ان اوضح له فى حضور شهود ، فالتفت الى رفاقه ، وامرهم بالخروج . اطاعه الجميع الا اثنين لم يتحركا من مكانيهما . قال بوغاتشوف : «خبرنى بحضورهما ولا

تخف ، فانا لا اخفى عنهما شيئا» . حدجت كاتمى اسرار الدعى بنظرة جانبية . كان احدهما ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، واهن البنيان ، مقوس الظهر ، اشيب اللحية ، لا يلفت النظر الا بشريط ازرق ملقى عبر كتفه على سترة رمادية . ولكن لن انسى رفيقه طوال عمرى . كان فارع الطول ، جسيما ، عريض المنكبين ، بدا لى فى نحو الخامسة والاربعين . كانت له لحية كثة صهباء ، وعيناه رماديتان براقتان ، وانف بلا منخرين ، وبقع محمرة منتشرة على جبينه وخديه ، وكل ذلك اضفى على وجهه المجدور العريض تعبيرا لا يوصف . كان يرتدى قميصا احمر ، ورداء قيرغيزيا ، وسروالا قوزاقيا . كان الاول (كما عرفت فيما بعد) هو العريف بيلوبرودوف ، والثانى افاناسى سوكولوف (الملقب بخلوبوشا) مجرم منفى هرب ثلاث مرات من مناجم سيبيريا . ان هذا المجمع الذى وجدت نفسى فيه مصادفة قد اسر انتباهى بقوة ، رغم المشاعر الحادة المعتملة فى داخلى . الا ان بوغاتشوف اعادنى الى الواقع بسؤاله : «قل لى فى اى شأن خرجت من اورنبورغ ؟»

طرأت فكرة غريبة فى رأسى ، فخيل الىّ ان العناية الآلهية التى قادتنى ثانية الى بوغاتشوف اتاحت لى فرصة تحقيق مبتغاى . فقررت ان اغتنمها . اجبت عن سؤال بوغاتشوف قبل ان يتسنى لى التروى فيما عزمت عليه :

— خرجت الى قلعة بيلوغورسك لانقذ يتيمة تتعرض للاهانة هناك .

برقت عينا بوغاتشوف . فصاح : «من يجرؤ من

رجالى على اهانة يتيمة ؟ لن يفلت من محاكمتى ، مهما بلغ من النباهة . قل لى : من المذنب ؟»

اجبت :

– شفابرين المذنب . انه يحتجز تلك الفتاة التى رأيتها طريحة الفراش عند زوجة القس ، ويريد ان يتزوجها بالاكراه .

قال بوغاتشوف متوعدا :

– سألقى درسا قاسيا على شفابرين هذا . ساريه كيف يعاقب من يتحكم بالناس ويهينهم . سأشنقه .

قال خلوبوشا بصوت اجش :

– اسمح لى بكلمة . انك تسرعت فى تعيين شفابرين آمرا للقلعة ، اما الآن فانت تتسرع فى شنقه . لقد اهنت القوزاق بتنصيب رجل من الاعيان رئيسا عليهم ، فلا تسخط الاعيان بشنق احدهم من اول وشاية به .

قال العجوز ذو الشريط الازرق :

– لا حاجة الى الاشفاق عليهم او الى مجاملتهم ! وليس شنق شفابرين بمصيبة كبرى ، ولكن لا ضير فى استجواب حضرة الضابط استجوابا جيدا : لماذا جاء . فاذا كان لا يعترف بك قيصرا ، فلا حق له فى ان يسألك رفع ضيم ، اما اذا كان يعترف فلماذا هو باق فى اورنبورغ حتى اليوم مع خصومك ؟ هلا امرت بارساله الى مركز الادارة وتعذيبه . يبدو لى انه مرسل الينا من امراء اورنبورغ .

بدا لى منطق الشرير العجوز مقنعا جدا . سرت القشعريرة فى جسدى حين فكرت بهؤلاء الذين وقعت

فى قبضتهم . لاحظ بوغاتشوف اضطرابى . قال لى غامزا : «صحيح ، يا صاحب السيادة ؟ يبدو لى ان فيلدمارشالى على حق فيما يقول . فما رأيك ؟»

اعادت سخرية بوغاتشوف الشجاعة الى نفسى . اجبت هادئا بأننى تحت سلطانه ، وانه حر فى ان يفعل بى ما يشاء .

قال بوغاتشوف :

– حسنا . والآن قل لى : ما هى حالة مدينتكم ؟

اجبت :

– فى خير ، والحمد لله .

كرر بوغاتشوف كلمتى :

– فى خير ؟ بينما الناس يموتون جوعا !

كان الدعى يقول الحقيقة ، ولكننى اخذت اؤكد له ، التزاما بيمينى العسكرية ، بان كل ذلك شائعات فارغة ، وان فى اورنبورغ الكفاية من المؤن المختلفة .

فابتدر العجوز قائلا :

– ها انت تراه يخدعك فى وجهك . ان جميع اللاجئين يجمعون على تفشى المجاعة والوباء فى اورنبورغ ، وان الناس يأكلون البهائم الميتة ، وهم فى ذلك محظوظون ، بينما يؤكد لك سيادته ان هناك الكفاية من كل شىء . فاذا كنت تريد ان تشنق شفابرين فاشنق هذا الشاب على نفس المشنقة ، فلا يشمت احد بالآخر .

وبدا ان كلمات هذا العجوز الملعون قد فعلت فعلها فى بوغاتشوف . ومن حسن الحظ ان خلوبوشا اخذ يعترض على كلام رفيقه وقال له :

– كفى ، يا ناؤميتش . انت لا تحب الا الخنق والشنق . اى جبار انت ؟ لا احد يعرف ، حين ينظر اليك ، كيف انت باق على قيد الحياة . انت نفسك على حافة القبر ، بينما تقتل الآخرين . وهل الدماء التى فى ذمتك قليلة ؟

اعترض بيلوبرودوف :

– اى ملاك رحيم انت ؟ من اين جاءتك هذه الشفقة ؟

اجاب خلوبوشا :

– انا ايضا آثم بالطبع ، وهذه اليد (وهنا شد قبضته العظيمة ، ورفع كمه ، وكشف عن ذراع مشعرة) هذه اليد قد ارتكبت سفك دماء المسيحيين . ولكننى لم اقتل ضيوفا ، بل خصوما وهم فى ملتقى الطرق الرحب ، وفى الغابة المظلمة ، لا فى البيت جلوسا وراء الموقد ، وقد قتلتهم بالهراوة ، وظهر الفأس لا بوشاية النسوان .

اعرض العجوز ، وتمتم : «ابو الانف المجدوع !» . . .

صاح خلوبوشا :

– ما الذى تتمتم به ، ايها المتذمر العجوز ؟ سأريك ماذا يعنى «ابو الانف المجدوع» . انتظر ، وسيأتى وقتك ، ان شاء الله ، وستجرب المصيبة على جلدك . . . والآن احذر ان انتف لحيتك !

هتف بوغاتشوف بعظمة :

– يا حضرات الجنرالات ! كفى مشاجرة ! ليس من المصيبة ان تعلق كلاب اورنبورغ كلها فى مشنقة

واحدة . بل المصيبة ان تتعاضض كلابنا فيما بينها . هيا ، تصالحا .

لم ينطق خلوبوشا ولا بيلوبرودوف بكلمة واحدة ، ونظر احدهما الى الآخر بعبوس . فوجدت من الضرورى تحويل الحديث الذى كان من الممكن ان ينتهى بالنسبة لى نهاية ليست فى صالحى تماما ، فالتفت الى بوغاتشوف وقلت له مرحا : «آه ! كدت انسى ان اشكرك على جوادك والمعطف . لولاك لما وصلت الى المدينة ، ولتجمدت فى الطريق» .

نجحت حيلتى . انشرحت اسارير بوغاتشوف وقال غامزا مقلصا عينيه : «دين الحر مردود . والآن قل لى ما شأنك بتلك الفتاة التى يسيئ لها شفابرين ؟ اليست هى حبيبة قلب الفتى المتيم ؟ ها ؟» .

– انها خطيبتى .

اجبت بوغاتشوف بذلك ، وقد رأيت الجو يتغير لصالحى ، ولم اجد ضرورة لاخفاء الحقيقة . صاح بوغاتشوف :

– خطيبتك ؟ ولماذا لم تقل من قبل ؟ سنزوجك اذن ، ونحتفل بزفافك – ثم تحول الى بيلوبرودوف ، وقال – اسمع ، يا فيلدمارشال ! انا وسيادته صديقان قديمان . لنجلس ونتعش . والصباح احكم من المساء . غدا سنرى ماذا نفعل به .

وددت لو ارفض هذا الشرف ، ولكن لم يكن منه بد . غطت فتاتان قوزاقيتان ، هما ابنتا صاحب البيت ، المائدة بمفرش ابيض ، وجلبتا الخبز ، وحساء السمك ، وبعض قارورات النبيذ والجعة ، ووجدت نفسى مرة

ثانية على مائدة واحدة مع بوغاتشوف ورفاقه الرهيبين .

استمرت الوليمة ، التى اشتركت فيها مضطرا ، الى هزيع متأخر من الليل . واخيرا اخذ السكر يتمتع الندماء . هوّم بوغاتشوف ، وهو جالس فى مكانه . نهض رفاقه ، وافهمونى بالاشارة ان اتركه . خرجت معهم . وبأمر من خلوبوشا قادنى الحارس الى مركز الادارة ، حيث وجدت سافيليتش هنـــاك ، وحيث حجزونى معه وراء الاقفال . كان المربى مذهولا جدا من كل ما حدث ، فلم يطرح على اى سؤال . استلقى فى الظلام وتحسر وتأوه وقتا طويلا حتى شخر اخيرا . بينما استسلمت انا للتأملات ، التى لم تدعنى اغفو طوال الليل .

فى الصباح جاءوا فى طلبى باسم بوغاتشوف . فذهبت اليه . فرايت عربته تقف عند الباب وقد شدت اليها ثلاثة خيول تترية . وكان الناس يتجمهرون فى الشارع . قابلت بوغاتشوف فى الرواق . كان يرتدى ثياب السفر : فروة وقبعة قيرغيزية . وكان ندماء البارحة يحيطون به ، متخذين مظهر الخضوع الذى كان يناقض بشدة كل ما شهدته البارحة . حيانى بوغاتشوف بمرح ، وامرنى بأن اجلس معه فى العربة .

جلسنا . قال بوغاتشوف للتترى العريض الكتفين الذى كان يسوق الخيول واقفـــا : «الى قلعـــة بيلوغورسك !» خفق قلبى بشدة . تحركت الخيول ، رن الجرس ، وانطلقت العربة . . .

ارتفع صوت مألوف لى : «قف ! قف !» ورأيـــت سافيليتش يركض للقائنا . امر بوغاتشوف بالتوقف .

هتف المربى : «عزيزى ، بيتر اندريفيتش ! لا تتركنى فى شيخوختى بين هؤلاء المحتـ . . .» . قال بوغاتشوف له : «اهذا انت ، ايها المتذمـــر العجوز ! مرة اخرى يكتب الله لى ان اراك . حسنا ، اجلس مع السائق» .

قال سافيليتش وهو يتخذ مجلسه :

— شكرا ، يا قيصر ، شكرا يا مولاى ! جعلك الله تعيش مائة عام فى عافية ، جزاء على اعتنائك بى وتطمينك لى ، انا العجوز . سادعو الله لك طوال عمرى ، ولن اذكر بعد الآن المعطف من فراء الارنب .

كان ذكر معطف فراء الارنب هذا يمكن ان يغضب بوغاتشوف فى هذه المرة بصورة جدية . الا ان الدعى ، من حسن الحظ ، اما لم يسمع جيدا ، واما اهمل هذا التلميـــح النابى . انطلقت الخيول ، وكان الناس يتوقفون فى الشارع ، وينحنون الى وسطهـــم . وكان بوغاتشوف يحنى رأسه يمينا ويسارا . وبعد دقيقة خرجنا من القرية ، وانطلقنا فى طريق ممهد .

من السهل ان يتصور المرء احساسى فى تلـــك البرهة . بعد بضع ساعات سألتقى بتلك التى اعتبرتها مفقودة بالنسبة لى . وتخيلت لحظة التقائنا . . . كما فكرت بالرجل الذى كان يمسك مصيرى فى يده ، والذى صرت مرتبطا به ارتباطا غامضا بسبب تشابك الظروف العجيبـــة . وتذكرت القســـوة المتهورة ، والعادات المتعطشة للدم التى اعتادها هذا الذى ندب ليكون منقذ حبيبتى ! لم يكن بوغاتشوف يعرف انها كانت ابنـــة الآمر ميرونوف . كان فى وسع شفابرين فى ساعـــة الغيظ ان يكشف كل شىء . وكان من الممكن ان يعرف

بوغاتشوف الحقيقة بطريقة اخرى . . . عندئـــذ ماذا سيحدث لماريا ايفانوفنا ؟ سرت البرودة فى جسدى ، ووقف شعر رأسى . . .

وفجأة قطع بوغاتشوف تأملاتى حين توجـــه الى بسؤال :

— عم تفكر ، يا صاحب السيادة ؟

اجبت :

— وكيف لا افكـر ؟ انا ضابط ، ومن الاعيان . وبالامس فقط كنت احارب ضدك ، اما اليوم فأركب معك عربة واحدة ، وسعادة حياتى برمتها متوقفـــة عليك .

سأل بوغاتشوف :

— وهل يخيفك ذلك ؟

اجبت بأننى ، وقد عفا عنى ذات مرة ، آمل لا فى رحمته فقط ، بل وفى مساعدته ايضا .

اجاب الدعى :

— انت على حق ، والله ، على حق ! لقد رايت رجالى ينظرون اليك شزرا ، والعجوز اصر اليوم ايضا على انك جاسوس ، يجب ان تعذب وتشنق . الا اننى لم اوافق . — واضاف ، وقد خفض صوته لكيـــلا يسمعه سافيليتش والتترى : — لاننى اذكر قدح الخمر الذى قدمته لى والمعطف من فراء الارنب . وها انـت ترى اننى لست سفاحا كما يتصور اخوانك .

تذكرت الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، ولكن لم ار ضرورة لمناقشته ، ولم اجب بأية كلمة .

سأل بوغاتشوف بعد ان صمت قليلا :

— ماذا يقولون عنى فى اورنبورغ ؟

— يقولون ان التغلب عليك ليس بالامر السهل . والحق يقال ان صيتك قد ذاع .

وارضى غرور الدعى . وظهر ذلك على وجهه . فقال بادى المرح :

— نعم ! انا احسن القتال . هل يعرف الناس عندكم فى اورنبورغ المعركة قرب قلعة يوزييفايا ؟ قتلنـــا اربعين جنرالا ، واسرنا اربعة جيوش . ما رأيك ، فهل استطاع ملك بروسيا ان يصاولنى ؟

وبدا لى تباهى قاطع الطريق فكاهة . قلت له :

— وانت ما رأيك ؟ هل تستطيع التغلب عـــلى فريدريك ؟ *

— على فيودور فيودوروفيتش ** ؟ وكيف لا ؟ فانا اتغلب على جنرالاتكم ، بينما هم قد تغلبوا عليه . انا سعيد الحظ مع سلاحى حتى الآن . انتظر قليـــلا ، وسأقوم باعمال جبارة حين ازحف على موسكو .

— وهل تريد الزحف على موسكو ؟

فكر الدعى قليلا ثم قال بصوت خافض :

— الله يعلم . طريقى ضيق والحرية قليلة . ورجالى يتحذلقون . انهم لصوص . ويجـب ان التزم جانب الحذر ، فانهم لدى اول هزيمة سيبيعون رأسى مقابل نجاتهم .

---

* الملك البروسى فريدريك الثانى ، ابن فريدريك ولهيلم . (**الناشر** .)

** غير بوغاتشوف اسم الملك البروسى فريدريك الثانى على الصيغة الروسية بالتسمية سخرية به . (**الناشر** .)

قلت لبوغاتشوف :

– حقا ! اليس من الافضل لك ان تنصرف عنهم بنفسك فى الوقت المناسب وتلتمس عفو القيصرة ؟

ابتسم بوغاتشوف بمرارة . وقال :

– لا . فات اوان الندم . لن يعفى عنى . وسأستمر كما بدأت . ومن يدرى ؟ قد انجح ! فقد حكم غريشكا اتريبيف موسكو .

– ولكنك تعرف بم انتهى ؟ رموه من النافذة ، ومزقوه ، واحرقوه وعبأوا برماده احد المدافع ، واطلقوه !

قال بوغاتشوف بالهام وحشى :

– اسمع ! سأقص عليك حكاية روتها لى كالميكية عجوز وانا صبى . ذات مرة سأل نسر غرابا : قل لى ، ايها الغراب ، لماذا تعيش انت فى الدنيا ثلثمائة عام ، بينما لا اعيش انا غير ثلاثة وثلاثين عاما ؟ اجابه الغراب : لانك يا صاحبى ، تشرب الدم الحى ، بينما انا آكل الفطيسة . فكر النسر ثم قال : يجب ان احاول اكل نفس الطعام . حسنا . وطار النسر والغراب . ورأيا حصانا فاطسا . فهبطا وحطا . اخذ الغراب ينقر ، وتلذذ ، بينما نقر النسر مرة واخرى ، ورف بجناحيه ، وقال للغراب : لا ، يا عزيزى الغراب ، ان اشرب مرة دما حيا خير من ان اتغذى ثلاثمائة عام على الميتة ، والغيب عند ربى ! فما رأيك بهذه الحكاية الكالميكية ؟

اجبته :

– طريفة . ولكن العيش بالقتل والنهب هو فى رايي مثل العيش على الميتة .

نظر بوغاتشوف الى بدهشة ، ولم يجب بشىء . وصمت كلانا غارقا فى افكاره . اخذ التترى ينشد اغنية حزينة ، وكان سافيليتش يهتز على مقعد الحوذى مهوّما . انطلقت العربة فى الطريق الشتائية الملساء . . . وفجأة رأيت قرية صغيرة على الشاطىء المرتفع لنهر يايك ، بسياجها وبرج جرسها . وبعد ربع ساعة دخلنا قلعة بيلوغورسك .

الفصل الثانى عشر

اليتيمة

مثل شجرة التفاح عندنا
لا راس لها ولا فروع ؛
ومثل اميرتنا الصغيرة
لا اب لها ولا ام .
ولا احد يعتنى بها
ولا احد يباركها .
اغنية اعراس .

وصلت العربة الى مدخل بيت الآمر . عرف الناس جرس عربة بوغاتشوف ، فركضوا وراءها . استقبل شفابرين الدعى عند المدخل . كان يرتدى لباسا قوزاقيا ، وقد ارسل لحيته . اخذ الخائن يساعد بوغاتشوف فى الخروج من العربة ، معلنا بعبارات متذللة عن فرحه وحماسه . واضطرب حين رآنى ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، ومد يده الىّ قائلا : «انضممت الينا ؟ كان عليك ان تفعل ذلك من زمان !» اعرضت عنه ، ولم اقل شيئا .

توجع قلبى حين رأيت نفسى فى الغرفة المألوفة الى من زمان ، حيث ما تزال شهادة المرحوم الآمر معلقة فى

مكانها على الحائط ، وكأنها تذكار من الماضى . جلس بوغاتشوف على الاريكة التى كان يهوم عليها ايفان كوزميتش من قبل ، تهدهده دمدمة زوجته . جلب شفابرين بنفسه الفودكا له . احتسى بوغاتشوف قدحا وقال له مشيرا الىّ : «قدم لصاحب السيادة ايضا» . تقدم شفابرين بصينيته ، الا اننى اعرضت عنه ثانية . كان يبدو فى غير اطواره . فقد حدس طبعا بفطنته الخاصة به ان بوغاتشوف لم يكن راضيا عنه . فجبن امامه ، وراح ينظر الىّ بتشكك . استفسر بوغاتشوف عن الوضع فى القلعة ، وعن الشائعات حول قوات العدو ، وما شابه ذلك . وفجأة سأل على غير انتظار :

— قل لى ، يا اخ ، من هذه الفتاة التى تسجنها عندك ؟ ارنى اياها .

ران على شفابرين شحوب الموتى . قال بصوت مرتجف :

— مولاى ، مولاى . انها ليست سجينة . . . بل مريضة . . . وهى راقدة فى الغرفة .

— دلنى اين هى .

قال الدعى ذلك ، ونهض من مكانه . وكان من المستحيل صده . قاده شفابرين الى ماريا ايفانوفنا . فتبعتهما .

توقف شفابرين على الدرج . وقال :

— مولاى ، لك الامر فى ان تطلب منى ما تشاء ، ولكن لا تسمح لغريب ان يدخل فى مخدع زوجتى .

سرت الرجفة فى اوصالى .

قلت لشفابرين ، وانا مستعد لتمزيقه :

— تزوجت !

قاطعنى بوغاتشوف قائلا :

— اسكــت ! هذا شيء يخصنى ، — ومضى يقول مخاطبا شفابرين : — اما انت فلا تتحذلق ولا تتحجج . فسواء كانت زوجتك ام لا فأنا حر فى ان ادخل عليها من اشاء . اتبعنى ، يا صاحب السيادة .

توقف شفابرين عند باب الغرفة مرة اخرى ، وقال بصوت متقطع :

— مولاى ، انبهك الى انها فى وهج الحمى ، وهى تهذى منذ ثلاثة ايام دون توقف .

قال بوغاتشوف :

افتح !

اخذ شفابرين يبحث فى جيوبه ، وقال انه لم يأخذ المفتاح معه . دفع بوغاتشوف الباب بقدمه ، فأفلت القفل ، وانفتح الباب . فدخلنا .

نظرت ، ودارت الدنيا فى عينى . كانت ماريا ايفانوفنا تجلس على الارض مرتدية ثوبا مقطعا من ثياب الفلاحات ، وقد شحبت ونحلت ، وتشعث شعرها . وكانت امامها جرة ماء مغطاة بقطعة من خبز . وحين راتنى جفلت وصرخت . ولا اتذكر الآن ماذا حدث لى آنذاك .

نظر بوغاتشوف الى شفابرين ، وقال بسخرية مريرة :

— عندك مستشفى ممتاز ، — ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا ، وقال : — قولى لى ، يا عزيزتى ، لماذا يعاقبك زوجك هذا العقاب ؟ ماذا اجرمت فى حقه ؟

قالت مكررة :

— زوجى ! ما هو بزوجى . ولن اكون له زوجة ابدا . فضلت الموت على ذلك ، سأموت اذا لم يخلصنى احد .

نظر بوغاتشوف الى شفابرين نظرة متوعدة ، وقال له :

— لقد تجاسرت على خدعى . اتعرف ايها العاطل ماذا تستحق ؟

ركع شفابرين على قدميه . . . وفى تلك اللحظة غطى الاحتقار على كل مشاعر الكره والحنق فى نفسى . نظرت بامتعاض الى هذا النبيل الذى يركع على قدمى قوزاقى متشرد . خفت حدة بوغاتشوف ، وقال لشفابرين :

— اسامحك فى هذه المرة . ولكن اعرف ان اول جرم ترتكبه ستعاقب عليه وعلى هذا ايضا .

ثم تحول الى ماريا ايفانوفنا ، وقال لها برقة :

— اخرجى ، ايتها الآنسة الجميلة . اهبك الحرية ؛ انا القيصر .

نظرت ماريا ايفانوفنا اليه نظرة سريعة ، وحدست ان الرجل الماثل امامها هو قاتل والديها . غطت وجهها بكلتا يديها ، ووقعت مغشيا عليها . اندفعت اليها ، ولكن فى تلك اللحظة اقتحمت صاحبتى القديمة بالاشا الغرفة بجراة شديدة ، واخذت ترعى سيدتها . خرج بوغاتشوف من الغرفة ، وذهبنا نحن الثلاثة الى غرفة الضيوف .

قال بوغاتشوف ضاحكا :

– ماذا تقول ، يا صاحب السيادة ؟ انقذنا الآنسة الجميلة ! فما رأيك فى ان نرسل فى طلب القس ، ونجعله يعقد قران ابنة اخى زوجته ؟ اظن اننى سأكون ابا للعريس ، وشفابرين شاهد الزواج . سنقوم بوليمة فى بحر من الخمر ، ونقفل الباب .

وهنا حدث ما كنت اخشاه . عندما سمع شفابرين اقتراح بوغاتشوف فقد السيطرة على نفسه . صاح بجنون :

– يا مولاى ! انا مذنب فى اننى كذبت عليك ، ولكن غرينيف ايضا يخدعك . ان هذه الفتاة ليست ابنة اخى زوجة القس ، بل هى ابنة ايفان ميرونوف الذى شنق عند الاستيلاء على هذه القلعة .

سدد بوغاتشوف الىّ عينيه الناريتين . وسأل متحيرا :

– ما يعنى هذا ؟

رددت بصلابة :

– قال شفابرين لك الحقيقة .

قال بوغاتشوف ، وقد اربد وجهه :

– انت لم تقل لى ذلك .

اجبته :

– احكم بنفسك : هل كان فى الامكان ان اعلن بحضور رجالك ان ابنة ميرونوف حية ؟ لو فعلت لقطعوها اربا اربا ، ولما انقذها شىء !

قال بوغاتشوف ضاحكا :

– هذا حق . ما كان رجالى السكيرون يرحمون الفتاة المسكينة . احسنت زوجة القس حين خدعتهم .

مضيت اقول حين رأيت مزاجه الرائق :

– اسمع ، لا اعرف كيف اناديك ولا اريد ان اعرف . . . ولكن الله يعرف اننى سعيد فى ان اضحى لك بحياتى جزاء ما فعلته لى . فقط لا تطالبنى بما يتنافى وشرفى وضميرى المسيحى . انت محسنى . فأكمل ما بدأته ، واطلقنى وهذه اليتيمة المسكينة نذهب الى حيث يشاء الله . وسنصلى لك كل يوم اينما كنت ومهما وقع لك ، داعين الرب لينقذ روحك الخاطئة . . .

كان يبدو ان قلب بوغاتشوف الصارم قد تأثر . قال : «ليكن ما تريد ! عقابى صارم وعفوى سموح . تلك هى سجيتى . خذ حسناءك ، واذهب بها الى حيث تشاء ، وليمنحكما الله الحب والرشد !»

وهنا تحول الى شفابرين ، وامره ان يحرر لى اذنا فى كل مراكز الحراسة والقلاع التابعة له . كان شفابرين المذلول كليا يقف كالمصعوق . خرج بوغاتشوف ليتفقد القلعة . وصحبه شفابرين . وبقيت انا بحجة الاستعداد للسفر .

ركضت الى غرفة ماريا ايفانوفنا . كان الباب مغلقا . طرقته . فسألت بالاشا : «من الطارق ؟» ذكرت اسمى . صدر صوت ماريا ايفانوفنا الحلو من وراء الباب : «انتظر ، يا بيتر اندريفيتش ، انا اغير ملابسى . اذهب الى اوكولينا بامفيلوفنا . وسأحضر الى هناك حالا» .

اطعت امرها ، وتوجهت الى بيت الاب غيراسيم . خرج القس وزوجته كلاهما مسرعين للقائى ، فقد ابلغهما سافيليتش بمجيئى . قالت زوجة القس :

«مرحبا . يا بيتر اندريفيتش . شاء الله ان نلتقى من جديد . كيف احوالك ؟ كنا نتذكرك كل يوم . اما ماريا ايفانوفنا ، عزيزتى ، فقد عانت الوان العذاب فى غيابك ! . ولكن قل لى ، يا بنى ، كيف تفاهمت مع بوغاتشوف ؟ كيف لم يفتك بك ؟ طيب ، شكرا لذلك الشرير ولو على ذلك» . فقاطعها القس : «كفى ، يا عجوز . لا تقولى كل ما تعرفين . الثرثرة تؤدى الى التهلكة . يا عزيزى ، بيتر اندريفيتش ! ادخل ، ارجوك . لم نرك منذ مدة طويلة» .

راحت زوجة القس تطعمنى ما رزق الله ، وهى لا تكف عن الحديث . وحكت لى كيف اجبرهما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا له ، وكيف بكت ماريا ايفانوفنا ، ولم ترد مفارقتهما ، وكيف كانت ماريا ايفانوفنا تراسلها باستمرار عن طريق بالاشا (الفتاة المتقحمة التى جعلت ضابط الصف نفسه يرقص على نايها) . وكيف نصحت ماريا ايفانوفنا بان تكتب لى رسالة ، الى غير ذلك . وبدورى رويت لها قصتى بايجاز . رسم القس وزوجته علامة الصليب ، حين سمعا ان بوغاتشوف على علم بخداعهما . قالت اكولينا بامفيلوفنا : «كان المسيح فى عوننا ! يا رب ، دع السحابة تمر ! اما الكسى ايفانوفيتش ، والحق يقال فانه انسان سافل !» وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا وعلى وجهها الشاحب ابتسامة . كانت قد خلعت ثوب الفلاحات ، وارتدت ، على عادتها ، لباسا بسيطا لطيفا .

امسكت يدها ، وبقيت طويلا لا انطق بكلمة .

صمتنا كلانا مما امتلأ به قلبانا . شعر مضيفانا بانصرافنا عنهما ، فتركانا . فبقينا وحيدين . نسينا كل شىء . وطفقنا نتحدث دون ان نشبع من الحديث . حدثتنى ماريا ايفانوفنا عن كل ما وقع منذ الاستيلاء على القلعة ، ووصفت لى كل فظاعة وضعها ، وكل المحن التى ذاقتها على يد شفابرين المقيت . كما تذكرنا الماضى السعيد . . . وبكينا كلانا . . . واخيرا اخذت اوضح لها آرائى . كان من المستحيل تركها فى قلعة يسيطر عليها بوغاتشوف ، ويدير شؤونها شفابرين . كما لا يجوز التفكير فى اورنبورغ التى كانت تعانى كل ويلات الحصار . ولم يكن لها فى الدنيا قريب تأوى اليه . فعرضت عليها السفر الى ضيعة والدى . ترددت فى البداية . فقد كان يفزعها ما تعرفه من عدم ميل ابى اليها . هدأتها . فقد كنت اعرف ان ابى سيعتبر شرفا له ولزاما عليه ان يأوى ابنة محارب قدير سقط فى سبيل الوطن . وقلت لها اخيرا : «يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا ! انا اعتبرك زوجتى . ان ظروفا مدهشة قد جمعتنا جمعا لا انفصام له : ولا شىء فى الدنيا قادر على تفريقنا» . اصغت ماريا ايفانوفنا الىّ ببساطة ، وبدون خجل مصطنع ، ولا تمنعات زائفة . لقد شعرت بأن مصيرها قد ارتبط بمصيرى . الا انها ظلت تكرر انها لن تكون زوجتى بدون موافقة والدى . فلم اعارضها فى ذلك . وتعانقنا مقبلين احدنا الآخر بحرارة واخلاص ، وعلى هذا النحو تقرر كل شىء بيننا .

بعد ساعة احضر ضابط الصف اذن المرور لى موقعا بخربشة بوغاتشوف ، ودعانى اليه باسمه . وقد

رأيته متهيئا للسفر . لا استطيع ان اوضح ما شعرت به ، وانا افارق هذا الرجل الفظيع الغول والشرير للناس جميعا ما عداى . ولماذا لا اقول الحقيقة ؟ فى تلك اللحظة تملكنى تعاطف شديد نحوه . كنت اود بحرارة ان انتزعه من بين الاشرار الذين كان يترأسهم ، وانقذ رأسه ما دام الاوان لم يفت . منعنى شفابرين والناس المحتشدون بالقرب منا من ان افضى له بما يطفح به قلبى .

افترقنا بمودة . وحين وقع بصر بوغاتشوف على اكولينا بامفيلوفنا بين الحشد هز لها اصبع الوعيد ، وغمز لها غمزة ذات معنى ، ثم جلس فى العربة ، واوعز بالتوجه الى بيردا . وحين تحركت الخيول اخرج راسه من العربة مرة اخرى ، وصاح بى : «وداعا ، يا صاحب السيادة ! يمكن ان نلتقى يوما ما» . وقد التقينا بالفعل ، ولكن فى اية ظروف ! . .

رحل بوغاتشوف . وبقيت وقتا طويلا اتامل السهب الابيض الذى سارت عليه عربته . تفرق الناس . واختفى شفابرين . وعدت الى بيت القس . كان كل شىء قد اعد لسفرنا ، ولم ارد ان اتاخر اكثر . وضع متاعنا كله فى عربة الآمر القديمة . وشد الحوذيون الخيول سريعا . خرجت ماريا ايفانوفنا لتودع قبرى والديها اللذين دفنا وراء الكنيسة . اردت ان ارافقها ، الا انها رجتنى ان اتركها وحدها . عادت بعد بضع دقائق تذرف الدموع الهادئة صامتة . وجيىء بالعربة . خرج الاب غيراسيم وزوجته الى مدخل البيت . جلسنا ثلاثة فى العربة : ماريا ايفانوفنا ، وبالاشا ، وانا .

وصعد سافيليتش الى جوار الحوذى . قالت زوجة القس الطيبة : «وداعا ، يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا ! وداعا يا عزيزى بيتر اندريفيتش ، سفرة ميمونة ، وعسى الله ان يهبكما السعادة !» وانطلقنا . لمحت شفابرين واقفا عند نافذة بيت الآمر ، وقد ارتسم على وجهه الغيظ العابس . لم ارد ان اظهر انتصارى على عدو مسحوق ، فحولت بصرى الى الجانب الآخر . واخيرا خرجنا من بوابة القلعة ، مغادرين اياها الى الابد .

الفصل الثالث عشر

الاعتقال

لا تحنق ، يا سيد ، فان واجبى
يقتضينى ان ارسلك الى السجن الساعة .
— تفضل ، فانا مستعد ، ولكننى آمل
ان تسمح لى بان اشرح لك الامر اولا .
كنياجنين * .

جمعتنى المصادفة بفتاتى الحبيبة التى كنت حتى هذا الصباح قلقا موجعا ، ولم اصدق نفسى ، وتصورت ان كل ما حصل لى كان حلما فارغا . كانت ماريا ايفانوفنا تنظر فى سهوم تارة الىّ ، وتارة الى الطريق ، وتبدو وكأنها لم تفق بعد على نفسها . لزمنا الصمت . كان قلبانا مجهدين جدا . وبعد زهاء ساعتين وجدنا انفسنا فى القلعة المجاورة دون ان ندرى ،وكانت هذه القلعة ايضا تحت سيطرة بوغاتشوف . استبدلنا الخيول هنا . ومن السرعة التى شدوا بها الخيول ، ومن الخدمة العجولة التى قدمها لنا القوزاقى الملتحى الذى نصبه بوغاتشوف آمرا ، وبفضل ثرثرة الحوذى الذى جلبنا الى

* هذا الشعر من نظم بوشكين ولكنه نسبه الى كنياجنين . **(الناشر .)**

هنا ادركت انهم استقبلونى كواحد من حاشية قيصرهم الدعى .

وواصلنا سيرنا . واخذ الظلام يهبط . ورحنا نقترب من بلدة فيها ، حسب كلام الآمر الملتحى ، مفرزة قوية فى طريقها لمكافحة الدعى . اوقفنا الحراس . ورد الحوذى على سؤال «من القادم ؟» بصوت عال : «عراب القيصر مع عقيلته» . وفجأة احاطت بنا كوكبة من الفرسان تمطرنا بشتائم فظيعة . وقال لى ضابط صف خيالة ذو شارب : «انزل ، يا قريب ابليس ! فى انتظارك وعقيلتك استجواب ساخن !»

نزلت من العربة ، وطلبت ان يقودونى الى رئيسهم . كف الجنود عن شتائمهم حين راونى ضابطا . قادنى ضابط الصف الى الرائد . ولم يتخلف سافيليتش عنى ، متمتما مع نفسه : «تلك هى عاقبة عراب القيصر ! نخرج من نار وندخل فى لهب . . . يا رب القدرة ! بماذا سينتهى كل هذا ؟» وكانت العربة تسير وراءنا على مهل .

بعد خمس دقائق وصلنا الى بيت صغير مضاء اضاءة باهرة . تركنى ضابط الصف تحت الحراسة ، ودخل ليبلغ عنى . عاد على الفور معلنا ان صاحب المقام الرفيع لن يستطيع استقبالى ، وانه امر بوضعى فى السجن ، وارسال السيدة الى بيته .

صرخت بجنون :

— ما يعنى هذا ؟ هل فقد عقله حقا ؟

اجاب ضابط الصف :

— لا اعرف ، يا صاحب السيادة . سوى ان

صاحب المقام الرفيع امر بوضع صاحب السيادة فى السجن ، وامر بارسال صاحبة السيادة الى صاحب المقام الرفيع ، ذلك هو ، يا صاحب السيادة !

اندفعت الى مدخل البيت . لم يرد الحراس ان يوقفونى . فدخلت رأسا الى غرفة حيث كان حوالى ستة ضباط من الفرسان يلعبون الورق . وكان الرائد يدير اللعب . ويا لشدة دهشتى حين تفرست به ، وعرفت انه ايفان ايفانوفيتش زورين الذى جعلنى اخسر فى حانة سيمبيرسك . صحت :

– اليس هذا حلما ؟ ايفان ايفانوفيتش ! اهذا انت ؟

– با ، با ، با ، بيتر اندريفيتش ! ما اعجب الاقدار ! من اين جئت ؟ مرحبا ، يا اخ . الا تريد ان تلعب الورق ؟

– شكرا . الافضل ان تامر لى بمسكن اقيم فيه .

– وما حاجتك الى مسكن ؟ انزل عندى .

– لا استطيع . لست وحدى .

– حسنا ، تعال انت ورفيقك .

– لست مع رفيق . . . انا مع . . . سيدة .

– مع سيدة ؟ اين حصلت عليها ؟ آه ، يا اخ (وصفر زورين بشكل معبر جدا قهقه له الجميع . وارتبكت انا) .

وتابع زورين كلامه :

– ليكن هذا . سافرد لك مسكنا . . . ولكن ذلك مؤسف . . . كنا سنمرح مرحنا القديم ذاك . . . هاى ! . . يا عسكرى ! لماذا لم تدخل عرابة

بوغاتشوف الى هنا ، ام هى تعاند ؟ قل لها يجب الا تخاف . فان السيد رجل رائع ، لا يسيىء بشىء ، واعطها دفعة فى ظهرها .

قلت لزورين :

– ما هذا ؟ اية عرابة بوغاتشوف ؟ انها ابنة الآمر الراحل ميرونوف . اخرجتها من الاسر ، وانا الآن ارافقها الى ضيعة ابى ، حيث ستبقى .

– عجيب ! يعنى ان البلاغ الذى ابلغونى به الآن يخصك ؟ ارجوك ، ما يعنى هذا ؟

– ساخبرك بكل شىء ، فيما بعد . الآن ، بحق الرب ، هدئ الفتاة المسكينة التى افزعها فرسانك .

قام زورين بالاوامر اللازمة فى الحال . ثم نهض وخرج الى الشارع ليعتذر من ماريا ايفانوفنا على سوء التفاهم العرضى هذا ، وامر ضابط الصف بان يخصص لها احسن مسكن فى البلدة . وبقيت اقضى الليلة عنده .

تناولنا العشاء ، وحين بقينا وحدنا ، رويت له مغامراتى . اصغى زورين الىّ باهتمام كبير . وعندما فرغت من كلامى ، هز رأسه ، وقال : «كل ذلك حسن ، يا اخ ، ما عدا شيئا واحدا ، وهو اى شيطان وسوس لك لتتزوج ؟ انا ضابط شريف ، ولا اريد ان اخدعك . صدقنى ان الزواج نزوة . وما حاجتك ان تنشغل بزوجة ، وتربى اولادا ؟ تخل عن ذلك . اسمع كلمتى ، واعتق نفسك من ابنة الآمر . وقد طهرت الطريق الى سيمبيرسك ، وهو مأمون . ارسلها غدا الى والديك ، وابق معى فى المفرزة . فلا حاجة لك الى العودة الى اورنبورغ . فانك ستقع مرة اخرى فى

ايدى المتمردين ، واشك فى انك تتخلص منهم هذه المرة . وبهذه الطريقة يزول جنون الحب ، وتصحو الى نفسك ، ويعود كل شيء الى ما يرام».

رغم اننى لم اكن موافقا معه كليا ، الا اننى شعرت بأن واجبى العسكرى كان يقتضى وجودى فى قوات الامبراطورة . عزمت على الاخذ بنصيحة زورين ، فارسل ماريا ايفانوفنا الى القرية ، وابقى فى مفرزته .

جاء سافيليتش ليعيننى فى خلع ملابسى . فابلغته بأن يكون فى اليوم التالى مستعدا للسفر مع ماريا ايفانوفنا . فاخذ يمانع : «ما هذا ، يا حضرة السيد ؟ كيف اتركك ؟ من الذى سيرعاك ؟ وماذا سيقول والداك ؟»

ولما كنت اعرف عناد مربى قررت ان اقنعه بلطف واخلاص . قلت له : «يا صديقى ارخيب سافيليتش ! لا ترفض ، واصنع معروفا لى . لن اكون بحاجة الى خادم هنا ، بينما ساقلق اذا سافرت ماريا ايفانوفنا بدونك . وانت اذ تخدمها تخدمنى ايضا ، لاننى قد عزمت عزما اكيدا على ان اتزوجها حالما تسمح الظروف».

وهنا رفع سافيليتش ذراعيه بدهشة لا توصف . قال :

— تتزوج ! صبى يريد ان يتزوج ! ماذا سيقول والدك ، وماذا ستظن امك ؟

اجبته :

— سيوافقان ، سيوافقان بالتأكيد ، حين يعرفان ماريا ايفانوفنا . وانا اعتمد عليك ايضا . فان ابى

وامى يثقان بك ، وانك ستسعى لنا ، اليس كذلك ؟

تأثر العجوز ، واجابنى : «آه ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! رغم انك تتزوج مبكرا الا ان ماريا ايفانوفنا طيبة جدا حتى من الخطأ ان تفوت الفرصة . ليكن ما تريد ! سأوصل هذا الملاك السماوى ، وابلغ والديك كعبد بأن مثل هذه الخطيبة لا تحتاج الى مهر» .

شكرت سافيليتش ، واويت لانام فى غرفة واحدة مع زورين . كنت محتدا ومنفعلا فاخذت اثرثر . وتحدث زورين معى راغبا فى بادىء الامر ، الا ان كلماته اخذت تقل وتتفكك شيئا فشيئا ، واخيرا بدلا من ان اتلقى جوابا على سؤال تلقيت منه شخيرا وصفيرا . سكت ، وسرعان ما حذوت حذوه .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى ماريا ايفانوفنا . وعرضت عليها اقتراحاتى . فاقرت بصوابها ، ووافقتنى على الفور . وكان على مفرزة زورين ان تخرج من البلدة فى اليوم ذاته . ولم يكن ثمة وقت لاضيعه . تواعدت مع ماريا ايفانوفنا ، بعد ان سلمتها الى سافيليتش ، واعطيتها رسالة الى والدى . بكت ماريا ايفانوفنا ، وقالت بصوت خفيض : «مع السلامة ، يا بيتر اندريفيتش ! هل سيكتب لنا اللقاء مرة اخرى املا . الله وحده يعلم بذلك ، ولكننى لن انساك طوال حياتى ، وستبقى وحدك فى قلبى الى ان تحين منيتى» .

لم استطع ان اجيب بشيء . فقد كان الناس يحيطون بنا ، ولم ارد ان استسلم امامهم للعواطف التى كانت تعتمل فى صدرى . واخيرا رحلت . عدت الى زورين حزينا مستسلما للصمت . اراد ان يسرى عنى ، وفكرت انا

بتبديد حزنى ، فقضينا يوما صاخبا طليقا ، وفى المساء خرجنا فى المسيرة .

كان ذلك فى نهاية شباط ، والشتاء المعوق للعمليات العسكرية فى سبيله الى الانتهاء ، وقد تهيأ جنرالاتنا الى عمل منسق . كان بوغاتشوف ما يزال عند مشارف اورنبورغ . وفى غضون ذلك كانت القوات القيصرية تلتقى فيما بينها وتطوق وكر الشر من جميع الجهات . اخذت القرى المتمردة تعود الى الطاعة بظهور قواتنا ، وكانت شراذم اللصوص تفر منا فى كل مكان ، وكان كل شىء ينبئ بخاتمة موفقة سريعة .

وبعد قليل استطاع الامير غوليتسين ان يدحر بوغاتشوف عند قلعة تاتيشيفو ، ويشتت حشوده ، ويحرر اورنبورغ ، فكان بذلك قد وجه الى العصيان الضربة الاخيرة الحاسمة . كان زورين فى ذلك الحين قد جرد ضد عصابات المتمردين الباشكيريين الذين كانوا يتشتتون قبل ان تقع ابصارنا عليهم . وحبسنا الربيع فى قرية تترية . فقد فاضت الانهار ، وانقطعت الطرق . وكنا فى مقامنا بلا عمل نجد السلوى فى التفكير بنهاية سريعة قريبة لهذه الحرب المضجرة التافهة مع قطاع طرق ومتوحشين .

الا ان بوغاتشوف لم يؤسر . فقط ظهر فى مصانع سيبيريا ، واخذ يجمع هناك عصابات جديدة ، وعاد الى اعمال الشر . وانتشرت من جديد الشائعات عن نجاحاته . فسمعنا عن تخريب القلاع السيبيرية . وسرعان ما اقلق قادة الجيش نبأ استيلاء الدعى على قازان ، وزحفه على موسكو ، وكان هؤلاء يغفون

متغافلين آملين باستنزاف قوى هذا العاصى المقيت . وصدر امر الى زورين بعبور الفولغا بقوته * .

لا اريد ان اصف حملتنا ونهاية الحرب . واقول باختصار ان المأساة وصلت الى ذروتها . مررنا بقرى دمرها العصاة ، وانتزعنا من اهاليها المساكين ، طوعا او كراهية ، كل ما استطاعوا الحفاظ عليه . وتفككت الادارة فى كل مكان ، ولاذ اصحاب الاراضى فى الغابات . وعاثت عصابات اللصوص فى كل ناحية . وكان امراء بعض المفارز يعاقبون ويعفون حسب هواهم . وكانت حالة هذا الاقليم الواسع حيث تفشى الحريق مريعة . . . عسى الله الا يرينا عصيانا روسيا لا معنى له ، ولا رحمة فيه ! **

هرب بوغاتشوف يتعقبه ايفان ايفانوفيتش ميخلسون . وبعد وقت قصير سمعنا بنبأ اندحاره الكلى . واخيرا تلقى زورين نبأ القبض على الدعى ، ومعه امر بالتوقف . لقد انتهت الحرب . وصار من الممكن اخيرا ان اسافر الى والدى ! وامتلأت نفسى بنشوة الفرح حين فكرت فى اننى سأعانقهما ، وارى ماريا ايفانوفنا التى لم اسمع اى خبر عنها . وقفزت

---

* كان مخطط بوشكين الاول يقضى بأن يتبع ذلك «الفصل المحذوف» (المثبت الآن فى التذييل ص ص ٣٨٣ ـ ٣٩٨) الا ان بوشكين حذفه فيما بعد ، وبقى فقط فى مسودة المخطوطة . (**الناشر** .)

** ان اقوال بطل القصة هذه لا تمثل آراء بوشكين السياسية . انه لم يكن مناصرا للانتفاضة الفلاحية العفوية ، ولكنه لم يعتبرها «لا معنى لها» . (**الناشر** .)

كالطفل . ضحك زورين وقال هازا كتفيه : «لا ، لا محيص من وقوعـك فى ورطة ! اذا تزوجت كان فى زواجك الضياع الاكيد !»

وخلال ذلك تسممت غبطتى بشعور غريب . فقد وجدت نفسى من حيث لا ادرى افكر قلقا فى الشرير الملطخ بدماء ضحايا كثيرة بريئة ، وفى الاعدام الذى ينتظره . فكرت مع نفسى بأسى : «اميليا ، يـا اميليا ! * لماذا لم تطعن بحربة ، ولم تصب بقذيفة ؟ اذن لكان ذلك احسن نهاية يتفتق عنها فكرك !» ما العمل ؟ كان التفكير فيه يرتبط فى نفسى ارتباطا لا ينفصل بالعفو الذى وهبه لى فى احدى اللحظات الفظيعة من حياته ، وبانقاذ خطيبتى من قبضة شفابرين المقيت .

اعطانى زورين اجازة . وكان يجب ان اجد نفسى بعد عدة ايام بين عائلتى مرة اخرى ، وارى عزيزتى ماريا ايفانوفنا من جديد . . وفجأة صعقنى نذير مفاجىء .

فى اليوم الذى حدد لسفرى ، وفى اللحظة التى تهيأت فيها للانطلاق دخل زورين على مسكنى ممسكا بورقة ، وقد ران على وجهه قلق بالغ . وشعرت بوخز فى قلبى . وذعرت من شىء لا اعرف ما هو . اخرج زورين مرافقى الجندى ، واعلن ان له مسألة معى . سألت قلقا : «ما هى ؟» اجاب : «خبر صغير غير سار» ، — وقدم لى الورقة قائلا : — «اقرأ ما تلقيته الآن» . اخذت اقرؤها ، فاذا هـى امر سرى لكل امراء الوحدات

* صيغة تحبب لاسم اميليان بوغاتشوف . (المترجم)

باعتقالى ، اينما وجدت ، وارسالى فورا الى قازان تحت الحراسة للمثول امام لجنة التحقيق المختصة بقضية بوغاتشوف .

كادت الورقة تسقط من يدى . قال زورين : «لا معدل عن ذلك ! فان واجبى يقتضينى اطاعة الامر . يبدو ان الشائعات عن رحلاتك الودية مع بوغاتشوف قد وصلت الى الحكومة على نحو ما . وآمل الا تكون للقضية اية عواقب ، وانك ستبرر سلوكك امام اللجنة . لا تحزن وسافر» . كان ضميرى نقيا ، ولم اخف المحاكمة ، الا ان فكرة تأجيل لحظة اللقاء العذب ، ربما لعدة اشهر اخر ، بثت الفزع فى نفسى . اعدت العربة . وودعنى زورين بود . اجلسنى فى العربة ، وجلس معى فارسان شاهرى السيف . ومضيت فى الطريق العام .

الفصل الرابع عشر

المحاكمة

شائعات الناس
مثل موج البحر .
مثل .

كنت واثقا من ان غيابى عن اورنبورغ دون اذن هو جريرتى الوحيدة . وكنت قادرا بسهولة على تبرير ذلك : فان ركوب الخيل لم يكن محظورا فى يوم من الايام ، بل وكان يشجع . وقد اتهم بسرعة التهيج المفرطة ، لا بخرق النظام العسكرى . الا ان اتصالاتى الودية مع بوغاتشوف يمكن ان تثبت بعدد كبير من الشهود ، ولا بد ان تبدو مريبة جدا على اقل تقدير . فكرت طوال الطريق فى الاستجوابات التى فى انتظارى ، وهيات فى ذهنى اجوبتى ، وقررت ان اعلن للمحكمة حقيقة الامر ، معتبرا هذه الطريقة فى التبرير ابسط طريقة ، واكثر وثوقا فى الوقت ذاته .

وصلت الى قازان فرأيتها قد اقفرت ولاحت عليها آثار الحرائق . تكورت فى الشوارع اكوام من الفحم فى مكان البيوت ، وبرزت الجدران المسخمة بلا سقوف ولا

نوافذ . ذلك الاثر الذى خلفه بوغاتشوف ! اخذونى الى قلعة بقيت سالمة وسط المدينة التى دمرتها النار . سلمنى الفارسان الى ضابط الحراسة . فطلب ان يستدعى الحداد . ووضعت الاصفاد فى رجلى ، وقفلت قفلا محكما . ثم ساروا بى الى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة ضيقة مظلمة ليس فيها الا جدران عارية ونافذة صغيرة مشبكة بقضبان حديدية .

لم تبشرنى هذه البداية بأى خير . الا اننى لم افقد البشاشة ولا الامل . ولجأت الى سلوى جميع المهانين ، وتذوقت لاول مرة حلاوة الصلاة التى جاءت من قلب نقى ، ولكن ممزق ، وغفوت رخيا غير مهتم بما سيحدث لى .

فى اليوم التالى ايقظنى السجان ، معلنا اننى مطلوب فى اللجنة . قادنى جنديان عبر الفناء الى بيت الآمر ، وتوقفا فى الغرفة الامامية ، وتركانى ادخل وحدى الى الحجرات الداخلية .

دخلت قاعة فسيحة فرأيت رجلين يجلسان وراء منضدة مغطاة بالاوراق ، احدهما جنرال كهل صارم وبارد المظهر ، والثانى شاب برتبة نقيب فى الحرس ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، لطيف فى مظهره ، لبق وطليق فى معاملته . وعند النافذة جلس كاتب المحضر وراء منضدة خاصة ، والريشة وراء اذنه ، منكبا على الورقة ، متهيئا لتدوين افادتى . وبدأ الاستجواب . سئلت عن اسمى ورتبتى ، وسأل الجنرال هل انا ابن اندريه بتروفيتش غرينيف ؟ ولما اجبته رد على جوابى بصرامة : «من المؤسف ان يكون لمثل

ذاك الانسان المبجل ابن غير لائق مثلك !» اجبته بهدوء : مهما تكن التهم الموجهة ضدى فأنا آمل ان ابددها بشرح صريح للحقيقة . لم تعجبه لهجتى الواثقة ، فقال لى متجهما : «انت ، يا اخ ، شاطر ، ولكن راينا اشد منك شطارة !» .

عندئذ سألنى الشاب : باية مناسبة وفى اى وقت دخلت فى خدمة بوغاتشوف . وما هى المهمات التى نفذتها له ؟

اجبت فى حنق باننى كضابط وكنبيل ما كان من الممكن ان ادخل فى اية خدمة لبوغاتشوف ، ولا ان اتلقى منه مهمة .

فاعترض مستجوبى قائلا :

— وكيف اذن يراف الدعى بضابط ونبيل واحد ، بينما يفتك بجميع رفاقه بوحشية ؟ وكيف يمكن لهذا الضابط وهذا النبيل ان يمرح مع المتمردين ، ويقبل من رئيس الاشرار هدايا : معطفا ، وجوادا ونصف روبل ؟ كيف نشأت هذه الصداقة الغريبة ، وعلى اى اساس قامت ، اذا لم تكن على اساس الخيانة ، او على اقل تقدير ، على ضعف العزيمة المجرم الشائن ؟

شعرت باهانة شديدة من كلمات ضابط الحرس ، فبدأت دفاعى بحرارة . رويت كيف بدأ تعارفى ببوغاتشوف فى السهب ، اثناء العاصفة الثلجية ؛ وكيف عرفنى عند الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، ورأف بى . وقلت : حقا اننى لم اخجل من قبول المعطف والجواد من الدعى ، ولكننى دافعت عن قلعة بيلوغورسك ضد الشرير حتى النهاية . واخيرا

استشهدت بجنرالى الذى يمكن ان يشهد على حماسى اثناء حصار اورنبورغ التعيس .

تناول العجوز الصارم رسالة مفتوحة من الطاولة ، واخذ يقرؤها بصوت مسموع :

«يشرفنى ان ارد على سؤال سعادتكم بخصوص الملازم غرينيف ، المتهم بالاشتراك فى الاضطرابات الحالية ، والذى زُعِم انه دخل فى علاقات مع الشرير ، لا تسمح بها الخدمة وتتعارض مع يمين الولاء ، فاوضح لكم ان الملازم غرينيف هذا كان فى الخدمة فى اورنبورغ من بداية تشرين الاول الماضى عام ١٧٧٣ حتى ٢٤ شباط من هذا العام ، وهو اليوم الذى ترك فيه المدينة ، ومنذ ذلك الحين لم يحضر الى وحدتى . وقد سمعت من الفارين انه كان فى قرية بوغاتشوف ، وسافر معه الى قلعة بيلوغورسك التى كان يخدم فيها سابقا . اما بخصوص سلوكه ، فانا استطيع ان . . .» وهنا قطع قراءته ، وقال لى بجهامة : «فماذا تقول الآن لتبرير نفسك ؟» اردت ان اتابع ما بدأته ، واشرح علاقتى بماريا ايفانوفنا فى نفس الاخلاص الذى اظهرته فى رواياتى السابقة . الا اننى احسست فجأة بنفور قاهر . فقد خطر لى اننى اذا ما سميتها فان اللجنة ستطلب حضورها للاستجواب ، وفزعت من فكرة اقحامها بين وشايات الاشرار الكريهة ، واستدعائها لمواجهتهم وجها لوجه ، وشلتنى هذه الفكرة المفزعة حتى اخذت ارتبك واتلعثم فى كلامى .

وكان القاضيان يبدوان ، كما خيل الىّ ، انهما يصغيان الى ردودى ببعض الرضى ، فلما رأيا ارتباكى

عادا الى تحاملهما عليّ . وطلب ضابط الحرس ان اواجه المبلغ الرئيسى وجها لوجه . امر الجنرال باحضار **شرير الامس** . التفت الى الباب بفضـول حى ، منتظرا ظهور متهمى . وبعد بضع دقائق قرقعت سلاسل ، وفتـح الباب ، ودخل . . . شفابرين . ذهلت لتغيره . فقد كان نحيلا شاحبا الى درجة مريعة ، وشعره الذى كان قبل حين اسود كالقطران قد ابيض تماما ، واسترسلت لحيته الطويلة خصلات . كرر تهمه بصوت ضعيف ، ولكنه جرىء . فادعى بان بوغاتشوف ارسلنى الى اورنبورغ جاسوسا له ، فكنت اخرج كل يوم للمناوشات لانقل معلومات مكتوبة عن كل ما كان يحدث فى المدينة ، واخيرا انتميت الى الدعى جهارا ، وتنقلت معه من قلعة الى اخرى ، ساعيا بكل وسيلة الى تحطيم رفاقه الذين خانوا معه لاحل محلهم ، واستفيد من الهبات التى يوزعها الدعى . اصغيت اليه صامتا . كنت راضيا من شىء واحد وهو ان هذا الجانى المقيت لم يتفوه باسم ماريا ايفانوفنا . فهل كان ذلك لان عزة نفسه كانت تشقى لدى ذكر الفتاة التى رفضتـه مزدرية ، ام لان قلبه كان يكمن شرارة فى تلك العاطفة التى حملتنى انا ايضا على الصمت . ومهما يكن من شىء فان اسم ابنة آمر بيلوغورسك لم يذكـر امام اللجنة . وجعلنى ذلك اشد تصميما على ما عزمـت عليه ، وعندما سألنى القاضيان بم استطيع دحض اقوال شفابرين ، اجبت باننى باق على توضيحى الاول ، واننى لا استطيع ان اقدم شيئا آخر لتبرير نفسى . امر الجنرال باخراجنا . خرجنا سوية . نظرت الى شفابرين

بهدوء ، ولكن لم اقل له كلمة . فضحك ضحكة هازئة حاقدة ، ورفع قيوده ، وحث خطاه وسبقنى . اعادونى الى السجن ، ومنذ ذلـك الحين لـم يستدعونـى للاستجواب .

وما سأرويه للقارىء بعد الآن لم اشهده بنفسى بل سمعته كثيرا حتى نقشت ادق تفاصيله فى ذاكرتى ، بل ويبدو لى وكأننى كنت شاهدا غير مرئى فيه .

استقبل والداى ماريا ايفانوفنا بالفرح الصادق الذى امتاز به اناس الزمن القديم . ورأيا نعمة الهيـة تسنح لهما فى ايوائهما يتيمة مسكينة وشمولهـا بعطفهما . وسرعان ما تعلقا بها عن اخلاص ، لانه من المستحيل على المرء ان يعرفها ولا يحبها . ولم يعـد حبى فى عينى والدىّ صبوة فارغة ، بينما كانت والدتى لا تود الا ان يتزوج ولدها بيتر ابنة الآمر الحبيبة .

اذهل نبأ اعتقالى عائلتى بأسرها . وقد حكت ماريا ايفانوفنا لوالدى قصة تعارفى الغريبة مع بوغاتشوف ، ببساطة كبيرة لم تشعر والدى بأى قلق علىّ ، بـل حملتهما مرارا على الضحك مـن اعماق قلـب صاف . لم يرد ابى ان يصدق بأن من الممكن ان اتورط فى عصيان يهدف الى الاطاحة بالعرش ، والقضاء على فئة النبلاء . فاستجوب سافيليتش استجوابا دقيقا . لـم يخف المربى ان السيد كان فى ضيافـة بوغاتشوف ، وان الشرير احبه على اية حال ، الا انه اقسم على انه لم يسمع بخيانته قط .. هدأ روع العجوزين ، واخذا ينتظران الاخبار السارة بنفاد صبر . وقلقت ماريـا

ايفانوفنا علىّ قلقا شديدا ، الا انها صمتت ، لما جبلت عليه من تواضع وحذر الى درجة عالية .

مضت عدة اسابيع . . . وفجأة يتلقى والدى رسالة من بطرسبورغ مرسلة من قريبنا الامير «ب» . يكتب فيها عنى ويعلن له بعد الديباجة المالوفة ، ان الشكوك بخصوص اشتراكى فى خطط العصاة قد ثبتت تماما مع الاسف ، وان الاعدام كان سينفذ فى ، لو لا ان الامبراطورة احتراما لخدمات ابى وشيخوخته قررت العطف على الابن المجرم ، وامرت باستبدال الاعدام المشين بالنفى المؤبد الى اقليم ناء فى سيبيريا .

كادت هذه الصدمة المفاجئة ان تودى بأبى . فقد توازنه المعتاد ، وطفح حزنه (الذى كان حزنا اخرس فى العادة) ، ففاض بشكاوى مريرة . فكان يكرر خارجا عن اطواره : «كيف ! ابنى اشترك فى خطط بوغاتشوف ! يا آلهى العادل ، الى هذا الحد بلغ بى العمر ! الامبراطورة تنقذه من الاعدام ! وهل ذلك يخفف من بلواى ؟ ليس الاعدام مخيفا ، فان جدى الاكبر مات على منصة الاعدام مدافعا عما كان يعتبره مقدسا فى ضميره ، وعذب ابى مع فولنسكى وخروشوف * . اما ان ينكث نبيل بيمينه ، وينضم الى لصوص ، الى سفاكين ، الى عبيد آبقين ، فان ذلك عار وشنار لعشيرتنا كلها ! . .» ولم تجرؤ امى التى افزعها قنوطه على ان تبكى امامه ، وحاولت ان تعيد اليه بشاشته متحدثة عن كذب الشائعات ، وعن تذبذب آراء الناس . ولم يجد ابى السلوى فى ذلك .

وكانت ماريا ايفانوفنا تتعذب اكثر من الجميع . كانت واثقة من اننى كنت قادرا على تبرير نفسى لو اردت ، فجعلها ذلك تحدس الحقيقة وتعتبر نفسها ملومة فى بلواى . كانت تخفى دموعها وآلامها عن الجميع ، دون ان تكف ، فى الوقت ذاته ، عن التفكير فى الوسائل التى تنقذنى .

ذات مساء كان ابى جالسا على الاريكة يتصفح حولية البلاط ، الا ان فكره كان بعيدا ، فلم تترك القراءة فيه اثرها المألوف . وكان يصفر لحنا عسكريا قديما ، وكانت امى تحيك قميصا من الصوف وهى صامتة والدموع تقطر على حياكتها بين الحين والآخر . وكانت ماريا ايفانوفنا تجلس هنا ايضا وراء تطريزها فاذا هى تعلن فجاة بأنها مضطرة الى السفر الى بطرسبورغ ، وهى ترجو مساعدتهما فى الاعداد للسفر . اغتمت امى كثيرا وقالت لها : «ما حاجتك للسفر الى بطرسبورغ ؟ اتريدين ان تتركينا انت ايضا ؟» اجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها كله متعلق على هذه الرحلة ، وانها ذاهبة للبحث عن الحماية والعون بين ذوى النفوذ ، بوصفها ابنة رجل وقع ضحية فى سبيل ولائه .

اطرق ابى براسه ، فقد كانت ترهقه اية كلمة

* **ارتيمى فولنسكى** ، وزير حكومة الامبراطورة آنا يوهانوفنا (١٧٣٠–١٧٤٠) تراس المؤامرة ضد بيرون محسوب الامبراطورة وهو اشد الماجورين الاجانب كراهية فى روسيا .

اندريه خروشوف ، مستشار مصلحة الاسطول ، واحد المشتركين فى مؤامرة فولنسكى ، وقد اعدم معه . (**الناشر** .)

تذكر بجريمة ابنه الوهمية ، وتبدو له مثل تعنيف واخز . قال لها بحسرة : «سافرى ، يا عزيزتى ! فنحن لا نريد ان نقف فى طريق سعادتك . عسى الله ان يكتب لك زوجا طيبا ، لا خائنا مفضوحا» . ونهض وخرج من الغرفة .

بقيت ماريا ايفانوفنا وحدها مع امى ، فأوضحت لها بعض آرائها . عانقتها امى والدموع تنهمر من عينيها ، ودعت الله ان يتوج باليمن ما عزمت عليه . جهزت ماريا ايفانوفنا بما يلزمها من الثياب ، وبعد عدة ايام سافرت مع خادمتها المخلصة بالاشا ، وسافيليتش الامين الذى كان ، وقد انفصل عنى لاسباب قاهرة ، يجد السلوان ، على اقل تقدير ، فى خدمة زوجتى المقبلة .

وصلت ماريا ايفانوفنا الى صوفيا بسلام ، وعلمت من محطة البريد ان البلاط موجود فى مدينة تسارسكويه سيلو فى ذلك الوقت ، فقررت التوقف فيها . افرد لها ركن مفصول بحاجز . ودخلت زوجة ناظر المحطة فى حديث معها على الفور . فأخبرتها بانها ابنة اخى وقاد البلاط ، وكشفت لها عن جميع اسرار الحياة فى البلاط . فذكرت لها الساعة التى تستيقظ الامبراطورة فيها عادة ، ومتى تحتسى القهوة ، ومتى تتنزه ، وسمت لها رجال الحاشية الذين يكونون معها فى ذلك الوقت ، وما قالته على مائدتها بالامس ، ومن استقبلته فى المساء . وباختصار كان من الممكن ان يملأ حديث آنا فلاسيفنا هذه بضع صفحات من كتب التاريخ ، وان يكون ثمينا للاحفاد . اصغت ماريا ايفانوفنا لها باهتمام . وخرجت

المرأتان الى الحديقة ، فحكت لها آنا فلاسيفنا تاريخ كل ممر معرش وكل قنطرة ، وبعد ان اخذتا حظهما من النزهة عادتا الى المحطة ، وقد رضيت احداهما عن الاخرى كثيرا .

فى اليوم التالى استيقظت ماريا ايفانوفنا فى الصباح الباكر ، ولبست ثيابها ، وانسلت بهدوء الى الحديقة . كان الصباح رائعا ، والشمس تشرق على ذرى اشجار الزيتون المصفرة بانفاس الخريف الطرية . وكانت البحيرة الواسعة تلمع ساكنة الاديم ، والبجع المستيقظ يخرج بمهابة من تحت الاحراش التى غطت الشاطئ . سارت ماريا ايفانوفنا بالقرب من مرجة بديعة اقيم عليها قبل حين نصب تذكارى تكريما لانتصارات الكونت بيتر الكسندروفيتش روميانتسيف* . وفجأة نبحت كلبة بيضاء من نسل انجليزى ، وركضت نحوها . ذعرت ماريا ايفانوفنا ، وتوقفت . فى تلك اللحظة صدر صوت نسائى عذب : «لا تخافى ، فانها لا تعض» . ورات ماريا ايفانوفنا سيدة جالسة على مصطبة مقابل النصب التذكارى . جلست ماريا ايفانوفنا على الطرف الثانى من المصطبة . نظرت السيدة اليها متفرسة بها ، بينما القت ماريا ايفانوفنا من ناحيتها عدة نظرات جانبية على السيدة . واستطاعت ان تتفحصها من الرأس حتى القدم . كانت السيدة ترتدى ثوبا ابيض للصباح ، وقلنسوة ليلية ،

* من اكبر قادة روسيا العسكريين فى القرن الـ١٨ . (**الناشر** .)

وسترة . وكانت تبدو فى نحو الاربعين من العمر . وكان وجهها الممتلىء المتورد يشع مهابة ورصانة ، بينما كانت لعينيها الزرقاوين وابتسامتها الخفيفة فتنة لا توصف .
بادرت السيدة بقطع الصمت حين قالت :
– لست من هذه الناحية ، على ما يبدو .
– بالضبط . وصلت بالامس فقط من الريف .
– هل وصلت مع والديك ؟
– لا ، بل وحدى .
– وحدك ! ولكنك ما زلت فتية .
– ليس لى اب ولا ام .
– لا بد انك جئت تسعين فى امر من الامور ؟
– بالضبط . جئت لارفع التماسا الى الامبراطورة .
– انت يتيمة ، لعلك جئت تشتكين من ضيم واساءة ؟
– لا . بل جئت التمس عفوا لا رفع ضيم .
– هل تسمحين لى ان اسأل : من انت ؟
– انا ابنة النقيب ميرونوف .
– النقيب ميرونوف ! اهو الذى كان آمرا لقلعة من قلاع اورنبورغ ؟
– تماما .
وبدا التأثر على السيدة . قالت بصوت اكثر رقة : «اعذرينى اذا تدخلت فى امورك ، ولكننى ازور البلاط احيانا فأشرحى لى التماسك ، لعلى استطيع مساعدتك» .
نهضت ماريا ايفانوفنا ، وشكرتها باحترام . وكان كل ما فى السيدة المجهولة يأسر قلبها دون ان تدرى ، ويوحى بالثقة . اخرجت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة

مطوية ، وقدمتها للسيدة المجهولة التى عرضت عليها حمايتها . فاخذت هذه تقرؤها فى سرها .
فى البداية لاح عليها الاهتمام والعطف وهى تقرأ ، الا ان وجهها تغير فجأة ، وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بعينيها كل حركاتها فافزعها التعبير الصارم الذى ارتسم على وجهها ، الذى كان قبل لحظة لطيفا جدا ورائعا .
قالت السيدة ببرود :
– تطلبين العفو عن غرينيف ؟ لن تستطيع الامبراطورة ان تعفو عنه . فانه لم ينضم الى الدعى عن جهل وسرعة تصديق ، بل لانه عاطل خبيث لا خلاق له .
هتفت ماريا ايفانوفنا :
– هذا غير صحيح !
فاعترضت السيدة محتدة بكل كيانها :
– غير صحيح ؟
– غير صحيح ، قسما بالرب ! انا اعرف كل شىء ، وسأرويه لك . انه من اجلى فقط تعرض لكل ما لقيه . واذا كان لم يبرر نفسه امام المحكمة فلانه لم يرد ان يشركنى فى القضية لا غير .
واخذت تقص بحرارة كل ما يعرفه قارىء هذا الكتاب .
اصغت السيدة اليها بانتباه . وسألتها : «اين تقيمين ؟» وحين سمعت انها تقيم عند آنا فلاسيفنا ، قالت مبتسمة : «آ ، اعرفها . وداعا ، ولا تخبرى احدا عن لقائنا . وآمل الا يطيل انتظارك لجواب رسالتك» .
وبهذه الكلمة نهضت السيدة ، ودخلت فى ممر

مسقوف . بينما عادت ماريا ايفانوفنا الى آنا فلاسيفنا يعمر قلبها امل بهيج .

لامتها صاحبة البيت على خروجها مبكرا فى نزهة فى الخريف قد تضر ، على حد قولها ، بصحة فتاة فى مقتبل العمر . وجلبت السماور وما كادت تدخل فى احاديثها الطويلة عن البلاط وامامها قدح من الشاى حتى توقفت عربة من عربات البلاط عند مدخل بيتها . ودخل وصيف من وصفاء البلاط معلنا ان القيصرة تدعو اليها ابنة ميرونوف .

انذهلت آنا فلاسيفنا ، وراحت وجاءت ، وصاحت : «يا آلهى ! القيصرة تدعوك الى البلاط . فكيف عرفت بك ؟ وكيف ستمثلين ، يا عزيزتى ، امام الامبراطورة ؟ اظن انك لا تعرفين مراسيم البلاط . . . فهل على ان اذهب معك ؟ فقد اكون نافعة لك فى تنبيهك الى بعض الامور . وكيف ستذهبين فى ثياب السفر ؟ وهل سأرسل الى القابلة اطلب منها ثوبها الاصفر ؟» اعلن الوصيف ان الامبراطورة تريد ان تحضر ماريا ايفانوفنا وحدها ، وفى الهيئة التى وجدت فيها . فقطع ذلك كل تدبير آخر . ركبت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت الى البلاط ومعها نصائح آنا فلاسيفنا وتبريكاتها .

استشعرت ماريا ايفانوفنا ان مصيرنا منوط بهذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق خفقانا شديدا تارة ، ويجمد تارة اخرى . وبعد بضع دقائق توقفت العربة عند القصر . ارتقت ماريا ايفانوفنا السلم مرتجفة . كانت الابواب تفتح امامها على مصاريعها . مرت بصف كبير من الغرف الفاخرة الفارغة . وكان الوصيف يدلها على

الطريق . واخيرا وصلت الى باب مغلق . اعلن لها الوصيف انه سيبلغ الآن بقدومها ، وتركها وحدها .

ارعبها التصور بأنها سترى الامبراطورة وجها لوجه ، فكانت لا تكاد تقف على قدميها . بعد دقيقة فتح الباب ، ودخلت الى غرفة زينة القيصرة .

كانت الامبراطورة تجلس الى زينتها . وكان بعض الحاشية يحيطون بها ، وقد فسحوا باحترام الطريق لماريا ايفانوفنا . التفتت القيصرة اليها فى حنان ، واذا بماريا ايفانوفنا تعرف فى شخصها تلك السيدة التى كاشفتها قصتها قبل دقائق . دعتها الامبراطورة اليها ، وقالت لها مبتسمة : «انا سعيدة فى ان اكون عند عهدى لك ، واحقق رجاءك . ان قضيتك قد انتهت . فقد اقتنعت ببراءة خطيبك . وهذه رسالة احمليها بنفسك الى حميك المقبل» .

تناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد راعشة ، وانفجرت باكية ، وارتمت على قدمى الامبراطورة ، فرفعتها الامبراطورة وقبلتها . وتحدثت اليها قائلة : «انا اعرف انك لست بالغنية . الا اننى مدينة الى ابنة الآمر ميرونوف . فلا تقلقى على المستقبل وسأتعهد بتوفير حياة رغيدة لك» .

داعبت القيصرة اليتيمة المسكينة ثم اذنت بانصرافها . غادرت ماريا ايفانوفنا فى نفس عربة البلاط التى جاءت فيها . كانت آنا فلاسيفنا تنتظر عودتها بفارغ صبر . وحين رأتها امطرتها بأسئلة ردت عليها ماريا ايفانوفنا بما عنّ لها . ورغم ان آنا فلاسيفنا لم تكن راضية عن ذهولها ، الا انها عزت ذلك الى خجل

فتيات الريف ، وتعذرت لها بطيبة نفس . وفى نفس اليوم سافرت ماريا ايفانوفنا الى الضيعة دون ان تمتع بصرها ببطرسبورغ . . .

الى هنا تنتهى مذكرات بيتر اندريفيتش غرينيف . وتذكر روايات العائلة ان الابن قد اطلق سراحه فى نهاية ١٧٧٤ بموجب عفو خاص ، وانــه شهد اعدام بوغاتشوف الذى عرفــه من بين الحشود ، وهز له راسه ، نفس الرأس الذى عرض للشعب بعد دقيقة مقطوعا مدمى . وبعد ذلك بفترة قصيرة تزوج بيتر اندريفيتش ماريا ايفانوفنا ، واحفادهما ينعمون الآن فى مقاطعة سيمبيرسك . وعلى بعد ثلاثين فرسخا من ن . . . تقع قرية يملكها عشرة من اصحاب الاطيان . وفى احد البيوت العائدة لاصحاب هذه القرية تعرض الرسالة التى كتبتها الامبراطورة يكاترينا الثانية بخط يدهــا ، وقد وضعت فى اطار تحت الزجاج . وهى الرسالة التى ارسلت الى والد بيتر اندريفيتش غرينيف تعلن براءة ابنه ، وتمتدح نباهة وطيبة ابنة الآمر ميرونوف . وقد حصلنا على مخطوطة بيتر اندريفيتش من احد احفاده الذى عرف باهتمامنا بآثار الفترة التى وصفها جده . فقررنا ، بعد موافقة اقاربه ، نشرهــا مستقلة ، بعد ان صدرنا كل فصل بما يناسب من الاشعار والامثال ، وابحنا لنفسنا تغيير اسماء بعض الاشخاص .

الناشر .

١٩ تشرين الاول ١٨٣٦

تذييل

الفصل المحذوف *

اقتربنا من شاطئ الفولغا ، ودخل فوجنا فى قرية س ، وتوقف ليقضى الليلة فيها . ابلغنى عمدة القرية بأن جميع القرى فى تلك الضفة متمردة ، وان عصابات بوغاتشوف تطوف فى كل مكان . اقلقنى النبأ شديد القلق . كان علينا ان نعبر النهر فى صباح اليوم التالى . واستولى علىّ الضيق . كانت ضيعة ابى تقع على بعد ثلاثين فرسخا فى ذلك الجانب من النهر . سالت عن امكانية ايجاد قارب لعبور النهر . كان جميع الفلاحين يصطادون الاسمــاك ، والقوارب كثيرة . ذهبت الى غرينيف ، واخبرته بمقصدى . قال لى : «خذ حذرك ، فان الخروج لوحدك خطر على اية حال . انتظر حتى الصباح . فسنعبر اولا ، وسنرسلك لزيارة والديك مع ٥٠ فارسا للحيطة» .

اصررت على ما اريد . واعد القارب . وصعدت اليه

* لم يدخل هذا الفصل فى الصيغة النهائية ل«ابنة الآمر» (لاسباب تتعلق بالرقابة ، على ما يبدو) ، وبقى فى مسودة المخطوطة ، حيث سمى بـ«الفصل المحذوف» . وفى هذا النص يطلق على غرينيف اسم بولانين ، وعلى زورين اسم غرينيف (راجع الفصل الثالث عشر) .

مع اثنين من المجدفين . دفع المجدفان القارب ، وضربا فى المجاديف .

كانت السماء صافية ، والقمر متألقا . وكان الطقس هادئا ، ونهر الفولغا يجرى سبطا رخيا . وكان القارب يتمايل تمايلا خفيفا منزلقا على الامواج الداكنة . غرقت فى احلام الخيال . ومضت نصف ساعة . وكنا قد وصلنا الى منتصف النهر . . . وفجأة اخذ المجدفان يتهامسان فيما بينهما . سألت وقد افقت من احلامى : «ما هو ؟» اجاب المجدفان وهما ينظران فى ناحية واحدة : «لا نعرف ، الله يعلم» . ونظرت عيناى فى نفس الاتجاه ، فرأيت فى الظلام شيئا يعوم منحدرا فى الفولغا . اقترب هذا الشيء الغامض . امرت المجدفين بأن يتوقفا ، وينتظراه . اختفى القمر وراء سحابة . وازداد الشبح العائم غموضا . وكان الآن قريبا منى الا اننى لم استطع ان اتبينه بعد . قال المجدفان : «ما عساه ان يكون . ليس هو بالشراع ، ولا بالصارية . . .» وفجأة خرج القمر من وراء السحابة ، وكشف عن منظر مريع . كانت تتقدم منا مشنقة منصوبة على رمث ، وقد تدلت من عارضتها ثلاث جثث . استحوذ على فضول مرضى . فأردت ان ارى وجوه المشنوقين .

امسك المجدفان الرمث بكلاب بناء على امرى . فارتطم قاربى بالمشنقة العائمة . قفزت خارجا اليها ، ووجدت نفسى بين القوائم الفظيعة . اضاء القمر المنير وجوه التعساء المشوهة . كان احدهم عجوزا من التشوفاش ، والآخر فلاحا روسيا شابا قويا ضخما فى نحو العشرين من العمر . الا اننى نظرت الى الثالث

وصعقت بقوة ، افلتت منى صيحة اشفاق . لقد كان ذاك فانكا ، صاحبى المسكين فانكا ، الذى انضم لحماقته الى بوغاتشوف . وقد سمرت فوق الثلاثة لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة : «لصوص ومتمردون» . كان المجدفان ينظران بحلو بال ، وهما ينتظراننى ، ممسكين بالكلاب . عدت الى قاربى . وعام الرمث منحدرا فى مجرى النهر . وظلت المشنقة تلوح طويلا فى الظلام . واختفت اخيرا ، ووصل قاربى الى الشاطئ العالى ، الشديد الانحدار . . .

دفعت للمجدفين بسخاء . دلنى احدهم على عمدة القرية ، الذى يقيم عند المعبر . ودخلنا بيت العمدة سوية . وحين سمع العمدة بأننى اريد خيولا استقبلنى استقبالا شديد الفظاظة ، الا ان دليلى اسر له بعض الكلمات بهدوء ، فاذا بفظاظته تتحول الى حفاوة متلهفة . وفى دقيقة واحدة اعدت عربة «الترويكا» . فركبتها ، وامرت بالتوجه الى قريتنا .

اندفعت العربة فى الطريق الواسع عبر قرى نائمة . وكنت اخشى شيئا واحدا : أن اوقف فى الطريق . فاذا كان ما شاهدته ليلا على الفولغا دليلا على وجود متمردين ، فقد كان ايضا دليلا على قوة التدابير المضادة المتخذة من قبل الحكومة . وتحسبا لكل طارئ كان فى جيبى الاذن الذى اعطاه بوغاتشوف ، وأمر العقيد غرينيف . الا اننى لم التق بأحد ، ومع طلوع الصباح رأيت النهر ، وحرش اشجار التنوب الذى تقع قريتنا وراءه . ساط الحوذى الخيول ، وبعد ربع ساعة دخلت القرية .

كانت دار ابى تقع فى الطرف الآخر من القرية ، انطلقت الخيول بكامل اعنتها . وفجاة اخذ الحوذى يشد اعنتها فى وسط الشارع . سألته نافذ الصبر : «ما هذا ؟» اجاب الحوذى وهو يوقف خيوله الجامحة بجهد : «توجد نقطة حراسة ، يا سيد» . وبالفعل نظرت فأبصرت حاجزا وحارسا مسلحا بهراوة . اقترب الحارس الفلاح منى ، وخلع قبعته ، وطلب شهادة الهوية . سألته : «ما معنى هذا ؟ لم وضع حاجز هنا ؟ ومن تحرس انت ؟» اجاب هارشا جسمه : «نحن ، يا عزيزى فى تمرد» .

سألته باضطراب :

— واين اسيادكم ؟

كرر الفلاح قائلا :

— اين اسيادنا ؟ اسيادنا فى عنبر الغلال .

— كيف فى عنبر الغلال ؟

— نعم ، وضعهم اندريوشكا من الادارة المحلية فى قيود خشبية ويريد ان يرسلهم الى مولانا القيصر .

— اوه ، يا رب ! ارفع الحاجز ، ايها الاحمق . لماذا تنتظر ؟

تباطأ الحارس . قفزت من العربة ، وضربته (وارجو المعذرة) على اذنه ، وازحت الحاجز بنفسى . نظر الفلاح الىّ بذهول بليد . ركبت العربة ثانية ، وامرت الحوذى بالتوجه الى دار السيد . كان عنبر الغلال يقع فى الحوش . وعند بابه المغلق وقف فلاحان بهراوتين ايضا . توقفت العربة امامهما تماما . قفزت ، واندفعت نحوهما ، وقلت : «افتحا الباب !» كان منظرى مرعبا ، على ما يبدو . وعلى اية حال هرب الاثنان ،

بعد ان القيا هراوتيهما . حاولت كسر القفل ، وتحطيم الباب ، الا ان الباب كان من شجر البلوط ، والقفل الضخم لا يكسر . وفى تلك اللحظة خرج فلاح شاب حسن القوام من جناح الخدم ، وسألنى بعجرفة : كيف تجاسرت على العربدة ؟ صرخت به : «اين اندريوشكا من الادارة المحلية ؟ ادعه الىّ» .

اجاب متخوصرا بأنفة :

— انا اندريه افانسيفيتش ، ولست اندريوشكا بالنسبة لك . ماذا تريد ؟

وبدلا من الرد عليه امسكته من تلابيبه ، وسحبته الى باب العنبر ، وامرت ان يفتحه . عاند فى البدء ، الا ان العقاب **الابوى** اثر فيه ايضا . اخرج مفتاحا ، وفتح العنبر . ركضت عبر العتبة ورأيت فى ركن مظلم يتسلل اليه ضوء خافت من خلال شق ضيق فى السقف ابى وامى . كانت ايديهما موثوقة ، وارجلهما مصفدة بقيود من خشب . اندفعت اعانقهما ، غير قادر على ان انطق بكلمة واحدة . نظر كلاهما الىّ بذهول ، فان السنوات الثلاث التى قضيتها فى العسكرية قد غيرتنى كثيرا ، حتى انهما لم يستطيعا ان يتعرفا علىّ . تأوهت امى ، وانهمرت دموعها .

وفجاة سمعت صوتا اليفا حبيبا : «يا بيتر اندريفيتش ! هذا انت !» ووقفت مصعوقا . . . نظرت فى الزاوية الاخرى ماريا ايفانوفنا ، مشدودة الوثاق ايضا .

كان ابى يحدق بى صامتا ، لا تواتيه الجراة على تصديق ما يرى . وعلى وجهه لمعان الفرح . اسرعت فى

تقطيع حبال وثاقهم بسيفى .

قال ابى ، وهو يضمنى الى قلبه :

— اهلا ، اهلا ، بيتر ! حمدا لله على اننا انتظرناك . . .

وقالت امى :

— بيتر ، يا ولدى ! لقد ساقك الرب الى هنا ! هل أنت فى صحة ؟

اسرعت لاخرجهم من المحبس ، الا اننى القيت الباب مغلقا من جديد ، حين تقدمت منه . صرخت : «اندريوشكا ، افتح !»

اجاب من وراء الباب : «ابدا . انحبس انت ايضا . وسنعلمك ما تعنى العربدة وجر موظفى القيصر من تلابيبهم !»

اخذت اعاين العنبر ، باحثا عن وسيلة للانسلال .

قال لى ابى :

— لا تتعب نفسك . لست من اولئك الملاكين الذين يدخلون ويخرجون من عنابرهم متسللين من الجحور كاللصوص .

وغرقت امى فى قنوط بعد لحظة من الفرح بظهورى ، وقد رأت ان القدر قد ساقنى لاقاسم كل العائلة هلاكها . الا اننى كنت اكثر اطمئنانا فى وجودى معهما ومع ماريا ايفانوفنا . وكان معى سيفى ومسدسان ، وكنت استطيع ان اصمد للحصار . فقد كان يجب ان يصل غرينيف فى المساء ، ويحررنا . ابلغت ذلك كله لوالدىّ ، واستطعت ان اهدئ والدتى . فعادا يستسلمان كليا لفرحة اللقاء . قال لى ابى :

— يا بيتر ، فى الماضى كنت شيطانا كبيرا فكم كنت غاضبا عليك . ولكن دع الماضى للماضى . آمل ان تكون قد عدلت من سلوكك ، وتخلصت من نزواتك . أنا اعرف انك خدمت ، كما ينبغى لضابط شريف ان يخدم . شكرا ، فقد سرّيت عينى ، فى شيخوختى . ولو اصبحت مدينا لك بالنجاة فان مسرة حياتى ستتضاعف .

قبلت يده دامع العينين ، ونظرت الى ماريا ايفانوفنا التى غمرها الفرح بحضورى ، حتى بدت فى منتهى السعادة والاطمئنان .

قرب الظهر سمعنا ضجة غير اعتيادية وصيحات . قال ابى : «ما معنى هذا ؟ هل وصل عقيدك ؟» اجبت : «غير ممكن . لن يكون هنا قبل حلول المساء» . واشتدت الضجة . ودق ناقوس الخطر . وعدا خيالة فى الحوش . وفى تلك اللحظة اندس راس سافيليتش الاشيب فى ثغرة فى الحائط ، وقال مربى المسكين بصوت متشك : «اندريه بتروفيتش ، افدوتيا فاسيليفنا ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ، عزيزتى ماريا ايفانوفنا ، مصيبة ! دخل الاشرار القرية . وهل تعرف ، يا بيتر اندريفيتش ، من كان على راسهم ؟ شفابرين ، الكسى ايفانوفيتش ، لعنة الله عليه !» رفعت ماريا ايفانوفنا ذراعيها ، حين سمعت الاسم الكريه ، ووقفت بلا حراك .

قلت لسافيليتش :

— اسمع . ارسل احد الناس على حصان الى المعبر

ستقبل فوج الفرسان ، واطلب ان يبلغ العقيد بالخطر ى يحدق بنا .

– ولكن من ارسل ، يا سيد ؟ جميع الصبيان مردون ، والخيول كلها قد أخذت ! يا للمصيبة ! هم قد دخلوا الحوش ، وسيصلون الى العنبر .

فى تلك اللحظة صدرت بعض الاصوات وراء الباب . رت الى امى والى ماريا ايفانوفنا فى صمت ان تبتعدا فى ن من الاركان ، وجردت سيفى ، واستندت الى الحائط ب الباب مباشرة . اخذ ابى المسدسين ، ورد زناديهما ، قف الى جانبى . قلقل القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس ظف الادارة المحليـــــة . هويت بالسيف عليه . سقط ، وسد المدخل بجسمه . وفى تلك اللحظة اطلق ى المسدس فى فتحة الباب . تراكض الحشد الذى كان اصرنا مرسلا الشتائم . جررت الجريح عبر العتبة ، غلقت الباب بالمزلاج الداخـــلى . غص الحوش لمسلحين ، وقد عرفت شفابرين من بينهم .

قلت للمرأتين :

– لا تخافا . هناك امل . وانت يا ابى ، لا تطلق نار بعد الآن . لنحرص على الذخيرة الاخيرة .

كانت والدتى تصلى للرب ، وماريا ايفانوفنا واقفة لقرب منها ، منتظرة حكم القدر بهدوء ملائكى . صدرت ن وراء الباب تهديدات ، وسباب ولعنات . بقيت فى كانى ، متهيئـــا لطعن اول متجاسر . وفجاة صمت لاشرار . سمعت صوت شفابرين ينادينى باسمى .

– انا هنا ، فماذا تريد ؟

– استسلم ، يا بولانين ، فان المقاومة لا تجديك

نفعا . اشفق على والديك العجوزين . انت لن تنقذهما بعنادك . سأريكم .

– حاول ، ايها الخائن !

– لا انوى الخوض بالتوافه ، ولا اهدر دم رجالى . سآمر بحرق العنبر ، وعند ذاك سأعرف ماذا ستفعل ، يا دون كيشوت من بيلوغورسك . الآن حان وقت الغداء . عندك الآن فراغ للتفكير . الى اللقاء ، يا ماريا ايفانوفنا ، لن اعتذر لك ، لا اظنك ضجرة فى الجلوس فى الظلام مع فارس احلامك .

انصرف شفابرين تاركا الحرس عند العنبر . لزمنا الصمت . وامتد الصمت . كان كل واحد منا يفكر مع نفسه ، دون ان يجرؤ على الافضاء بافكاره للآخرين . تصورت لنفسى كـــل ما سيحدث لو استسلمنا الى شفابرين الحاقد . انا لم اكن اهتـــم بنفسى تقريبا . واعترف بأننى لم افزع لمصير والدى قدر فزعى على مصير ماريا ايفانوفنا . كنت اعرف ان الفلاحين والخدم كانوا يحترمون امى الى حد العبادة ، كما ان ابى كان محبوبا ايضا ، رغم صرامته ، لانه كان عادلا وعارفا بالاحتياجات الحقيقية لرعاياه . كان عصيانهم تضليلا وسكرة عابرة ، وليس اعلانا عن استيائهم . فالرأفة فى هذه الحال محتملة . ولكن ماريا ايفانوفنا ؟ اى مصير اعد لها ذلك الرجل العابث المعدوم الضمير ؟ لم اجرؤ على التوقف على هذه الفكرة المريعة ، وكنت مستعدا (غفرانك يا رب) الى ان اقتلها قبل ان اراها ثانية فى قبضة عدو فظ .

مضت ساعة اخرى تقريبا . وترددت فى القرية اغانى

السكارى . وحسدهم حراسنا ، وافرغوا نقمتهم علينا شتائم ووعيدا بالتعذيب والموت . وانتظرنا نتيجة تهديدات شفابرين . واخيرا حدثت ضجة كبيرة فى الحوش ، وسمعنا صوت شفابرين مرة اخرى .

– هل انتهيتم الى شيء ؟ هل ستستسلمون لى طائعين ؟

لم يجبه احد . انتظر شفابرين برهة ، ثم امر بجلب القش . وبعد بضع دقائق شبت نار ، واضاءت العنبر المظلم ، وبدأ الدخان يتسلل عبر الفتحات عند العتبة . دنت ماريا ايفانوفنا منى ، وامسكت يدى ، وقالت بخفوت :

– كفى ، يا بيتر اندريفيتش ! لا يجوز ان تقتل نفسك ووالديك من اجلى . دعنى اخرج من هنا . سيطيعنى شفابرين .

صرخت بغضب :

– مستحيل ! اتعرفين ماذا ينتظرك ؟

اجابت هادئة :

– لن اتحمل العار . ولكن قد انقذ الرجل الذى انقذنى ، والعائلة التى تعهدت يتمى البائس بتلك الرعاية . وداعا ، يا اندريه بتروفيتش . وداعا ، يا افدوتيا فاسيليفنا . لقد كنتما لى اكثر من محسنين . باركانى . واعذرنى ، انت ايضا ، يا بيتر اندريفيتش . . . كن على ثقة بأننى . . . اننى – وهنا انفجرت باكية . غطت وجهها بيديها . . . استبد بى الجنون . اجهشت امى باكية . وقال والدى :

– كفى هراء ، يا ماريا ايفانوفنا . من يتركك

وحدك الى اللصوص ؟ اجلسى هنا واصمتى . اذا متنا ، فلنمت سوية . اسمعوا ، ماذا يقولون ايضا ؟

صاح شفابرين :

– هل تستسلمون ؟ ستحرقون بعد خمس دقائق .

رد ابى عليه بصوت صلب :

– لن نستسلم ، ايها الشرير .

وشعت من وجهه المغطى بالتجاعيد حيوية مذهلة ، وبرقت عيناه ببريق الوعيد من تحت حاجبيه الاشيبين . وتحول الىّ ، وقال :

– آن الاوان .

فتح الباب . فاندفعت النار ، ونشبت بالروافد المبطنة بصوفة جافة . اطلق ابى النار من المسدس ، وتخطى العتبة الملتهبة ، صارخا : «الجميع ورائى !» . امسكت يد امى ويد ماريا ايفانوفنا ، واخرجتهما سريعا الى الهواء . كان شفابرين متمددا عند العتبة وقد جرحته يد ابى الواهنة . كان حشد اللصوص قد تفرق مأخوذا بخروجنا المفاجىء ، الا انه ما لبث ان تشجع ، وبدأ يطوقنا . استطعت ان اوجه بعض الضربات الاخرى ، الا ان آجرة قذفت باحكام اصابت صدرى . سقطت وفقدت الوعى لحظات . ولما افقت رأيت شفابرين جالسا على العشب المدمى ، وامامه كل افراد عائلتى . كان بعض الناس يسندنى من ابطى . وقد احدق بنا حشد من الفلاحين والقوزاق والباشكيريين . كان شفابرين ممتقعا بشكل رهيب ، يضغط على جنبه الجريح بيد واحدة ، ويعكس وجهه العذاب والغل .

رفع راسه ببطء ، ونظر الىّ ، ونطق بصوت ضعيف غير مفهوم :

– اشنقوه . . . والجميع . . ما عداها . . .

وفى الحال احاط الاشرار بنا وجرونا الى البوابـة صارخين . ولكنهم تركونا فجأة ، وتفرقوا متراكضين . فقد دخل غرينيف ووراءه كوكبة من الفرسان شاهرى السيف .

اخذ المتمردون يتشتتون فى كل الجهات . وراح الفرسان يطاردونهـم ، يفتكون ببعضهم ، ويأسرون آخرين . قفز غرينيف من على جواده ، وانحنى لابى وامى ، وصافحنـى . ثم قال لنا : «جئت فى الوقت المناسب . ها ! وهذه خطيبتك» . احمرت ماريـا ايفانوفنا حتى اذنيها . تقدم ابى منه ، وشكره بلهجة هادئة ولكنها متاثرة . وعانقته امى ، ودعته بالملاك المنقذ .. وقال له ابى : «تكرموا بقبول ضيافتنا» . وقاده الى بيتنا .

توقف غرينيف حين مر بشفابرين ، ونظر اليه وسأل : «من هذا الجريح ؟» . فاجاب ابى بشىء من الانفة الكاشفة عن محارب قديم : «انه الرئيس نفسه ، شيخ العصابة . اعان الله يدى الضعيفة لتعاقب هذا الشرير ، وتنتقم منه لدم ولدى المهدور» .

قلت لغرينيف :

– انه شفابرين .

– شفابرين ! سعيد جدا . يا فرسان ! خذوه ! وقولوا لطبيبنا ان يضمد جرحه ، ويحرص عليـه حرصه على حدقة عينيه . ينبغى ان يرسل شفابرين

حتما الى لجنة قازان السريـة . انه احد المجرمين الرئيسيين ، ولا بد ان تكون شهادته مهمة .

نظر شفابرين نظرة تعبة ولم يعبر وجهه الا عن الالم الجسدى . حمله الفرسان على معطف .

دخلنا غرف الدار . نظرت حولى تتملكنى الرعشة وانا اتذكر سنوات صباى . لم يتغير شىء فى الدار وكان كل شىء فى مكانه . لم يسمح شفابرين بنهبه ، محافظا وهو فى درك سفالته نفوره الغريزى من الطمع المفضوح . وظهر الخدم فى الغرفة الامامية . ولم يكونوا قد اشتركوا فى التمرد ، فسروا بنجاتنا بقلوب صادقة . وكان سافيليتش يتهلل بشرا . وينبغى ان اذكر ان سافيليتش ركض الى مربط الخيول اثناء الهرج الذى اثاره هجوم اللصوص ، وكان حصان شفابرين هناك ، فأسرجه ، واخرجه بهدوء ، واغتنم الفوضى السائدة فتوجه الى المعبر دون ان يلحظ . وقد التقى بالفوج الذى كان يستريح بعد ان عبر الفولغا الى هذا الضفة . ولما عرف غرينيف منه ان الخطر يحدق بنا ، امر بشد السروج على الخيول ، والتوجه الينا بعدو سريع ، وقد وصل ، والحمد لله ، فى الوقت المناسب .

اصر غرينيف على ان يعلـق راس موظـف الادارة المحلية على عمود قرب الحانـة خلال بضع ساعات .

عاد الفرسان من مطاردتهـم آسرين معهم عدة اشخاص ، حبسوهم فى نفس العنبر الذى صمدنا فيه للحصار المشهود .

تفرق كل واحد منا الى غرفته . وكان العجوزان

بحاجة الى راحة . وارتميت انا على سريرى ، وقد امضيت البارحة ساهرا ، وغرقت فى نوم عميق . وخرج غرينيف ليصدر اوامره .

وفى المساء اجتمعنا حول السماور فى غرفة الاستقبال متحدثين بمرح عن الخطر الذى زال . صبت ماريا ايفانوفنا الشاى . جلست الى جانبها منشغلا بها وحدها . تبين ان والدىّ ينظران بعطف الى امارات الحنان فى علاقتنا . وما يزال ذلك المساء عالقا فى ذاكرتى حتى الآن . كنت سعيدا ، فى منتهى السعادة . وهل فى حياة الانسان البائسة الكثير من مثل هذه اللحظات ؟

وفى اليوم التالى اخبروا والدى بأن الفلاحين جاءوا الى الحوش معلنين الطاعة . خرج ابى الى مدخل الدار ليقابلهم . وعند ظهوره اخذ الفلاحون يركعون على ركبهم . قال لهم :

– يا حمقى ، ما الذى جعلكم تتمردون ؟

ردوا فى صوت واحد :

– مذنبون ، يا سيد .

– مذنبون ! يعبثون ثم يأتون مستغفرين . سأعفو عنكم فرحة بما منّ الله علىّ بلقائى بابنى بيتر اندريفيتش . حسنا ، من كفّر عن سيئاته سلم من حد السيف . مذنبون ! طبعا انتم مذنبون . الله اعطانا طقسا حسنا كان ينبغى ان يحصد العشب فيه . فماذا فعلتم خلال الايام الثلاثة ، ايها الحمقى ؟ يا عمدة ، ارسل الجميع الى حصد العشب ، واحرص ، ايها

الشيطان الاصهب ، على ان يكون العشب مكوما قبل حلول عيد يوحنا . انصرفوا .

انحنى الفلاحون ، ومضوا الى عملهم وكأن شيئا لم يحصل .

ظهر ان جرح شفابرين غير قاتل . فارسل الى قازان تحت الحراسة . رأيتهم من النافذة يضعونه فى العربة . وقد التقت نظراتنا ، فاطرق برأسه ، بينما اسرعت فى الابتعاد عن النافذة : خشيت ان اظهر تشمتى بعدو مذلول تعيس .

كان على غرينيف ان يواصل السير . عزمت على ان اتابعه ، رغم رغبتى فى البقاء بضعة ايام اخرى بين عائلتى . فى عشية الرحيل ذهبت الى والدىّ ، وركعت على قدميهما ، على عادة ذلك العصر ، طالبا منهما مباركة زواجى بماريا ايفانوفنا . انهضنى شيخاىّ ، واعلنا عن موافقتهما بدموع الفرح . جئت بماريا ايفانوفنا اليهما ، وهى شاحبة ترتجف . فباركانا . . . وانا لا اريد ان اصف ما شعرت به آنئذ . فمن كان فى وضعى سيفهمنى دون حاجة الى وصف ، ومن لم يكن فلا يسعنى الا الاشفاق عليه ، ونصحه بأن يعشق ، ما دام الاوان لم يفت ، وان يحظى بمباركة والديه .

استعد الفوج فى اليوم التالى للسير . تودع غرينيف مع عائلتى . وكنا جميعا على ثقة بان العمليات العسكرية ستنتهى عاجلا ، وكنت آمل بان اكون زوجا بعد شهر . قبلتنى ماريا ايفانوفنا امام الجميع ، وهى تودعنى . امتطيت صهوة جوادى . وسار سافيليتش ورائى مرة اخرى . وتحرك الفوج .

ظللت وقتا طويلا انظر من بعيد الى بيتى الريفى الذى اهجره مرة اخرى . وانتابتنى هواجس كئيبة . وكأن شخصا يهمس لى بأن الغيب يضمر لى مصائب اخرى . كان قلبى يتوجس عاصفة جديدة .

لا اريد ان اصف مسيرتنا ، ونهاية الحرب ضد بوغاتشوف . لقد مررنا خلال قرى خربها رجال بوغاتشوف وانتزعنا ، طوعا او كراهية ، من اهاليها البائسين كل ما بقى لهم بعد نهب اللصوص .

كان هؤلاء لا يعرفون من يطيعون . فان الادارة لم تبق فى اى مكان . واختبأ اصحاب الاراضى فى الغابات . وعاثت عصابات اللصوص فى كل ناحية . وكان رؤساء بعض الكتائب المرسلة لمطاردة بوغاتشوف الذى توجه فى فراره الى آسترخان فى ذلك الحين يعاقبون ، على هواهم ، المذنبين والابرياء على حد سواء . . . وتردت الى درجة مريعة حالة الاقليم الذى تفشى الحريق فى ارجائه . عسى الله الا يرينا عصيانا روسيا لا معنى له ، ولا رحمة فيه . ان الذين يدبرون مختلف الانقلابات عندنا اما انهم شبان لا يعرفون شعبنا ، او اناس قساة القلوب لا يهتمون البتة بخسارة رؤوسهم او رؤوس الآخرين .

هرب بوغاتشوف يطارده ايفان ايفانوفيتش ميخلسون . وبعد وقت قصير علمنا باندحاره التام . واخيرا تلقى غرينيف من قائده نبأ القبض على الدعى ، ومعه امر بالتوقف . وسنحت لى الفرصة اخيرا للسفر الى قريتى . كنت فى غبطة شديدة ، الا ان شعورا غريبا عكر غبطتى .

ملاحظات

الشاعر الروسى العظيم الكسندر سيرغييفتش بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) مفخرة الادب العالمى كله ، لا الروسى وحده .

بوشكين شاعر قبل كل شيء ، الا انه ابدع نثرا فريدا فى كماله .

ويتميز اسلوب بوشكين بالوضوح المتناهى ، وايجاز العبارة ودقتها ، وخلوه من كل تزاويق الاستعارة والتشبيه والالتزام بسرعة تطور الحبكة . لقد كتب بوشكين : «الدقة والايجاز هما فضيلتا النثر الاولوان . فهو يتطلب المزيد والمزيد من الافكار التى لا تغنى عنها اية تعابير زاهية» .

كان بوشكين المصلح العظيم للادب الروسى مؤسس النثر الواقعى .

قصص المرحوم
ايفان بتروفيتش بيلكين

كتب بوشكين «قصص بيلكين» فى خريف عام ١٨٣٠ . وهو شاعر ناضج اعترف العالم بعبقريته . انها اعماله النثرية الاولى ، وقد نشرها فى تشرين الثانى ١٨٣١ باسم بيلكين ، ولكنها صدرت عام ١٨٣٤ تحت اسمه الكامل .

دوبروفسكى

بدأ بوشكين العمل فى هذه الروايـــة فى ٢١ تشرين الاول ١٨٣٢ ، وقد ذيلت آخر فقرة منها بتاريخ ٦ شباط ١٨٣٣ .

ولم تنشر الرواية الا فى عام ١٨٤١ بعد مقتل كاتبها الفاجع (١٨٣٧) فى طبعة مؤلفاته بعد وفاته .

حظيت «دوبروفسكى» بتقدير عال فى النقد الروسى . فقد كتب الناقد الروسى العظيـــم ومعاصر بوشكين فيساريون بيلينسكى : «انها من اعظم ابداعات عبقرية بوشكين» .

ابنة الآمر

كان موضوع الانتفاضات الفلاحية يقلق بوشكين منذ بداية الثلاثينات . وقد اتجه فكر بوشكين ، وهو يتأمل فى هذا الموضوع ، الى انتفاضـــــة اميليان بوغاتشيف (١٧٤٤–١٧٧٥) .

ويدرس بوشكين مواد الارشيف ، ويسافر الى الاماكن التى شملتها الانتفاضة ، ويتحدث الى شهود عيان ، وفى نفس الوقت كان يعمل فى روايته التاريخية «ابنة الآمر» والمؤلف التاريخـــى «تاريـــخ تمرد بوغاتشيف» .

فرغ بوشكين من الرواية فى خريف ١٨٣٦ .

كان الكاتب الروسى العظيـــم نيقولاى غوغول (١٨٠٩–١٨٥٢) يعتبر «ابنة الآمر» افضل عمل من النوع القصصى . كان يقول ان «النقاء والخلو مـــن التصنع ارتفعا فيها الى اسمى درجة ، حتى ان الواقـــع نفسه يبدو متصنعاً وكاريكاتورياً» .